يوم قبل وفاة محمد

محمّد حسّــان المنيّـــر

المحتويات:

مقدمـــــة

أعترف، إنني لما بدأت بوضع أبحاث هذا الكتـاب، قبل نحو عشر سنوات، كان ما زال في نفسي أثر لذلك التحدي الذي طالعني في كتاب" قس ونبي"، فالمؤلف" أبو موسى الحريري" أعلن أسفه، لأنـه " ما من مسلم متدين استطاع الإفراج عن الحقيقة، وليس من جريء مغامر هانت عليه حياتـه ليعلن مـا يضمر. والآن وقد اكتمل هذا الجهد، وخبرت الحياة الإسـلامية والمسيحية بفاعلية، أود أن أقدم هذا الكتاب بملاحظة قصيرة إلى الإخوة المسيحيين، هـي أن صـاحب التحدي في كتـاب" قس ونبـي "لـم يجرؤ هو نفسه، أن يوقـع الكتـاب باسمه الحقيقي عنـدما حـاول أن ينـوب عن المســلم بـالإفراج عن الحقيقة.

وإذا كان كتابي هذا يشرح للمسلمين لمـاذا أطـالبهم بوقف نشـاطات الدعوة في كل مجالاتهـا، ريثمـا تتسنى إعادة النظر في موروثهم الديني والثقافي، فـإنني أسـتبق ذلـك بـدعوة مماثلـة لهيئـات التبشير المسيحي، ذلك أنه كما الهوة واسعة وعميقة بين نبي الإسـلام وكثير من فقهاء المسلمين، كذلك هـي بين السيد المسيح, وبعض رجال الفكر المسيحي، وردم هذه الهوة لا يتم بالتمنيات وحدها.

إن كلا من الطرفين يتهم عقل الآخر بأنـه منوم لا يفهم مـا يقول أو يقـال لـه فـي المسـجد أو الكنيسـة، وأعتقد جازما أن كلا الطرفين على حق، ولغير العلة التي يرونها.

وإذا كان من شأن كتابي هذا أن يشرح السبب للمسلمين، فإنني سـأكتفي فـي هـذه المقدمـة بـذكر بعـض الأسباب التيجعلتني أطالب هيئات التبشير المسيحي بوقف نشاطاتهم، ريثمـا تـتم إعـادة ترتيـب البيـت المسيحي من جهة، والى أن تتسنى إمكانية فهم عقيدة المسلم على حقيقتها مـن جهـة ثانيـة، وربمـا مـن شأن كتابي هذا أن يساعد على ذلك.

من بين هذه الأسباب أن" إسرائيل "احتلت أراض عربية منذ العام ١٩٤٨، وما زالت تحاول التمسك بما احتلته في الحروب الثلاثة .فكيف يتقبل عقل العربي المسلم الخبر المفرح والسار من فم مبشر يعطي ل" إسرائيل "الأفضلية عليه بما قد يصل إلى تبرير احتلال أرضه ؟ !

مثال ذلك، ما جاء في رد القس الدكتور لبيب ميخائيل، رئيس مجمع الكنائس المعمدانيه فـي القـاهرة، على ما كتبه الدكتور مصطفى محمود بمجلة" أكتوبر المصرية (١) .فمع أن التوراة والقرآن يقرران تفضيل" إسرائيل "على الأمم، فإنما يتحدثان عن حيّز زماني معين اقتصرت معرفة الله فيه على"بني إسرائيل".

ومع ذلك، ها هو أحد أكبر القساوسة المصريين يكاد يعطي شرعية للاحتلال الإسرائيلي، أو أعطاها فعلا، لأن "تفضيل إسرائيل على العـالم مـا زال قائمـا حتـى الآن لأن الله لا يغير عهده الـذي قطعـه على نفسه مهما تغير النـاس" (٢). وليس هنـا مجـال الـرد، إذ تضـمنه ـ فـي جملـة مـا تضـمن ـ كتـابي الذي سيصدر قريبا تحت عنوان "وقال لي يسوع وإنما أردت مثالا يقتضي المسيحيين إعـادة نظـر في عديد من الأمور؛ ليس فقط في البون الشاسع بين" أرض الموعد "و" الأرض الموعـودة"، بـل فـي وضع الكنيسة التي سرق منها دورها، وفي مفهوم الكنيسة أساسـا، وفـي العلاقـة بـين العهـدين، القديم والجديد.

لقد تحول بعض الكنائس - للأسف- إلى سوق(سوبر ماركت) تباع فيها "الروح القدس" عبر طقوس أشبه بحفلات "الزار" (٣) الشعبية المصرية. مع أن الأناجيل الأربع تركز على واقعة طرد السيد المسيح للصيارفة واللصوص وباعة الحمام من الهيكل. والكنيسة كما هو معلوم - نظريا على الأقل - ليست مجرد بناء للخلوة والصلاة فقط ، بل هي بناء ، حجارته من البشر ، وحجر الزاوية فيه هو السيد المسيح. وهي بهذا المعنى مؤتمر يضمن لكل مؤمن حق المشاركة في كل شيء.
إذا كان الفكر المسيحي في بعض اتجاهاته الراهنة لا يميز بين كنيسة يقتصر دورها على الطقوس والمواعظ والنشاطات الإجتماعية، وبين "الكنيسة المؤتمر ، فذلك مرده إلى ثقافة فقهية تسربت إليها البراغماتيه" لتصبح أولى مهماتها تغييب نظام الكنيسة بالذات. وسيزعم الكثيرون أن المسيحية لم تعرف أبدا سوى المكان المخصص للصلاة والوعظ والنشاط الخيري والاجتماعي. وأنا أدعو هؤلاء إلى قراءة واعية ومتعمقة لأخبار الكنيسة الأولى في عهد الرسل.
ثم إن المسيحية كما أرادها السيد المسيح ليست حركة حياة جديدة خارج الجسد فقط، وإنما التأهيل لذلك يتطلب حركة حياة جديدة داخل الجسد أيضا. والمسيح لم يطالب الناس بأداء الشعائر ثمنا للجنة بعد موت الجسد، بل طالبهم أولا بأن يكسبوا لأنفسهم جنة على الأرض، تقع بوابتها تحت لافتة "المحبة"، وفي ذلك قوله: "كيف تقول أنك تحب الرب إلهك وأنت لا تراه ، فيما أخوك الذي تراه لا تحبه"(٤) والمحبة هنا مسؤولية الناس أنفسهم، وهي مسؤولية لها قواعد محددة، منها أن يكون لهم صوت مسموع ، لكي يضمنوا لأنفسهم تحقيق المحبة بضوابط العدل والمساواة.
لقد تبنى قسم لا يستهان به من الكنائس منهجا يفصل الكنيسة عن روح الحياة المسيحية الأولى. وهذا المنهج اقتضى أن تكون هذه الكنيسة قادرة على إرضاء ضمير المسيحي بغض النظر عما يحدث للمسيحيين. هذا المسيحي الذي صنعه بعض رجال الدين المسيحي على هواهم ، قد صار عمره الآن حوالي ألفي عام من دون أن يبلغ سن الرشد، فهو - شأنه في ذلك شأن المسلم - ما زال إنسانا معفياً من مسؤوليته عن حياته.
والخطأ المميت الذي وقع فيه بعض الكنائس، أنها نجحت في التعويض عن الكل بالجزء ، ونجحت في إقناع الإنسان المسيحي بقبول هذه الخسارة ، ونجحت في تمرير الخسارة نفسها باعتبارها فوزا أبديا في حياة أخرى خارج الجسد ، ولكن مشكلة هذا النجاح المستمر أنه نجاح في زيادة الخسائر.
وما يؤخذ على المسيحية المعاصرة أنها لا تقوم على قواعد الكنيسة الأولى ، بل تقوم على قاعدة كنائس متعارضة ومتنافرة ، بل ومتنافسة ، ومن خلال هذا الإختلاف استطاعت أن تعفي الناس من مسؤولياتهم تجاه أنفسهم ، مع أن الناس هم الذين يدفعون نقدا قائمة الحساب في نهاية المطاف.
إن كنيسة تقوم على أنقاض ماض لا يعيشه الناس هي كنيسة خرافية بالضرورة، لأنها لا تستقرئ الحاضر والمستقبل ، بل تقرأ الماضي. كنيسة لا يهمها ازدياد انتشار زواج القاصرات وولادات السفاح، ولا العنف تحت لافتة الرياضة ، ولا الشذوذ الجنسي باسم الحرية، ولا سرقة المواطن باسم الفوائد المركبة للقروض، بل يهمها أن تؤكد للمسيحي بأن الإتجاهات العلمية الحديثة كفر ، مع أن هذه الاتجاهات جاءت نتيجة انفتاح على الروح القدس.
إن مثل هذه الكنيسة - شأنها شأن الجامع أو المسجد - لا يقرأ الحاضر الواقع بل يقرأ ما يقال عن الماضي ، ويبني للمسيحي وللمسلم واقعا مسحورا لا يسكنه من أحياه المسيح بل تسكنه شخصيات

العهد القديم وحدها. وأصبح المؤمنون يعيشون في الكنيسة والجامع على هيئة رموز صامتة ، مثل أسمائهم في قوائم المراسلات.

إن مشكلة اللغة ـ في المسيحية كما في الإسلام ـ أن كلماتها لا تنقسم إلى صحيح وخطأ ، بل تنقسم إلى كلمة حية وأخرى ميتة ـ كما يقول "الصادق النيهوم" (٥). وهو انقسام حقيقي وشامل، بيد أن قواعد اللغة لا تستطيع أن تتبيّنه، لأنه لا يظهر في بناء اللغة ، بل يكمن وراء سلوك الناس ، وعلامة الكلمة الميتة أنها مطوعه تاريخيا لخدمة أغراض السحرة ، فعبارة "العالم الآخر" التي نحتت من لغة الناس لا تعني طموحا دنيويا يتطلب سلوكا وبرنامج عمل ، بل تعني عالما آخر مجهولا ، أول صفاته أنه غائب عن عيون الناس ، وهي مغالطة شفوية لتعاليم المسيح ، ولكنها ضمنت للبعض أن يحتكر تفسير الشرائع حتى يومنا هذا .ولو أن السيد المسيح عاد في هذه الأيام لردّوه قائلين: "عد إلى مكانك ، ولا تفضحنا بجهلك وطيبة قلبك". ولأضافوا قولهم: "ثم ، دعنا نعمل من أجلك".

وثاني صفات هذا العالم الآخر ، أنه عالم حي ، لكن بوابته الوحيدة تقع وراء الموت ، مما يعني أن مستقبل الناس الأحياء يبدأ فقط بعد أن يموتوا .وثالث صفاته أنه عالم خارج سنن الطبيعة ، وهي صياغة تريد أن تقول إن عالم الناس الأحياء ليس عالما حقيقيّا.

وردا على هذه الخدعة الشفوية بالذات ، جاءت لغة السيد المسيح ، وتميز ميلادها بظهور تعاليم لها لغة مقدسة تختلف عن لغة البعض من كنائس اليوم .ففي لغة المسيح تكلم الإله الحي، وسكت الصنم الميت ، وبات العالم قابلا للتفسير بلغة الأحياء فقط.

لقد رأى تلاميذ يسوع ، وخلفاؤهم المباشرون ، الذين دونوا كتب العهد الجديد أن المسيح لم يأت ملكا ليحقق آمال "إسرائيل" وحدها، بل جاء من أجل كل الأمم ، وكل العالم. أما عندما يقرأ العهدان، القديم والجديد معا ، في ضوء الإيمان بالشعب الإسرائيلي وحده ، في ضوء فضله وتميزه وتفرده، فذلك هو المأزق الحقيقي الذي يصعب الفكاك منه ، ولا يصح معه أن يستمر تبشير المسلمين ، فلا بد من إعداد البيت وتأهيله ، ولو أن غالبية المسيحيين يمارسون تعاليم المسيح فعلا ويعيشونها يقينا ، لأصبحت بيوتهم قبلة المسلمين بدون أدنى شك . وهذا ما يذكرني بما قاله "غاندي" في مجلس العموم البريطاني: "أعطوني مسيحكم ، وخذوا مسيحيتكم".

أما مطالبتي بوقف الدعوة الإسلامية ـ وهي موضوع هذا الكتاب ، فلأن المسلمين يواجهون عصرا لم يولدوا فيه حتى الآن ، وقد آن الأوان ليحل التاريخ محل المأثور، ذلك أن مجمل البناء الذي انتهى إلى المسلمين قد بدأ يتآكل ، وتكفي الاشاره هنا إلى أن للعصر القديم سحره الأخّاذ ، فما أن يتسرب اليأس من الحاضر إلى صدور الناس حتى يلتفتوا إلى الماضي ، بوصفه العصر الذهبي ، فحين لا يتبقى من الماضي سوى الملامح المبهمة التي يتشكل منها الموروث ، يجد الفقيه لذة كبرى في سدّ ثغرات الذاكرة.

لقد حرص نبي المسلمين على التناقل الشفهي للخطاب القرآني من جهة، ولأحاديثه من جهة ثانية ، فقد ثبت أنه أراد للقرآن أن يكون محفوظا فقط في صدور القرّاء ، وحذّر من تدوين أحاديثه والافتراء عليه لأن الرواية المكتوبة لا يمكن أن تسلم لمدة طويلة من عبث العابثين وتزوير المزوّرين ، فيما التناقل الشفهي وهو المأثور الذي يصبح موروثا يمكن أن يظل حصينا لمدة أطول ، سيما وأنه لا يخضع كما يخضع المدوّن لميول ونوازع الكاتب والمحرر . وبالفعل ، فقد بقي الإسلام موروثا

شفاهيا للعشرات من السنين بعد وفاة رسول المسلمين ، إلى أن تم تدوين الحديث. وبعد مئتي سنة تقريبا أعقبت وفاته ، عليه السلام ، اكتشف البخاري ٥٩٢٧٩٥ حديثا مكذوبا كان قد أسند إلى نبي الإسلام من أصل ستمائة ألف حديث .

لقد كان على الفقه الإسلامي ، منذ العصر الأموي ، وربما قبله، أن يختار واحدا من طريقين ، فإما أن يموت فقهاء المسلمين أو أن يموت الإسلام نفسه ، ورغم أن بعض فقهاء المسلمين اختار طريق الجنة، إلا أن أغلبهم كان وماز ال مضطرا للعودة إلى بيوتهم في آخر النهار .... وهكذا ، فانه لا بد من مراجعة شاملة قبل مواصلة واستمرار الدعوة الإسلامية لأنه لم يتبق من الماضي سوى ملامح مشوهة ....لا ، ليست مشكله السلفيين أنهم مروعون بفقدان الذاكرة ، وإنما العلة أنهم يتذكرون أكثر مما ينبغي .

إن الشيطان الذي يرجمه مئات ألوف الحجاج المسلمين كل عام ، وهو نفسه الشيطان الذي يحذر منه القساوسة في معظم الكنائس اليوم، قد اكتسب مقاومة أكبر. إنه اليوم أكثر خداعا لأنه يكمن في طريقة الحساب، والتعداد والتقييم ، وذلك برغم كل الحجارة التي تنهال على رموزه ، وبرغم كل التعويذات التي كانت ألقت بالشيطان خارجا.

المشكلة أن الشيطان يكمن في آلاتهم الحاسبة الصغيرة التي يستخدمونها عند الحساب. إنه في رؤوسهم ، بل في طريقتهم في الحساب، في الاستهلاك، في الشراء، وفي العدّ، حتى عندما يعدون الله أحدا، (مع أنه اله واحد).

ومن أجل رفع تحدي الشيطان يجب أن نقاتل على أرضية الحاضر. ولكن تحدي الشيطان هو تحدي النفس .أليس عملا شيطانيا أن ننزلق بشكل طفولي نحو الأصل؟ نحو ماض مخدّر؟ ننزلق كبهلوان على حبل مشدود إلى زمن سيء ، ...... زمن يتجه صوب الأموات لا الأحياء ؟....!، صوب القبور في أعماق الأرض وليس نحو السماء ؟!

إن استضافة السلفويين المسلمين لجدودهم من وقت لآخر ، قد يمكن أن يثري حياتهم لبرهة. ولكن هؤلاء الجدود يستقرون بينهم بشكل نهائي ، ولهذا فهم يفترسون صباحهم وشمسهم وليلهم. صحيح أن مستقبل أجسادهم هو الموت ، ولكن كيف يمكن إنقاذ أرواحهم في الوقت المناسب ؟...

يقينا ، لن يكون هذا الإنقاذ ممكنا إلا إذا بدأنا بنبش الماضي ، لكشف كل الحيل المسرحية التي انطلت على آبائنا ، وبدون ذلك ستبقى الحياة غير مبررة. ومن هنا ضرورة إعادة النظر في كل شيء ، التدقيق في "المقدسات" دون مبالاة بكل هالات القدسية ، إلى أن يتم التأكد مما هو مقدس فعلا ، وتمييزه عن ما كان مقدسا باختيار الجدود الذين تم تنويمهم قبل أن يموتوا.

وبالطبع ، فإنه ليس كل من يقرأ الماضي مؤهل لنقده، مطلوب منا أن نناقشه ، وليس أن نتلوه كصلاة سحرية. ومن أجل قراءة نصوص قديمة يجب أن نتجذر في الحاضر ، وأن لا نسقط مشاكلنا على النصوص السلفوية.

نعم، إنني أدعو إلى توجيه أبصارنا نحو الماضي، لا لنعيشه، إنما بغية نقده، وردم الهوة السحيقة بينه وبين حاضرنا. وبدون ذلك سنبقى نواجه عصرا لم نولد فيه حتى الآن. وهذا ما دفعني لكتابة هذا المؤلف.

محمّد حسّـــان المنيّـــر



هوامش المقدمة

١- العدادان ١٣ تموز/يوليو، و ٣ آب/ أغسطس ١٩٩٧.

٢- "الرد الكامل على الدكتور مصطفى محمود" مطبوعات دار الكرازة - كولورادو سبرنغ - عام ١٩٩٧.

٣- من كتاب للمؤلف سيصدر قريبا تحت عنوان "شهادات مسيحية في زمن إسرائيل". "..وقال يسوع"

٤- إنجيل يوحنا.

٥- من كتابه "السلام في الأسر" مطبوعات "دار الريس".



مدخـــل

إنها مأساة فعلا أن ينهض واحد مثلي اليوم ليقول لنحو مليار من المسلمين إنهم خدعوا ، وتوارثوا الخديعة، أبا عن جد ، على مدار أربعة عشر قرنا!

أعترف أن في الأمر قسوة لا يمكن وصفها ، لأن ذلك يمسّ الجذور في الأعماق ، والتاريخ الموغل في القدم ، والعادة المتأصلة في النفوس. وأنا نفسي عانيت الكثير الكثير ، فهل أصمت كما صمت غيري حتى لا أتهم بالزندقة ؟ ,وإذا سكتّ كما فعل غيري على مدار ألف وأربعمائة عام أو نحوها ، فأين الخلاص ومتى يكون ؟!

قرب ظهيرة يوم الإثنين ، أول الربيعين ، في السنه الحادية عشر للهجرة أي في السابع من حزيران / يونيو عام ٦٣٢ ميلادية ، توفي نبي الإسلام عليه السلام دون أن يتمكن من كتابة ما طلب أن يكتب . وبدأ اللغط حول الكتاب الذي منعه بعض صحابته من تدوينه ، والذي تناولته تخمينات شتى ، معظمها يتعلق بالخلافة وشؤونها ، فقد قال "البكريون" أن الكتاب الذي لم يتمكن محمد عليه السلام من وضعه ليس أكثر من وصية لإثبات الخلافة لأبي بكر الصديق ، وقال العلويون أنها كانت لإثبات الخلافة لعلي بن أبي طالب. وتعددت الظنون مع أن الكتاب لم يكتب ، وهو في الأصل لم يدون لأن أحدا من صحابته لم يشأ المغامرة بقبول كتاب جديد قد ينسف جزءا من البناء العقائدي الإسلامي ، وربما كله ، إذ لا أحد يدري ماذا يمكن لنبي الإسلام محمد عليه السلام أن يكتب قبل ساعات من وفاته. ولهذا لابدّ من وقفة قصيرة عند مقولة ابنته فاطمة ، إذ خاطبت بعض صحابته في أثر الدفن قائلة: "فلتفرح قلوبكم فقد واريتموه التراب". ومثل هذه الكلمات تعكس مناخا نفسيا عاشه بعض صحابة أبيها، فكأنما موته قد خلصهم من همّ أن يطلع عليهم بمفاجأة يكون وقعها أكبر من وقع وفاته. ومن المؤكد أنهم توقعوا أن يتناول في كتابه جوهر الدين ، ولو فعل ما جرؤ أحد منهم أن يقاوم عملية الردة ، أما وأنه لم يتمكن من ذلك فانه أتاح لهم ، وللفقهاء وكتّاب السيرة والمفسرين من بعدهم ، أن يستبعدوا المساس بجوهر الدين. وبمعنى آخر فإنهم آثروا الاختلاف في مسألة الخلافة على الإختلاف في العقيدة بجوهرها وبنائها.

في أمس ذلك اليوم الذي انقضى عليه نحو أربعة عشر قرنا ، كان محمد عليه السلام يغالب سكرات الموت في بيت أصغر زوجاته ، عائشة ، وفي رعايتها .وقد طلب ممن كانوا في حضرته من الصحابة قرطاسا وقلما قائلا: أعطوني قرطاسا وقلما أكتب لكم كتابا لا تضل بعده أمتي"(١). فقال ابن العباس": الرزية ما فصل الرسول عن كتابه"(٢). وقال عمر بن الخطاب: "دعوه إنه يهجر فقد غلبه الوجع ، حسبنا كتاب الله" (٣). وإذا لم يجبه أحد إلى طلبه وكثر اللغط بين أقربائه وأصحابه أمرهم محمد عليه السلام بالإنصراف ، وأسند رأسه على راحتي زوجته السيدة عائشة ، ومات دون أن يكتب تلك الورقة أو الوريقات.

لقد اتجه معظم الدارسين والفقهاء من المسلمين إلى الإفادة من كلام نبي الإسلام محمد عليه السلام قبيل ساعات من وفاته في مناقشة الأساس الفقهي لنظرية الخلافة في الإسلام وحسب ؛ وهذا يعني سلخ حديث محمد عليه السلام عما تبعه من رد عمر بن الخطاب وجواب ابن العباس. ولو كان الأمر الذي عناه قبل وفاته يتعلق بمسألة الخلافة أو الولاية لما قال عمر بن الخطاب: "إن رسول الله يهجر

أي يهذي. ولما قال ابن العباس: "الرزية ما فصل الرسول عن كتابه". لقد اتهم ابن الخطاب رسول الإسلام بأنه "يهجر"، وذلك في العربية يعني أنه يهذي. فيما ينزهه الخطاب القرآني عن الهذيان بقوله: "وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى"(٤). ولكن لنعد إلى أيام قليلة سبقت ذلك. فثمة حدث يشير إلى تمرد خطير مارسه كبار صحابته عليه.

فقد جهّز رسول الإسلام جيشا لغزو الروم قبل وفاته بيومين، وجعل على السرية المقاتلة أسامة بن زيد بن حارثة أميرا ، وعمره آنذاك لم يتجاوز السابعة عشر عاما ، وقد عبأ في هذه السرية كبار صحابته من المهاجرين والأنصار ، ومنهم أبو بكر، وعمر بن الخطاب ، وعبيدةبن الجراح ، وطلحة بن الزبير ، وغيرهم ، فطعن هؤلاء في تأمير أسامة ، وقالوا :كيف يؤمّر علينا شاب لانبات بعارضيه ؟ .... وكانوا قد طعنوا قبل ذلك في تأمير أبيه حتى غضب محمد أشد الغضب مما سمع من طعنهم ، وكان بعد ذلك أن اتهمه إبن الخطاب بالهذيان ، فخرج معصب الرأس. محموما ، يتهادى بين رجلين يحملانه ، وقدماه تخطان في الأرض من شدة ما به من لغوب. فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه وقال: "أيها الناس ما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة فقد طعنتم في تأميري أبيه من قبله ، وأيم الله إنه كان خليقا ، وإن ابنه من بعده لخليق بها"(٥).

ثم جعل رسول الإسلام يحضهم على التعجيل وجعل يقول :جهزوا جيش أسامة، أنفذوا جيش أسامة ، أرسلوا بعث أسامة"(٦) وجعل يكرّر ذلك على مسامعهم وهم لا يفعلون.

وكالعادة عند قراءة مثل هذه الأحداث التي تمس كرامة كبار الصحابة يحاول المسلم تكذيب مثل هذه القضايا وتجاهلها ، ولكن لا يمكن تكذيب ما أجمع عليه المؤرخون والمحدثون من علماء السنة والشيعة معا.

ونقرأ اعتذار أهل السنه على هؤلاء بأنهم كانوا مشايخ قريش وكبراءها ولهم الأسبقية في الإسلام ، بينما أسامة كان حدثا ولم يشارك في المعارك المصيرية مثل بدر وأحد وحنين ، ولم تكن له سابقة ، بل كان صغير السن عندما ولاّه رسول الإسلام إمارة السرية ، ولذلك طعنوا في تأميره وأرادوا من رسولهم أن يستبدله بأحد من وجوه الصحابة.

ولكنه اعتذار لا يستند إلى دليل شرعي في الإسلام ، ولا يمكن لأي مسلم قرأ القرآن وعرف أحكامه إلا أن يرفض مثل هذا الإعتذار لأن الخطاب القرآني كان صريحا في ذلك لقوله: "وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا"(٧).

ومع ذلك تثاقلوا وتباطأوا ولم يذهبوا حتى توفي وفي قلبه حسرة منهم .لقد أغضبوه وتمردوا عليه يوم الخميس ، ثم اتهموه بالهجر والهذيان بعد يومين ، أي يوم السبت ، وقالوا: "حسبنا كتاب الله" .....

أما: "كتاب الله" فقد وصل إلى المسلمين عن طريقهم. وإذاً فالصحابة ليسوا كلهم ثقاة وهذا ينسف الأساس في وصول القرآن إلينا.

إن تاريخ الإسلام يصور لنا صحابة رسول المسلمين وكأنهم ملائكة لا يخطئون ولا يذنبون لأن القرآن والحديث وصل عن طريقهم. ولقد سألت مرة أحد علماء المسلمين ، كيف يقتل خليفة المسلمين عثمان ذو النورين وهو صهر رسول الإسلام ، كذلك هو الذي أمر بجمع القرآن ، وصار القرآن الحالي يعرف باسمه، وجاءني الجواب فورا ، فأنهى الموضوع كله بجملتين :" إن المصريين - وهم كفرة - جاءوا وقتلوه". ولكني وجدت في تاريخ الإسلام شواهد أكيدة تدل على أن

قتلة عثمان بالدرجة الأولى هم من الصحابة أنفسهم، وفي مقدمتهم أم المؤمنين عائشة، وهي التي يزكيها رسول الإسلام بقوله: " خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء"، فقد كانت تحرض على قتل عثمان بقولها: "اقتلوا نعثلا فقد كفر"(٨)ولا يخفى على أحد أن نعثلا كان وراء القرآن المتداول حاليا. كذلك وجدت طلحة والزبير ومحمدا بن أبي بكر، وغيرهم من مشاهير الصحابة هم الذين منعوا دفن جثته في مقابر المسلمين ، فدفن في " حش كوكب" وهي من مدافن اليهود ، دون غسل ولا كفن. ويقال لنا أنه قتل مظلوما ، وأن الذين قتلوه ليسوا مسلمين. وهذه القضية فيها أمران لا ثالث لهما. فإما أن يكون عثمان مظلوما وعند ذلك نحكم على الصحابة الذين قتلوه أو شاركوا في قتله بأنهم مجرمون لأنهم قتلوا خليفة المسلمين وتتبعوا جنازته يحصبونها بالحجارة ، وأهانوه حيا وميتا ، أو أن هؤلاء الصحابة استباحوا قتل عثمان لما اقترفه من أفعال تتنافى مع الإسلام كما جاء ذلك بالقول: "إن المصريين ، وهم كفرة ، هم الذين قتلوه" ! وفي كلا الحالتين نفي قاطع لعدالة الصحابة ، ونفي أكيد لكونهم ثقاة، فإما أن يكون عثمان غير عادل، وإما أن يكون قتلته غير عدول وغير ثقاة .ولكن أن يكون الضحية والجلاد عادلين في الآن ذاته ، وتحت سقف واحد ، فذلك جزء يسير من المأزق الفكري الذي لا يستطيع فقهاء المسلمين الإفلات منه، ولا سيما فقهاء السنة.

كذلك يتمثل المأزق الفكري عند فقهاء الشيعة في نظرتهم إلى "القرآن" ذاته، فهم يعتقدون بأن عليا بن أبي طالب ، وبتكليف من رسول المسلمين قبل وفاته ، جمع القرآن ونسخه خلال عزلة في بيته دامت نحو ستة أشهر ، فلما جاء به إلى أبي بكر قال له عمر بن الخطاب: "لا حاجة لنا بك وبقرآنك" فمنعه عنهم ، ولن يظهر بحسب معتقدهم إلا مع عودة الإمام الغائب.

وهنا يتعمق المأزق إلى أقصى الحدود. فالإسلام الذي ظهر وكأنه رسالة لتحرير الدين من هيمنة السحر والكهنوت تحول على أيدي الفقهاء إلى رسالة مسخرة لخدمة مذهب صوفي يهودي قائم على الإيمان بالعلم السري ، وتعدد مراتب المعاني في الكتب المقدسة ، وهي كارثة افتتح مسيرتها أهل السنة ولا سيما في عصر الشيخ المتصوف محي الدين ابن عربي ثم ما لبث الشيعة أن أظهروا تفوقا ملحوظا في تطويرها إلى مذهب حلولي متطرف ، وقصة ذلك تبدأ مع قصة الحكمة الخفية التي تبناها القرآن.



ما هي هذه الحكمة الخفية

من المعروف أن نحو ربع سور القرآن تبدأ بحروف هجائية منفصلة يسمونها "المقطعات" مثل: "كهيعص" ، "ألم" ، "حم" ، "ألف لام راء"....وهي لا تعني شيئا في ظاهر اللغة مما أطلق العنان لخيال المفسرين حتى وصل الأمر بأحد الباحثين المعاصرين إلى حشد هذه الحروف في برنامج آملا أن يقوده الكمبيوتر إلى حل هذه الشيفرة الإلهية.

وواقع الأمر أن هذه الحروف لم تكن في يوم من الأيام ألغازا ، بل كانت علامات في مذهب متطرف يهودي يدعى بالقبّالة. و"القبّالة "كلمة عبرية من أصل آرامي تركز على الجذر " قبل" بمعنى ارتضى. وسنأتي على تفاصيل ذلك خلال الحديث عن مصادر الوحي. ويكفي أن نعرف الآن أن "ألقبالة" مرتبطة بالحكمة الخفية. التي نسيها الناس حتى شاعت بينهم الحروب والمجاعات مما دعا الرب إلى إعادة نشرها ضمن العهد الذي عقده مع إبراهيم ، وعلّمه بموجبه سر الحكمة الخفية ملخصا في اسم "يهوه" ، وهو اسم يذكر متصوفة اليهود أنه يتكون في صيغته العبرية من أربعة حروف تربط مقام الرحمة بالقلب ، ومقام القلب بالحكمة ثم مقام الحكمة بمقام الرحمة ثم تعود فتربط مقام الحكمة بالقلب وذلك في دائرة ذات رموز خاصة.

ومن ابراهيم ، الى ابنه اسحق ، فيعقوب ، انتقل سر الحكمة الخفية حتى انتهى إلى يوسف الذي مات مغتربا في مصر واضطر أن يحتفظ بالسر معه في القبر ، مؤثرا أن يترك شعبه دون حكمة على أن يفشي سرها للمصريين. وبذلك كادت الحكمة الخفية. - أي "ألقباله" - أن تندثر لولا أن النبي ابراهيم كان قد دونها في كتاب أسماه "سفر التكوين" وأودعه في كهف.

وهذه النسخة الوحيده احتفظ بها الرب في الخفاء متعمدا أن لا يبديها حتى يظهر الحكيم الأكبر - أو الإمام الغائب،

أو باب العلم - الذي يطلع على نبع المعرفة، ويدرك معنى الأسماء.....وقد طال الانتظار بضعة قرون قبل أن يظهر الحكيم المطلوب وهو النبي موسى الذي تعلم من أسرار الحكمة ما يتيح له أن يحيل النيل إلى دم ، ويغرق مصر في القمل والضفادع ، ويفلق مياه البحر بعصاه.

منذ نبوة موسى الذي يتكون اسمه من ثلاثة أحرف تمثل "ألماء" ، و "النار" ، و"الريح" ، عاد عصر الوحي المباشر ، وتم منحه كتابين مقدسين أحدهما "علم الظاهر" ملخصا في الوصايا العشر ، والثاني ملخصا في "القبّالة" أي الحكمة الخفية. وبموجب "القبّالة" فان كلمة "في البدء" التي افتتحت سفر التكوين لها معنيان أحدهما ظاهري ، وهو مفهوم الكلمة في اللغة ، والآخر باطني لا يطلع عليه الا من يعرف الغاز الأبجدية العبرية. فهذه الكلمة لها ترجمة محددة واحدة هي" براشيت التي تتكون من ستة حروف كل حرف منها له الرمز التالي:

ألباء: الكون

الراء: الشمس

ألألف: الثنائية

ألشين: الروح

ألياء: آدم

ألثاء: حواء

ومن مجموع هذه الرموز تتكون صيغة سرية تقول: "من الكون انبثق ضوء الشمس الذي تجلت فيه الثنائية لكي تعبّر عن الروح بخلق الذكر والأنثى. ومن هذه الصيغة نشأت جميع المذاهب الباطنية في الإسلام، وظهر منهج التفسير الباطني عند الشيعة لكشف الحجاب عن الحكمة الخفية بل إن رواة الحديث عندهم تكفلوا بتوفير النصوص الشرعية المطلوبة ومن ذلك حديث "الخرقة"(٩).

"عندما أصعدت ليلة المعراج إلى السماء ودخلت الجنة ، رأيت في وسطهم قصرا مبنيا بحجارة من الزمرد ، ففتح لي جبريل الباب ، فدخلت ، وشاهدت في الداخل بيتا مبينا بحبات اللؤلؤ ، فإذا في وسطه صندوق مصنوع من نور ومقفل بقفل من نور ، فقلت يا جبرائيل ما شأن هذا هذا الصندوق ، وماذا في داخله فقال جبريل يا حبيب الله إن فيه سر الله الذي لا يظهره إلا للذي يحبه". وكلمة سر الله ترجمة صريحة ل "الحكمة الخفية" التي لا يبديها الله (يهوه) حتى يظهر الإمام الغائب ويبقى أن الخرقة هي جبة مرقعة يزعم رواة الشيعة أن رسول الإسلام أحضرها معه من السماء في ليلة المعراج فأعطاها لعلي بن أبي طالب بمثابة رمز للولاية ، ثم إن عليا ألبسها ابنه الحسن، من بعده الحسين ، ثم ذريته الواحد بعد الآخر حتى انتهت إلى المهدي المنتظر ، وما تزال عنده حتى الآن مع قرآن الإمام .وكلمة "الولاية" هي الترجمة الإسلامية لمصطلح "صاحب السر الإلهي القادر على تغيير سنن الطبيعة" عند اليهود.

وكما في المعنى الباطني تكمن الحكمة الخفية، كذلك عند الشيعة ، فإن اعتماد التأويل بحثا عن المعنى الباطني لآيات الخطاب القرآني تغنيهم عن قبول المعنى الظاهري على ما فيه من تعارضات قد تخالف عقيدتهم. ومثال ذلك ، أنهم يجدون عودة الإمام الغائب في اعتماد المعنى الباطني للآية القائلة:

"ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون"(١٠).

فقد جاء في" تفسير القمي : "عن ابن أبي عمير عن حماد عن أبي عبد الله جعفر الصادق قال :ما يقول الناس في هذه الآية" ويوم نحشر من كل أمة فوجا" ؟ قلت :يقولون إنه في يوم القيامة قال :ليس كما يقولون ، إنها في الرجعة. أيحشر الله من كل أمة فوجا ويدع الباقين؟ وإنما آية القيامة: وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا"(١١).

ويتحدث علماء الشيعة عن الحديث فيرفضونه لأنه من وضع الوضاعين ، وقد رأينا رأي علمائهم في صحيح البخاري ومثله صحيح مسلم، وحتى لو صح أن الحديث لم يوضع، وصحت نسبته إلى أحد الصحابة فان الصحابة عندهم غير ثقاة فيما عدا نفر قليل منهم مثل أبي ذر الغفاري ، ومثله كان مقلا في رواية الحديث أو أنه لا يرويه اصلا.

يتساءل الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي عن الوحي الذي جاء بالقرآن فوضعه بين يدي محمد عليه السلام فيقول:(١٢)

"أهو نوع من الإلهام النفسي ؟، أم هو حركة فكرية داخلية ؟ أم هو إشراق روحي جاءه عن طريق الكشف التدريجي ؟ أم هو ضرب من الصرع والجنون كان ينتابه كما قيل ؟ أم هو استقبال لحقيقة ذاتية مستقلة عن كيانه يتلقاها من خارج فكره وشعوره" ؟

ويضيف قوله : ونحن لا نملك سبيلا علمية صحيحة إلا بالرجوع إلى حقائق التاريخ الثابتة الواصلة إلينا عن طريق النقل الصحيح ، واذا رجعنا نسأل حقائق التاريخ فإنها تضعنا أمام حديث قصة بدء الوحي الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما"(١٣).

ودعونا هنا نضع خطا تحت "البخاري" و "مسلم". فالرجلان دونا الحديث في القرن الثامن للميلاد ، وفي عهود الخلافة الأموية. واعتراض فقهاء الشيعة على البخاري ومسلم فيه الكثير من الحق إن لم يكن الحق كله. وحتى لو صح الإسناد المتصل إلى صحابة نبي الأمة ، فإن معظم هؤلاء الصحابة عندهم غير ثقاة ، ويروون أسبابهم التي تبرر نزع الثقة منهم من خلال البخاري نفسه.

وهنا يبرز المأزق الفكري عند المسلم عامة. فان انحاز إلى المنهج الشيعي يصل إلى الارتياب بالقرآن للعلة التي يذكرها علماء السنة ، وهم على حق في هذه المسألة ، وان انحاز إلى المنهج السني يصل الى الارتياب بالقرآن للعلة التي يذكرها علماء الشيعة أنفسهم ، وهم أيضا على حق هنا لأن مبرراتهم تستقى كلها من صحاح السنة (لبخاري ومسلم) .

هل الله عاجز عن إيصال شريعة نبيه إلى أجيال المسلمين، وإذاً ، كيف يكون دينا صالحا كل زمان ومكان ؟!

وكيف نثق بأبي بكر وعمر وعثمان بعد ما ثبت من صحاح السنة نفسها خروجهم عن طاعة نبي الأمة. وإذا لم نثق كما يرى علماء الشيعة فكيف نثق بالقرآن وقد جمع ودوّن بترتيب منهم، مع أن محمدا لم يأمر بجمعه ولا بتدوينه ؟!

نعم إن الطعن بالصحابة الأولين لا يعني الطعن بالحديث فقط ، فان القرآن - مثله مثل الحديث - وصل عن طريقهم أيضا ، ولا سيما عن طريق عثمان بن عفان الذي رفض أهل السنه أن يدفنوه في مدافنهم فواروه في مدافن اليهود. إن الصحابة الذين يقول عنهم فقهاء الشيعة أنهم تسببوا في ضلالة أغلب المسلمين، إنما وصل القرآن عن طريقهم ، فإذا رفضنا ما روى عنهم بالإسناد المتصل (في البخاري ومسلم) من تعاليم السنة فان ذلك سيكون لعلة أنهم غير ثقاة. وفي هذه الحال ، كيف نقبل بالقرآن وقد وصلنا عن طريقهم ؟...

هذا هو مأزق المسلم المعاصر الحائر بين السنّه والشيعة.

ما هو ذنب المسلم الذي يقرأ في صحيح البخاري وفي صحيح مسلم قول نبي الأمة لأصحابه: "سيؤخذ بكم يوم القيام إلى ذات الشمال ، فأقول إلى أين؟ فيقال : إلى النار والله ، فأقول يا رب هؤلاء أصحابي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، انهم لا يزالون مرتدين منذ فارقتهم، فأقول: سحقا سحقا لمن بدّل بعدي ، ولا أرى يخلص منهم الا همل النعم"(١٤).

وها هو ذنب المسلم الذي يقرأ الخطاب القرآني: " ما أتاكم به الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا عنه " (١٥) .

وهو يدرك أن سنة رسول الإسلام ما كان يمكن أن تصله لولا البخاري ؟.. تقول ذلك لأحد المشايخ ، من السنة كان أم من الشيعة فيقول لك :الفتنة نائمة ، ولعن الله من يوقظها.

والفتنة ما نامت في يوم من الأيام ، ولكن المسلمين هم النائمون، ومن استيقظ منهم وفتح عينيه يتهم بأنه أيقظ الفتنة.

وإنما المسلم المعاصر يشبه موقفه اليوم موقف أحد الصالحين إذ زار قبر الصحابي حجر بن عدي الكندي فوجد عنده رجلا يبكي ويكثر البكاء فظنه من الشيعة وسأله لماذا تبكي ؟

أجاب: أبكي على سيدنا حجر رضي الله تعالى عنه.

قال: ماذا أصابه؟

أجاب: قتله سيدنا معاوية رضي الله تعالى عنه.

قال: ولماذا قتله ؟

أجاب :لأنه امتنع عن لعن سيدنا علي رضي الله تعالى عنه.

فقال له :وأنا أبكي عليك، رضي الله تعالى عنك.

أولا يستحق المسلم المعاصر أن نبكي عليه وهو يضع القاتل والمقتول معا تحت رضوان الله ؟!

إن كل ما أدعو إليه مفكرينا هو أن يعودوا إلى ذلك اليوم الذي سبق وفاة رسول الإسلام عليه السلام ، وبالتحديد إلى مساء يوم الأحد ، آخر يوم من شهر صفر في السنة الحادية عشرة للهجرة ، الموافق السادس من حزيران (يونيو) عام ٦٣٢ ميلادية ، أدعوهم إلى القيام بهذه الرحلة في التاريخ ليسمعوا بأنفسهم ما قاله في اليوم التالي محمد عليه السلام ، وهو يطلب قرطاسا وقلما ليكتب كتابا لا تضل بعده أمته. وليعملوا عقولهم في مقولتي ابن العباس وعمر بن الخطاب ... أدعوهم إلى التفكير بكل حياد ونزاهة، وأن يعلنوا دون خوف أو ملق أو نفاق نتائج تمحيصهم في الجوهر والأساس قبل أن يبنى عليهما ذلك البناء العقائدي.

غدا إذا هو يوم الاثنين، أول الربيعين ، في السنة الحادية عشر للهجرة ، وما زالت هناك ساعات ستنقضي من ليل الأحد وصبيحة الاثنين قبل أن يقبض نبي الإسلام عليه السلام ، وهي مسافة زمنية تكفي لرحلة في الفكر النزيه المجرد ، وهذا ما قصدت إليه عندما اخترت لسلسلة من كتبي عنوانا يقول: "يوم قبل وفاة محمد".

ولكن ، هل الوثيقة التاريخية التي أسلفت ذكرها، هي وحدها التي استدعتني للمراجعة ؟ بالطبع لا ...فهناك الأزمة التي يعانيها المجتمع الإسلامي اليوم ، وهي تكمن في أن المشكلات الفكرية ترتبط بواقع حياة المسلم اليومية ، وهي تطرح بالتالي مشكلة القيم. أو بمعنى آخر : إنها أزمة الفكر الإسلامي في تعامله مع الواقع. وهي أيضا أزمة فكر ومفكرين بآن معا. وأهم ما يؤخذ على الفكر الإسلامي هو ذلك "التناقض" في تعاليمه ، و "التعارض" في مقولاته. فيما يؤخذ على المفكرين أنهم ـ في غالبيتهم ـ نافقوا وما زالوا ينافقون الحاكم ورجال الدين، ولذلك كان طبيعيا أن تتبع أزمة القيم في المجتمع الإسلامي من "أزمة الفكر الإسلامي نفسه".

وثمة من يعيد الأزمة في القيم الإسلامية إلى اختلال في البناء الاجتماعي والإقتصادي. ومن الأمثلة التي تطرح في هذا الصدد وضع المرأة المسلمة التي تعتمد اقتصاديا على الرجل ، ووضع المجتمع ككل ، وهو الذي يتحول باستمرار من الإنتاج إلى الاستهلاك. ولكن القيم الهابطة في الواقع هي انعكاس لفشل الفكر وخوائه ، ذلك أن الظروف الإجتماعية نفسها محكومة بهذا الفكر. والفكر الإسلامي نفسه ، يتيح في كثير من الحالات للقيم الهابطة أن تتحول إلى قيم يتم الإيمان بها وقوننتها يوما بعد يوم ، كما مسألة حجاب المرأة.

والمشكلة أنه لا سبيل إلى تحقيق المناعة ضد فساد القيم ، والحد من تيارات القيم السلبية في ظل فكر يؤمن بضرورة التسليم المطلق، ولا يتيح حرية الكلمة والنقد ، ولا يظهر أهمية احترام الرأي الآخر. وهكذا ، فان فرض هذه القيم من الأعلى ، كثيرا ما أشاع الرياء والنفاق والفوضى ، وجعل عامة المسلمين ينظرون إلى الفكر على أنه بضاعة غير مطلوبة ، أو بضاعة غالية الثمن ، يدفع صاحبها ثمنا باهظا. وهذا بالتالي أدى إلى تخلف الفكر عن الممارسة ، وعوّد المسلمين أن ينتظروا دائما قرار السلطة بصرف النظر عن أي اعتبار.

إن العامل المسلم المتقن لعمله ، سرعان ما يفقد الثقة في قيمة العمل ، ما دام يتقدم عليه المنافق والوصولي. والمسلم يؤمن بالعلم ، ولكن ، إلى أي حدّ تطبق النظرة العلمية في حياته الإسلامية ؟!

...ما قيمة أن تخرج المرأة للعمل والإنتاج ، ثم تكبل من كل الجهات بما يشدها إلى الوراء دوما ، ويسلط عليها سيف التهديد باسم القيم الإسلامية ؟! وهناك من يتصدى لهذه الرؤية فيقول: إن أزمة القيم تكمن أولا في عدم ممارسة المبادئ الأخلاقية التي توجه سلوك وتصرفات المسلم .وأنا أقول: إن هذه المبادئ الأخلاقية في حاجة إلى إعادة نظر. فلو أن الفكر الإسلامي بمنأى عن أسباب التخلف والجمود لأمدّ القيم الأخلاقية للمسلمين بكثير من الصلابة والرسوخ.

ثم إن الإسلام ، في الواقع ، أصبح الإيديولوجية الرسمية للقوى المتخلفة في دول العالم الإسلامي ، في حين أصبح عكازا تتكئ عليها بعض الأنظمة "التقدمية"، في سبيل تهدئة الجماهير أحيانا، وفي سبيل تغطية عجزها وفشلها أحيانا أخرى.

وإذا كان كثير من مفكري العالم الإسلامي قد تصدى، في إثر كثير من الهزات والنكسات إلى نقد بعض جوانب البنيان الفكري والإجتماعي لحياة المجتمعات الإسلامية ، فان هذا النقد بقي هزيلا بعيدا عن معالجة الذهنية الإسلامية، واكتفى على الغالب بترديد تعميمات واسعة وتنديدات ب "الذهنية الغيبية"....... إلى آخر "الكليشيهات" المعروفة.

ويصعب أن نجد بين المسلمين إنسانا ، يتمتع بقسط ولو متواضع من الذكاء والثقافة ، ولم يعان من القلق الذي تثيره شكوكه في بعض نصوص القرآن وأحكامه ، وفي الأحاديث المنسوبة إلى نبي المسلمين محمد عليه السلام ، لكن المشكلة أن فئة من هؤلاء لا يستطيعون تحديد المشكلة التي كانت سبب اضطرابهم الفكري. في حين أن فئة ثانية تبحث بصورة لا شعورية ، عن حل لهذه المشكلة عن طريق التقوقع في موقع ديني إسلامي متطرف ومتعصب ومبالغ في التمسك بدقائق الفرائض الدينية ، وكأنما تعمل هذه الفئة بقول الشاعر: "وداوني بالتي كانت هي الداء".

وثمة فئة ثالثة اتجهت اتجاها معاكسا ، فانفتحت على الأفكار الإلحادية .ولكن حتى أفراد هذه الفئة لم يجرؤوا على الإفصاح عن آرائهم.

وفئة رابعة يشعر أفرادها بالمشكلة ، ولكنهم يخشون إرهاب السلطة الدينية ، فيهربون إلى موقع اللامبالاة والتناسي.

والمفارقة الطريفة ، أن الطالب في دول العالم الإسلامي ، يردد لأستاذ الديانة المعلومات التي تلقاها منه ، ولأستاذ التاريخ الآراء التي استوعبها منه ، وكذلك لأستاذ الفلسفة ولأستاذ العلوم. أما التفكير الجدي بالمتناقضات بين هذه المعلومات والآراء فلم تكن مسألة واردة بالنسبة للأساتذة. وتكون

النتيجة :انفصاما في شخصية الطالب، وشللا فكريا يمنعه عن أن يكون منتجا وفعالا. وذلك يفسر ، إلى حد ما ، حالة التخلف التي وصل إليها العالم الإسلامي خلال القرون الماضية.
يقينا ، إن اختيار الجلوس في" المقعد الثالث "عند مراجعة ونقد الفكر الإسلامي ، - أعني المقعد الوسط غير المنحاز" إلى "أو" ضد - "يتيح تبين أوجه القصور والتخلف ، بل هو كفيل بالكشف عما لا يتوقع الدارس كشفه. وهذه هي دعوتي الثانية ، فيما كانت الأولى دعوة للتواجد العقلي في اليوم الذي سبق وفاة نبي الإسلام محمد عليه السلام. وما من شك لدي ، أن ما عانيته قد عاناه غيري، ممن تأثرت ثقافته تأثرا جذريا بالثقافة العلمية، ولا ريب عندي أن كثيرين غيري قد واجهوا مثلي ذلك السؤال الأساسي :هل باستطاعتي أن أتقبل بنزاهة وإخلاص ما يأمرني به الإسلام دون أن أخون أمانة الفكر ، ودون أن أخون الكلمة ؟!
المأساة ، كما أراها ، تكمن في أن الإسلام يحوي آراء ومعتقدات تشكل جزءا أساسيا منه ، وتتناول نشوء الكون وتركيبه وطبيعته ، وتاريخ الإنسان وأصله، والرسل والأنبياء، ومسيرة حياة كل منهم . وهذه الآراء والمعتقدات تناقض ما تعلمناه. بل إن التناقض يجري إلى أعمق من ذلك بكثير ، عندما يمس مشكلة المنهج الذي يجب اعتماده في الوصول إلى قناعاتنا ومعارفنا. فالمنهج القويم للوصول إلى هذه المعارف والقناعات هو الرجوع إلى آيات القرآن ، أو الرجوع إلى كتابات المفسرين والشراح وكتاب السيرة ورواة الأحاديث المنسوبة إلى نبي الإسلام محمد عليه السلام. ولا لزوم ، بحسب هذا المنهج ، للملاحظة ، والاستدلال والتجريب.
ثم إن من الأمور التي يشدد عليها الإسلام أن الحقائق الأساسية التي تمس حياة الإنسان في صميمها قد كشفت في تاريخ معين وحاسم هو "نزول القرآن" وهكذا نجد أنظار المسلمين موجهة دائما إلى الوراء ، إلى تاريخ هذا النزول ، وينتج عن ذلك أن وظيفة المسلم والحكيم والعالم والمؤرخ ليست اكتشاف حقائق جوهرية جديدة ، أو اكتساب معارف لم تكن معروفة من قبل ، وإنما هي في التوفيق بين النصوص "المنزلة" وبين واقع مكتشف عن طريق الغير ، وذلك يقتضي الاستغراق في ربط النصوص بعضها ببعض، وتأويلها ،ثم تأويل التأويل....وهكذا !
أنا شخصيا ، اخترت الجلوس في المقعد الوسط ، وهو اختيار مؤقت ، ريثما أتمكن من الحكم بنزاهة على معتقدات ترسخت في فكري طيلة العقود التي انقضت على ولادتي الأولى. وأعني ب "المؤقت" أنه لا يمكن إلغاء المقعدين الباقيين ، إذ لا بد أن أكون "مع" و "ضد" بآن واحد ، لأنه لا بد من الانحياز إلى جانب الحقيقة والدفاع عنها. وأدرك مسبقا أن ثمة من سيتهمني بموالاة جهة ما. إنما اتهاماتهم لي سيكون تهربا من الفكر والتفكير ؛ فلقد تعودنا في شرقنا القديم - وللأسف - أن نهرب من التفكير والجدل المستمر بإلقاء الإتهامات جزافا ، وذلك لتدمير سمعة من يخالفنا ، فالخلاف حول مسألة ما تعني لدينا عدم الاحترام ، مع أن هذا الخلاف شرط لتبيان الحقائق الغامضة. وهكذا ، إذا ما أراد كاتب أن يسفه آراء كاتب آخر اكتفى بتصنيفه سياسيا أو طائفيا أو مذهبيا لإلقاء الشبهة عليه ، دون أن يكلف نفسه عناء مناقشة آرائه. وقديما كان يطلق على من يتصدى لنقد الفكر الإسلامي لقب "الزنديق". وهناك ، في تاريخنا القديم ، أسماء عديدة لأشخاص جلدوا. أو قطعت رقابهم، أو أحرقوا لأنهم كانوا معتزلة أو متصوفة، وفي عصرنا الحالي يمكن تصور اتهامات كثيرة

مثل: "عميل للاستعمار والإمبريالية" ، "عميل للصهيونية العالمية" ، واحد من أعضاء (شهود يهوه) ، "ماركسي" ، أو "ضحية جماعية تبشيرية مسيحية" .....وهكذا !

وبكل صفاء وصدق ، أقول مسبقا أنني لم ولن أكون مواليا لغير الحقيقة .وكل ما أتحفظ عليه الآن إنما هو نتيجة حرصي أن أقرأ أو أسمع ردودا تناقش أفكاري ، ولا مانع بعد ذلك أن يتطرف البعض فيلجأ إلى اتهامي وتصنيفي ، وربما إلى قتلي.

وربما سيتساءل من يعرفني شخصيا عن الدافع الذي حدا بي إلى نقد الفكر الإسلامي وأنا ابن رجل مسلم عرف عنه تقواه ، وحفظ القرآن وعلمه، على القراءات السبع، والعشر، وتفقه في "علم الحديث" ؟ .... ثم.....

والجواب ببساطة ، أنني وجدت في منهج التفكير الإسلامي السائد علة التخلف الأولى. ولا مجال لتطور أو تقدم ما دمنا مشدودين إلى الوراء ، إلى عبادة السلف ، وما دمنا نقدس بالجهل تراثنا.

يقينا ، إن إخضاع الفكر الإسلامي لمنهج علمي دقيق ، عملية شاقة تستنفد الكثير من الوقت والجهد ؛ ولكن ذلك ضروري طالما يتجه الرأي بنا إلى أن هذا الفكر أفضى إلى تخلف نحو مليار من البشر وعلى مدار أربعة عشر قرنا.

والقاعدة التي تلخص المنهج العلمي للبحث عند المسلمين تقول: إن كنت ناقلا فالصحة ، أو مدعيا فالدليل. وتفصيل الأمر ، كما يراه واحد من أبرز المفكرين الإسلاميين المعاصرين ، وهو الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ، أن موضوع البحث لا يخلو دائما من أن يكون:

- "خبرا والبحث فيه ينبغي أن يكون محصورا في تحقيق النسبة بينه وبين مصدره بشرط أن يكون ذا دلالة قطعية"
- وإما ما يكون منه الإدعاء ، فإن البحث فيه يجب أن يتجه إلى الأدلة العلمية والتي من شأنها أن تكشف مدى صدق هذا الادعاء. ولكل نوع من الدعاوى نوع يناسبها من الأدلة العلمية ، أي لا بد من انسجام في الطبيعة والنوع ، بين الإدعاء والدليل العلمي".

مشكلة الدكتور البوطي ، أنه توفيقي خطابي لا يفطن إلى شذوذ الجوهر عندما يستغرق في إثبات صحة الدعاوى عن طريق ثلاثة فنون هي:

١. فن مصطلح الحديث

٢. فن الجرح والتعديل

٣. تراجم الرجال

ولا أدري ماذا يقول أصحاب هذا المنهج في الخبر المتواتر، وكيف يعتبرونه أرقى أنواع الثبات دون تدقيق في مضمون الخبر. أو لم يتفق الرواة على أن عمر سلمان الفارسي يتجاوز المائتي عام ؟! بل ذهب بعضهم إلى أنه قد يكون أدرك السيد المسيح ؟ !أو ليس مثل هذا المتن شاذا ؟! ثم إن الكثير ممن يعتبرهم الدكتور البوطي والشيخ متولي شعراوي ، وقبلهم الدكتور الشيخ صبحي الصالح ثقاة يعوّل على إجماعهم وعلى تواتر الخبر عن طريقهم كانوا قد راءوا ونافقوا للخليفة أو الأمير أو الوالي أو الملك ، كما ينافق أمثالهم في عصرنا الحالي، وذلك إما تقية أو طمعا في مال. وشواهد ذلك كثيرة في من عاصرنا ، وفيمن سبقهم ، فكيف نقبل بتواتر الخبر عنهم وتاريخنا على امتداده مليء بشواهد الظلم والاستبداد؟ ...وهل ضروري أن نذكّر بطبائع الاستبداد في عصر الخلافة الأموية،

وما أريق من دماء على يدي الحجاج بن يوسف الثقفي ، وما تلاه من فواحش الظلم في العهد العباسي ؟ وهل ضمن عهد من العهود (التي توالت على المسلمي بعد هذين العصرين) حرية الكلمة ؟
كيف إذن ، نعتدّ بقواميس لتراجم الرجال ونحن أعلم بما فيها من أخطاء فادحة ؟ وهل ننسى أن اتهام بعض متصوفة الإسلام وفلاسفتهم بالزندقة قد جعل الكثير من المفكرين والكتاب يداري ويماري ويتظاهر فيعلن غير ما يبطن؟ ... بالأحرى كيف يستقيم التواتر ميزانا دقيقا مع وجود "التقية" التي أبيحت في غالبية المذاهب الإسلامية ؟! في ما يتعلق ب "القرآن" فإن مشكلة المفكرين المسلمين أنهم يجزمون بصحته لمجرد أنه وصل إليهم من نبي الإسلام محمد بيقين، فقبلوا بمتنه دون عرضه على العقل والفكر المجرد ، ولم يشككوا بطريقة جمعه واعتبروه محصنا لقوله: إنا أنزلنا الذكر وأنا له لحافظون .... "وهكذا أصبح القرآن لديهم في رأس المدركات اليقينية.
وإذا سألت عن سر الإجماع على "القرآن" أجابك الكثيرون ، ومنهم الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ، بأنه تم نتيجة الإجماع على "الوحي"........وإذا سألت عن سر الإجماع على الوحي" قيل لك أنه تم نتيجة الإجماع على "القرآن". وهذا يذكرني بمشكلة واجهتها في إحدى القواميس مرة. فقد بحثت في المعجم الوسيط عن معنى كلمة "الضأن" فوجدت أن الضأن هو "ذو الصوف من الغنم". ثم بحثت عن معنى كلمة "الغنم" فوجدت أنه "القطيع من المعز والضأن" وكما يدور بنا المعجم المذكور يدور بنا المفكرون المسلمون. فالإجماع على القرآن سببه الإجماع على الوحي .... والإجماع على الوحي سببه الإجماع على القرآن.
وهم أيضا ينسبون إلى أنفسهم التيقن عن طريق الإستقراء التام ، فيما الاستقراء لديهم تم بناء للدلالة التي تعرف بملازمتها الدائمة لملزوماتها .... وهكذا ، فانهم يتأملون في ظاهرة ما شاهدوها أمامهم ، فان رأوا - عن طريق دلالة الاستقراء - أن تلك الظاهرة تستلزم حقيقة معينة ، وجدوا أنه من الطبيعي في ميزان العقل أن يؤمنوا بها حتى ولو لم يجدوها ماثلة أمام أعينهم.
مشكلة أصحاب هذا المنهج أنهم يعزلون طرائقهم في الاستدلال عن الظروف المحيطة ، عن أزمة القيم مثلا. إن واحداً من أصحاب هذا المنهج مثل د .البوطي ، يجد من الطبيعي لمن "يرى سيارة الإسعاف وهي تنهب الأرض بصفيرها المتواصل أن لا يشك بأن مريضا يعاني من حالة خطيرة ، وان لم يكن يراه بعينه (١٦) ، فما باله - وأزمة القيم قائمة ومستمرة ومتفاقمة - أن سيارة الإسعاف نهبت الأرض بصفيرها ليتخلص سائقها من الزحام فيما هو مسرع للعودة إلى زوجته وأطفاله ؟!
ومع اعتراف غير واحد من أصحاب هذا المنهج بأن التلازم لايورث اليقين دوما ، ومع تقسيمهم دلالة اللزوم إلى أقسام ثلاثة ، ترتقي في القوة من الأدنى إلى الأعلى ، فان أحدا منهم على الغالب لم يستخدم قاعدتي اللزوم غير البيّن ، واللزوم البيّن بالمعنى الأعم.
وأما القياس عندهم فذلك يعني أنه إذا رأى الباحث اشتراك كل من المعلوم والمجهول في علة واحدة قاس الثاني على الأول. ولكن العلاقة هنا تعرّض تراثا كاملا من الأحكام القياسية لخطر الإنهيار ، ذلك أن المعلوم ، قد يتبين بعد زمن طويل أنه خطأ ، وكل ما قيس عليه إذ ذاك ينهار ولا تقوم له قائمة.
ويزعم أنصار هذا المنهج الفكري الإسلامي (١٧) "أن علماء المسلمين إنما يتبعون المنهج الاستقرائي في كل يمكن إخضاعه للتجربة والمشاهدة " فهل لهذا اختلفت شروح المفسرين لمعاني آيات القرآن"؟ وهو _ "كما يقول المصدر نفسه -أبعد ما يكون عن الاستنتاجات الغبية والتأملات

المجردة" (١٨). فلماذا يتهرب الشارح والمفسر من توضيح المعنى الكلي فنجده يشغل نفسه والقارئ معا في إعراب النص ؟ ... معنى ذلك ...أما أنه يريد شرح المعنى مداورة فلا يتحمل مسألة الشرح المباشر، وإما أن فلسفة النص استعصى فهمها عليه. وهو في كل الأحوال ينهي شرحه بعبارة، "والله أعلم بمراده".

ثم لا أدري كيف يزعمون بقاء هذا المنهج واستمراريته برغم الإنقلاب السياسي الذي أطاح بمبدأ "الشورى" القرآني في اثر وفاة محمد عليه السلام .فقد حلت نظرية "الخلافة" أو "الإمامة" التي تؤكد قوامة "الفرد" على "الكل" ، وتجعل من الإنسان صنما يعبد من دون الله ، وسبب هذا الإنقلاب هو تلك الآفة الثنائية بين الفكر واللغة في الدراسات الإسلامية.

يقول "الشهرستاني بأن " أعظم خلاف بين الأمة هو خلاف الإمامة ، إذ ما سلّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثلما سلّ على الإمامة في كل زمان"(١٩) ، وانني لأقف عند تعبير "قاعدة دينية" في مقولة الشهرستاني الآنفة الذكر ، فذلك يعني أنه لا يمكن المساس بها ، فهي ليست "قاعدة وضعية" أي أنها ليست من صنع العرف أو المجتمع ، وانما هي مفروضة من الدين ، واذا كانت كذلك فإنه من الكفر والإلحاد والزندقة قيام أي جدل بشأنها. ومع ذلك فان القاعدة زالت كأي شيء عارض قابل للزوال ، ومن هنا السؤال: اذا كانت " الخلافة" في الإسلام مسألة عارضة عرضت لتاريخ الاسلام بعد وفاة نبي المسلمين محمد عليه السلام ، فكيف أن المنهج الفكري الإسلامي لم يكفل مناقشة هذا العارض ، مع أن المناقشة تكليف لكل مسلم " له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد" وهي -أي مناقشة عارض الخلافة - تعتبر من التكليف الديني "فرض عين"؟!!

ومعروف أن "الانقلاب السياسي" يستمد شرعيته وسلطانه من التأويل المذهبي لآية تعرف في عالم تفسير القرآن ب "آية الاستخلاف" والتي جاء فيها: "اني جاعل في الأرض خليفة"، فقد أصبحت قضية الخلافة تستمد شرعيتها عند المفكرين من القرآن مباشرة ، واستقر إجماع الفقهاء طيلة أربعة عشر قرنا من الزمن على أن سلطان الحاكم من سلطان الله وهذا الإستخلاف مستمد من الخلافة العامة التي للإنسان على الأرض.

ودعونا لا نفرق بين "الإسلام القرآني" و "إسلام الناس" حرصا على المنهج الفكري الإسلامي نفسه ، وسنجد إذ ذاك أن الإسلام القرآني قد سوغ للناس شهوات السلطه ، بكل ما تفرضه السلطة من تأويل لآيات القرآن. أما إذا فرّق الباحث بين "الإسلام القرآني" و "إسلام الناس" فإن أقطاب الإنقلاب العتيد سيقولون له: إنك تعمل على إسقاط الدين باسم النظام السياسي الذي يدعو إلى الفوضى والغوغائية !! وعلى الباحث أن يتخير الإتهام الذي يناسبه إذا ما خرج على المنهج الفكري الاسلامي: فهو امّا بقية من الخوارج المارقين عن الدين ، أو من ضحايا العقل عند المعتزلة ، أو هو أحد تلاميذ "المستشرقين الحاقدين على الإسلام"، أو هو أساسا زنديق يغري الناس بركن أساسي من أركان الدين وهو الخلافة. أو يقال عنه: "أفاك خراص ، اشتهى أن يعرف فلم ير وسيلة أهون عليه وأوفى بغرضه من الإلحاد في الدين بتحريف كلام الله عن مواضعه ليستفز الكثير من الناس إلى الحديث في شأنه".

ولقد جعل بطش الخلفاء في الدولة الأموية والعباسية، والفاطمية ، وكذلك السلاطين في الدولة العثمانية ، والملوك والأمراء والرؤساء في الدولة المعاصرة، جعل بطش هؤلاء أكثر المفكرين

الإسلاميين يصطنعون مسألة " التقية" التي أشرت اليها في ما سلف ، وهم يكتبون ما يكتبون في ظل نظم تحكم بالحق الإلهي أو تتكىء على هذا الحق بطريقة من الطرق. ولذلك فإن فكرة "التقية" هذه قد جعلت الوثائق العلمية التي يراجعها الباحثون غير مأمونة الجانب ، بالاضافة الى أن كل فرقة تلعن أختها ، وكل مذهب يسفه قرينه.

كيف يتحدث إذا أصحاب الفضيلة من مشايخ الإسلام عن منهج محكم أساسه التواتر والاستقراء وفن الجرح والتعديل وتراجم الرجال مع وجود علة التقية؟!

تلك هي خلاصة سريعة لما يؤخذ على المنهج الفكري للبحث عند المسلمين، ولم أفصّل في هذا المدخل ، لأنني تعمدت أن ألقي مزيدا من الضوء علىتلك المآخذ من خلال الأبحاث التي ستلي وهي التي خصصتها لتظهير صورة الفكر الديني، الموسوي والنصراني والوثني إبان ظهور الإسلام.

الهوامـــــش

١. صحيح البخاري - الجزء الثالث - "باب قول المريض قوموا عني"
٢. صحيح مسلم - الجزء الخامس - في آخر كتاب " الوصية"
٣. مسند الامام أحمد - الجزء الأول - ص ٣٥٥ ، والجزء الخامس ص ١١٦
٤. سورة النجم (٣ و ٤)
٥. طبقات ابن سعد - الجزء الثاني - ص ١٩٠ .كذلك" تاريخ ابن الأثير "الجزء الثاني - ص ٣١٧. والسيرة الحلبية - الجزء الثالث - ص ٢٠١. وتاريخ الطبري - الجزء الثالث - ص ٢٢٦.
٦. المصدر السابق نفسه
٧. سورة الحشر
٨ . تاريخ الطبري - الجزء الرابع - ص ٢٠٤. وابن الأثير - الجزء الثالث - ص٢٠٦. ولسان العرب – الجزء الرابع عشر – ص ١٩٣. وتاج العروس – الجزء الثامن – ص ١٤١. والعقد الفريد – الجزء الرابع – ص ٢٩٠.
٩. أوردها الصادق النيهوم في كتابه "إسلام ضد الإسلام" ص ١١٥– مطبوعات كتاب الناقد - الطبعة الثانية
١٠. سورة النمل (٨٣)
١١. سورة الكهف (٤٧)
١٢. "من روائع القرآن" الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي – ص ٢٦ و ٢٧
١٣. المصدر السابق
١٤. صحيح البخاري - الجزء السابع - ص ٢٠٩. وصحيح مسلم - الجزء السابع - ص ٦٦
١٥. سورة الحشر (٧)
١٦. "كبرى اليقينات الكونية" للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي (ص٤١)
١٧. المصدر السابق
١٨. المصدر السابق
١٩. " الملل والنحل" - الشهرستاني - ص ٣١ .



صورة الفكر اليهودي والمسيحي في إبان ظهور الاسلام

لم يظهر الاسلام في أرض فراغ روحي بالتأكيد؛ فالجزيرة العربية ، التي شهدت إعلان نبي العرب محمد عليه أفضل السلام ، كانت نهبا لتأثير اليهود الذين كانوا يحاولون أن يتنفسوا من جديد بعد شتات كارثي متكرر من فلسطين وكذلك لتأثير البدع النصرانية المتعددة التي اختلف أتباعها في ما بينهم باستمرار ، وهي التي دعي نبي الاسلام ـ بحسب القرآن ـ للتحكيم في ما بين اتباعها ، حتى استأثر ذلك بسورة كاملة في القرآن سميت ب "سورة الأحزاب". لكن الاسلام لم يقتصر على دور المتأثر ، فقد أصبح طرفا مؤثرا فيما بعد.

والواقع أن مواطن التأثر الاسلامي بالديانة اليهودية وبالبدع النصرانية قد اتسع نطاق الكشف عنه في القرون التي أعقبت وفاة محمد عليه السلام ، حتى أن ابن خلدون يعرض في مقدمته الشهيرة لمبدأ دخول الإسرائيليات في التفسير وتطوره ويوضح الأسباب التي دعت الى الاكثار من ذكرها فيقول التالي: "وقد جمع المتقدمون في ذلك (يعني التفسير النقلي) وأوفوا، الا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغث والسمين والمقبول والمردود، والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم ، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية ، واذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تتشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات ، وبدء الخليقة ، وأسرار الوجود ، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم، ويستفيدونه منهم ، وهم أهل التوراة من اليهود ، ومن تبع دينهم من النصارى وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم، ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تتعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها ، مثل أخبار بدء الخليقة ، وهؤلاء مثل كعب الأحبار ، ووهب بين منبه ، وعبد الله بن سلام ، وأمثالهم ، فامتلأت التفاسير من المنقولات عنهم، وفي أمثال هذه الأغراض أخبار موقوفة عليهم ...." (١).

واقع الأمر أن كتب التاريخ والتراث لم تصور لنا بدقة وضع اليهودية والبدع النصرانية في إبان ظهور الإسلام. ويقينا لا يمكن فهم اتصال نبي العرب محمد عليه السلام باليهودية والبدع النصرانية دون رسم لوحة للحياة اليهودية والنصرانية في الجزيرة العربية. ومن هنا مبلغ الحاجي أن أبحث في الظروف اليهودية والنصرانية لنشأة الإسلام ، إسهاما مني في تظهير الصورة المطلوبة. ومن بين المبررات لذلك أنه لا يكفي لفهم الاسلام وظروف نشأته أن نبحث في ظروف ولادة نبي الإسلام ، فالقرآن الذي ذكر تفاصيل كثيرة عن ولادة موسى والمسيح وآخرين ، لم يذكر شيئا عن ولادة محمد بن عبد الله. كذلك لا يكفي لفهم الإسلام أن نبحث في ظاهرة الوحي ، وفي مسألة القرآن إن كان معجزة بلاغية بالمعنى المعرفي ، وهل الإعجاز المعرفي يخالف ناموس الطبيعة....الخ.

صعوبة مهمتي تكمن في كتب التراث الإسلامي، وحتى ما يتعلق منها بالسيرة النبوية ، قد حجر على صورة الحياة اليهودية والنصرانية ، ولم يفرج سوى عن القليل من التفاصيل ولولا نتف وردت في ذكر يهود الأوس والخزرج وبني المصطلق ، وفي ذكر مسيحيي نجران والرهبان الذين بايعوا محمدا نبيا وآمنوا بأنه آخر الأنبياء ، لولا ذلك لاعتقد قارىء التراث الإسلامي أن اليهودية والمسيحية كانت مفقودة في تلك الآونة.

على سبيل المثال ، فان أحد الذين بحثوا في الإسلام كبدعة نصرانية كتب ما يلي:

"والعربي إجمالا يحب الكلام والمناقشة، كما عرف عنه ضعفه أمام الماورائيات ، والدخول في أي نقاش حولها ، لذلك كانت تعقد في تلك الأمسيات ندوات دينية يحضرها محمد (عليه السلام) ويسمع ما يقال فيها ، ولربما رأى عند أولئك الرهبان أجوبة له عن أسئلته الكثيرة فارتاح اليهم ودلوه على ذلك (الشيء). ولربما حمّلوه رسائل الى ورقة بن نوفل ، القس النصراني الساكن مكة، وحمّله إليهم فكان ما كان .... وظهر الإسلام"(٢).

وقد يكون ما كتبه هذا الباحث حقيقة ، وقد تكون الحقيقة أكثر مرارة ، لكنني مع ذلك أعترض على أسلوبه في الإستدلال. فالكاتب حتى يضعنا في الصورة الواضحة لما حصل يدعونا "النغوص قليلا في كتب التاريخ لنرى ما كانت عليه المسيحية في تلك الأيام"(٣) ، ومن أجل ذلك ، أي حتى نرى ما كانت عليه المسيحية في تلك الأيام ، يكتفي بدعوتنا لمطالعة قصة أولئك الرهبان (المشرورين) على طرقات مكة ـ الشام ، وما عندهم من تطلعات فنرى ما أخذ عنهم.

إن الكاتب هنا لا يرى سوى الرهبان ، ولا يلتفت إلى وجود أحبار اليهود وإلى توافر مدراس اليهود ولا سيما أن صورة المسيحية في تلك الأيام لا يمكن تظهيرها بعرض قصة أولئك الرهبان المعتزلين في صوامعهم على طريق مكة-الشام .والنصرانية كمجموعة بدع منتشرة في الجزيرة العربية لا يمكن عزلها عن تأثيرات اليهود الذين سكنوا الجزيرة العربية وبلاد الشام فرارا من بطش الدولة الرومانية .كما لا يمكن عزل ذلك عن الصراع البيزنطي-الفارسي آنذاك. فالظروف المؤثرة في نشأة الاسلام لا يمكن الإحاطة بها لمجرد الحديث عن الرهبان (المشرورين).

يقينا إن ذلك يقتضي دراسة معمقة وشاملة ، وبدون ذلك لا يمكن فهم الإسلام وظروف نشأته، سيما وأن القرآن نظرية خاصة جامعة في الأديان الموحدة. فالقرآن يؤكد بصراحة وحدة الكتاب المنزل على جميع الأنبياء ، ووحدة الرسالة النبوية عند جميع المرسلين، ووحدة الدين الموحى به لجميعهم.

نعم فالقرآن يؤكد أن أصل الكتب المنزلة واحد عند الله: "كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه"(٤).

وكذلك ورد في القرآن قوله: "وخفف على داود القرآن" ....وهذا يعني أن الكتاب واحد ، سواء أكان إسمه "توراة" أم "انجيلا" أم "زبورا" أم "قرآنا" أم "ذكرا" ...... إنه أم الكتاب"تارة ، وهو "اللوح المحفوظ" تارة ، وهو "الكتاب المبين" أيضا.

وطالما أن القرآن نزل أولا على داود فان الذي تلاه محمد عليه السلام هو اعادة قراءة للكتاب الموحد، انما باللغة العربية ، وهذا معنى قوله: "إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون"(٥). وهكذا يكون القرآن نسخة عربية عن الكتاب. ولذا يأمر القرآن الناس أن يؤمنوا إيمانا واحدا بالكتب المنزلة

كلها على أنها كتاب واحد فالدين بحسب القرآن واحد في كل الكتب ، ومع جميع الأنبياء لأن الله إله واحد.

ولطالما أن النبيين ، بين موسى والمسيح مسلمون ، لقوله في القرآن: "انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا"(٦). ولطالما أن المسيح نفسه وأنصاره الحواريين مسلمون بحسب القرآن(٧)، فإن ذلك يعني أن سيرة اليهود والمسيحيين يجب أن لا تغفل عن بحث سيرة المسلمين المحمديين، وعلى الأقل في الفترة التي برز فيها نبي العرب. وإذا أغفلنا ذلك فكيف نفسر للقاريء أن في الاسلام قاسما مشتركا يجمع بين الديانات كلها ؟! كيف نبرر له إيمان المسلمين بموسى عليه السلام وتوقيرهم له. وإيمانهم بالمسيح وتكريمهم لمولده وتنزيههم لنسبته وتأكيدهم بأن الطعن في عفاف أمه أو شرف ابنها كفر ما بعده كفر ؟

لقد كانت وظيفته التعليم الجديد (الاسلام) هي تذكير الناس بما نزّل إليهم من قبل لعلهم يتفكرون (٨). لا بل يأمر القرآن محمدا في سورة "يونس" إذا ارتاب من نفسه أن يوطد إيمانه عند أهل الكتاب الأول: "فان كنت في شك مما أنزلنا اليك فسئل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك" وفي هذا النص إشارة إلى أن سورات من الشك كانت تنتاب محمدا عليه السلام فيطلب منه القرآن أن يتغلب عليها بإرشادات أهل الكتاب.

فكيف كان وضع أهل الكتاب ، وكيف آل بهم الحال الى ما أصبحوا عليه في إبان ظهور الإسلام؟ ....

يقينا هذا ما اقتضانا أن نبحث في طبيعة الظروف اليهودية والنصرانية المرافقة لظهور ونشأة الإسلام. وسنبدأ بأهل الكتاب من اليهود.



وضع اليـهود عامة في إبان ظهور الإسلام

لم تكن فتنة باركوزيبا (١٣٢-١٣٥م) آخر الجهود التـي بـذلها اليهـود ليستعيدوا حـريتهم التـي قضـى عليها تيطس الروماني. فقد أعادوا الكرة لاستخلاصها في عهد أنطونينوس بيوس (١٣٥-١٦١م) ، وأخفقوا في محاولتهم وحرّم عليهم أن يدخلوا المدينـة المقدسـة إلا في يوم تلك الذكرى المؤلمـة ، ذكرى تدمير معين ، فقد كان يسمح لهم نظير مبلـغ معين أن يـأتوا اليها لينـدبوا ويبكوا أمـام جـدران الهيكل المهدم. ويـذكر "ول ديورانـت" فـي كتابـه "قصـة الحضـارة" (عصـر الأيمـان) أن فتنـة "باركوزيبا" قد محت ٩٨٥ بلدة من الوجود في فلسطين ، كما نقص عدد السكان الفلسطينيين إلـى نصف ما كانوا عليه سابقا إذ قتل منهم نحو ٥٨٠ ألف رجل وامرأة. وأما الباقون من السكان اليهود فقد انحطوا إالى درجة من الفاقة اضمحلت معها الحياة الثقافية. ولكن لم يكد يمضـي علـى ذلك جيل واحد حتى أنشىء في طبريا "بيت الدين"، أي المجلس اليهودي القومي ، وهو هيئة مؤلفة من واحد وسبعين من الأحبار والمشترعين ، وافتتحت المعابد والمدارس.

غير أن انتشار المسيحية أدى إلى متاعب جديدة لليهود. فبعد أن اعتنـق قسطنطين المسيحية فرض عليهم قيودا صارمة ونفى أحبارهم عام ٣٣٧م وفرض شقيقه جانوس عليهم من الضـرائب الفادحـة فاضطر الكثير منهم أن يبيعوا أبناءهم. وكان اليهود قد انتفضوا عام ٣٣٢ فأخمدت حركتهم ، ودكت صبورة دكا ، ودمرت أجزاء من طبريـا ، حيث مجلسهم القومي ، كما خرّبت مدن أخـرى ، وقتل آلاف من اليهود واستعبد آلاف آخرون. وبلغ الإتصـال بينهم وبين غيرهم من الجماعات اليهوديـة درجة من الصعوبة اضطر معها حاخامهم هليّل الثاني أن يتخلى عما كان ليهود فلسطين من حق أن يحددوا لجميع اليهود تواريخ أعيادهم، وأصدر لهم تقويما يحددون هم بمقتضـاه تواريخ هذه الأعياد مستقلين عن يهود فلسطين ، ولا يزال هذا التقويم الذي أصدره هليّل معمولا به إلى اليوم لدى اليهود في كافة أرجاء العالم.

فلما ارتقى يوليـان الجاحد عرش الإمبراطوريـة أنقذ اليهود الـى أجل قصـير فـألغى قوانين التمييز المفروضـة ضدهم وخفض الضـرائب المفروضـة عليهم ، وأمـر بإعـادة بنـاء الهيكل من مـال الدولـة. وأعيد فتح القدس لليهود فهرعوا إاليها من جميـع أنحـاء فلسطين ومن كل ولايـة فـي الإمبراطوريـة واستعدوا لتأثيث الهيكل الجديد (عـام ٣٦١م). ولكـن فيمـا كـانوا يحفرون الأرض لوضـع الأسـاس خرج من باطنها لهيب أحرق عددا من العمال القائمين بالعمل ، غير أن اليهود عـادوا إلـى العمل من جديد، فعادت الظاهرة مرة أخرى ، ولعل سببها العلمي كان انفجار بعض الغازات الطبيعية، فتوقف العمل، وكان واضحا للمسيحيين أن الـرب غيـر راض عن إعـادة بنـاء الهيكل ، وكـان الإمبراطـور يوليان الجاحد قد مات فجأة فحبست عنهم أموال الدولة، وسنّت من جديد القوانين المقيدة لهم فكانت

أشد صرامة من سابقتها. وحرم على اليهود من جديد دخول أورشليم القدس ، فعادوا إلى قراهم وفقرهم. وكتب جيروم المؤرخ بعد ذلك بقليل فذكر أن أهل فلسطين من اليهود لا يزيدون على عشر ما كانوا عليه من قبل.

وفي عام ٤٢٥م ألغى تيودوسيوس الثاني الحاخامية الفلسطينية ، وحلت الكنائس المسيحية اليونانية محل المعابد والمدارس اليهودية. ثم تخلت فلسطين عام ٦١٤م عن زعامة العالم اليهودي.

ولم تكن الضغوط التي واجهها اليهود في أوروبة بأخف وطأة من الحياة الكارثية التي عاشوها في فلسطين. ومن ذلك أن قانون تيودوسيوس (٤٣٩م).

ومجلس كليرمنت (٥٣٥م) ، وكذلك مجلس طليطلة (٥٨٩) قد حرّمت كلها تعيين اليهود في المناصب التي من حق شاغلها أن يوقع عقوبة ما على غيره. وأمر مجلس أورليان عام (٥٣٨م) جميع اليهود أن لا يخرجوا من بيوتهم طوال الأسبوع المقدس. يمكن القول أن الأباطرة البيزنطيين واصلوا خطة تنكيل جستنيان باليهود لنحو مائتي عام.

وربما كان ذلك بسبب مناصرة اليهود للفرس في خلال الحروب البيزنطية-الفارسية المتكررة. ومن الثابت أن هرقل طردهم من أورشليم القدس عقابا لهم على ما قدموه من معونة للفرس ، بل إنه بذل كل ما في وسعه لإبادتهم. لذلك كله، أمل اليهود أن تكون حالتهم أفضل في بلاد لا تسود فيها المسيحية سيادتها في البلاد التي يخضعون لسلطانها ، فمنهم من انتقل نحو الشرق إلى أرض النهرين ، وإلى بلاد الفرس ، وقاموا بتقوية العنصر اليهودي البابلي الذي لم ينعدم من تلك البلاد منذ الأسر الذي حدث عام ٥٩٧ق.م وظل اليهود ، في أثناء ذلك الوقت ، ينتشرون في جميع البلاد المحيطة بالبحر المتوسط، فمنهم من استقر في بلاد الشام ، ومنهم من ذهب إلى القسطنطينية رغم عداء أباطرة الروم. ومن الثابت أن قسما كبيرا منهم اتجه من فلسطين جنوبا إلى الجزيرة العربية. وكان دأبهم منذ ذلك الوقت الحيلولة دون انتشار التعاليم المسيحية في بلاد الشام والعراق وجزيرة العرب .فلجأوا لتحقيق ذلك إلى تحديم الخلافات العقائدية بين الرهبان. ونجحوا في تحويل البنى المسيحية إلى موزاييك من البدع النصرانية ثم تطلعوا الى ظهور دين جديد يوحد البدع النصرانية على قاعدة قومية معادية للروم وبطاركتهم وأباطرتهم.

ولقد احتلّوا في الجزيرة العربية أقاليم برمتها مثل خيبر .وكان عددهم في يثرب (المدينة) يتجاوز عدد البقية. واستمالوا إلى دينهم عددا من الأهلين. إنما كانت مهمتهم الأخطر تتجلى في تهيئة عقول العرب لما جاء به الإسلام من عقائد ، وكانوا إلى ذلك عاملا أساسيا في انجاح هجرة نبي الإسلام محمد عليه السلام من مكة إلى يثرب (المدينة).

وإذ نكتفي برسم هذه اللوحة لليهود في الحقبة التي سبقت ظهور الإسلام فلأن غايتنا هي ربط الجواد بالعربة والانطلاق بها للكشف عن مواطن التأثر والتأثير بين الدينين القديم والجديد.



تشابه الظروف والنتائج

إن "أهل الكتاب" كما ورد في القرآن يقصد بهم اليهود وأصحاب البدع النصرانية كما رأينا سابقا. إلا أن اليهود كما نعلم لم يكونوا أهل توراة وحسب، بل كانت لديهم شريعة غير مكتوبة. والواقع أن الكتبة ورجال الدين اليهود الذين أقاموا في المعابد والمدارس البابلية والفلسطينية هم الذين ألفوا أسفار الشريعة الضخمة المعروفة ب "التلمود الفلسطيني" و "التلمود البابلي" وكان أهم ما ثار حوله الجدل بين الفريسيين والصدوقين هو إن كانت هذه الشريعة الشفوية ملهمة من عند الله. وهل هي لذلك واجبة الطاعة أم لا ؟ ....ولما اندثر الصدوقيون عام ٧٠م وورث الأحبار تقاليد الفريسيين ورواياتهم، قبل جمع اليهود الشريعة الشفوية وآمنوا بأنها أوامر من عند الله وأضافوها إلى أسفار موسى الخمسة. لقد استغرق تجميع الشريعة الشفوية مدة ألف عام ، واتخذت هذه الشريعة اسم "المشنا". أما شروح هذه المشنا فقد استغرق تجميعها ثمانية قرون. وهذه الشروح تجمعت فيها ثمار الجدل ، والأحكام والتفسير ، وتنقسم إلى جمارتين فإذا انضمت "المشنا" إلى أقصر هاتين الجمارتين وجدنا التلمود الفلسطيني ، أما إذا انضمت إلى أطولها فإننا سنتعرف إلى التلمود البابلي. وكان الأحبار في القرون الستة الأول بعد ميلاد المسيح يسمون التنآم ب "معلمي الشريعة" ولأنهم هم وحدهم المتضلعون فيها فقد كانوا هم وحدهم المعلمين والقضاة بين يهود فلسطين بعد تدمير الهيكل.

والواقع أن القرآن لم يستشهد بأي من التلمود البابلي أو الفلسطيني بل جاء فيه ذكر التوراة. وعندما كان أحبار اليهود يروون شاهدا من الشريعة الشفوية التي هي التلمود كان المسلمون يظنون أنها من التوراة. فإذا قارنوها مع التوراة ولم يجدوا لها أصلا جزموا بأن التوراة قد طرأ عليها التبديل والتحريف.

وتشابه الظروف خلق تشابها في النتائج. فكما أن عند اليهود شريعة شفوية تم تدوينها ، كذلك فإن عند المسلمين شريعة غير منزلة كتابة هي سنة محمد عليه السلام وقد حض على اتّباعها. وحرص "الخلفاء الراشدون" على عدم تدوينها فمنعوا الرواة من تدوين الأحاديث المأثورة عن نبي الإسلام. وما لبث علماء المسلمين في عهد عمر بن عبد العزيز أن لجأوا إلى التدوين ...فكان هناك التفسير والحديث.

عند اليهود كثرت قرارات الأحبار وتضاعفت اجتهاداتهم فأصبحت مهمة استظهارها شاقة غير معقولة ، ولذلك حاول الأحبار: هليّل وعقيبا ومائير مرارا عدة أن يصنفوها ويستعينوا على استظهارها ببعض الأساليب والرموز. ولكن هذه التصانيف لم تلق إقبال جمهرة اليهود وكان نتيجة هذا أن أصبح الإضراب في نقل الشريعة هو القاعدة العامة.

وحدث الأمر نفسه لدى المسلمين ، فقد وضع الوضاعون على لسان نبي الإسلام نحو ستمائة ألف حديث إختار منها البخاري أقل من ستة آلاف. ومع ذلك لم يسلم صحيحه من طعن الطاعنين ، وأما حفاظ القرآن فقد نقص عددهم إلى درجة خطيرة مما استدعى تدوينه في الوقت الذي لم يأمر محمد عليه السلام أصحابه بفعل ذلك وكان نتيجة ذلك كله أن أصبح الإضراب في نقل الشريعة هو القاعدة العامة لدى المسلمين كما كان لدى اليهود.

وواقع الأمر أن الشريعة الموسوية غير المكتوبة تشبه السنة عند الإسلام فالأولى مكملة للتوراة والثانية مكملة للقرآن ، ومن اللافت أن تدوين "المشنا"

والحديث النبوي بدأ في القرن الثامن الميلادي نفسه. وهناك من العلماء من يؤكد بأن الحبر "يهودا" (٩) فيما أعاد عام ١٨٩ ميلادية عمل عقيبا ومائير ، وأعاد ترتيب الشريعة الشفوي ودوّنها وزاد عليها إضافات من عنده ، إلا أنها ظلت تسمى "مشنا الحبر يهودا" فيما يرى مؤرخون آخرون أن يهودا لم يدون مشناه ، بل أخذت تنتقل من جيل إلى جيل حتى القرن الثامن الميلادي.

ويشتمل التلمود البابلي على ٢٠٤٩ ورقة من القطع الكبير أي نحو ٦٠٠٠ صفحة في كل منها ٤٠٠ كلمة. وتنقسم المشنا إلى ستة أبواب (سدريمات). وينقسم كل سدريم إلى عدد من (المسكتات) الفصول ، ويبلغ مجموعها ثلاثا وستين مسكتة (فصلا) ، وتنقسم كل واحدة منها إلى عدد من المقالات (البرقيمات) ، وكل مقال (برقيم) إلى تعاليم (مسنيوتات).

ولكن إذا كانت الشريعة الشفوية لم تدون قبل القرن الثامن للميلاد ، فقد يتسائل المرء: إذا ، كيف تسنى للتأثر والتفاعل أن يتم بين الشريعة غير المكتوبة والتعاليم الإسلامية غير المكتوبة أيضا، فهذا يعني أن التأثر لم يتم قبل القرن الثامن الميلادي والقرن الثاني والثالث للهجرة. والجواب على هذه المسألة يجب أن يراعي أمرين:

أولهما: أن الشرائع غير المكتوبة أقدر على التأثير في بعضها سيما وأنها تعتمد في حفظها على الذاكرة الشعبية. والذاكرة الجماعية في الجزيرة العربية تستند إلى ذاكرة اليهود وأتباع البدع النصرانية ، وأتباع محمد نبي الإسلام عليه السلام.

وثانيهما: أنه إذا كانت هذه الشرائع غير مكتوبة ، فإن ثمة شيئا آخر كان مكتوبا ، وهو "المدرش" أي التفسير. وهذا "المدرش" يتألف من خطب ألقاها - على حد قول العلماء اليهود - "التنآم" أو "الأمورائم"، ولكن هذه الخطب ، كما هو ثابت ، قد دونت خلال الفترة المحصورة بين القرنين الرابع والثاني عشر للميلاد. وهي تشرح في أسلوب شعبي كتبا مختلفة من الكتب العبرية التي يقدسها اليهود.

وفي هذه الحال ، فإن "المدرش" كان متداولا قبل رسالة نبي العرب بنحو مائتي عام وكان تدوينه مستمرا حتى عهد الخلافة الفاطمية ، وبالإضافة إلى "المدرش" كان يهود الجزيرة العربية بشكل خاص يتداولون "البسيقتا" وهذه تحتوي على عظات ذات صلة بفقرات من التوراة (١٠).

ويجب أن لا ننسى أن المعلمين اليهود الجدد (وهم الذين كان يطلق عليهم في الجزيرة العربية لقب "رابيون" ومفردها "رابي" كانوا قد فعلوا بمشنا يهودا هذا ما فعله التنآم بالعهد القديم (التوراة)فتناقشوا في النصوص وحللوها وفسروها ، وكانوا كثيرا ما يلجأون إلى التعديل والتبسيط لمواجهة

الظروف الجديدة. والرسالة المحمدية ولا شك كانت من جملة الظروف الجديدة التي واجهت الرابيين في الجزيرة العربية.
كذلك ظل الأحبار "السبورائم" (ألمنا قطة) طيلة ١٥٠ عاما (بين ٥٠٠ إلى ٦٥٠م) يراجعون الشروح الضخمة بغية صقل التعاليم ومواءمتها مع الظروف الجديدة. وإن ذكرنا أن ما تسرب إلى التعاليم الإسلامية إنما هو من "المشنا"
و "المدرش" وليس من "الجمارا" فلأن لغة الجمارا البابلية والفلسطينية هي الأرامية ، بينما لغة "المشنا" و "المدرش" هي العبرية الجديدة التي تتخللها ألفاظ كثيرة مستعارة من اللهجات العربية. ولكن من المرجح أن وسيلة التأثير الأكبر كان "المدرش" و "البسيقتا" في بلاد الشام ، تحديدا لأن جستنيان كان أصدر قرارا بتحريم التلمود لأنه "خليط من الصغائر ، والخرافات ، والمظالم ، والإهانات ، والسباب ، والكفر والتجديف" (١١). وكان طبيعيا أن تتمتع "المشنا" بحرية أكبر ومجال أوسع في الجزيرة العربية نتيجة انحسار نفوذ جستنيان عنها.
إن كل ما ذكرناه آنفا يوضح لماذا كان المسلمون منذ صدر الإسلام وحتى اليوم يتهمون اليهود بتزوير وتحريف التوراة. فعندما كان الصحابي المسلم يسأل واحدا من الرابيين عن حكم في مسألة ما من خلال كتابه ، كان هذا الرابي يجيبه من خلال "المدرش" ، "البسيقتا" و "المشنا" عموما ولم يكن يجبه من "التوراة" وإذا طرح هذا الحكم على أحد المسلمين ممن كان أحد أحبار اليهود سابقا ، كان هذا الأخير يقطع بأن الفتوى افتراء على التوراة وتحريف لها. ولكنه في الوقت نفسه لا يتورع - لكونه أسلم ولو ظاهريا - أن يسرّب خرافات "المدرش" إلى الإسلام .ومثال ذلك "كعب الأحبار" الذي أسلم أو تظاهر بالإسلام ، فقد سئل عن تفسير الآية الواردة في القرآن والتي تقول: "الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم"(١٢). فكان جواب كعب هو ما أورده عنه القرطبي في تفسيره من "أن حملة العرش أرجلهم في الأرض السفلى ، ورؤوسهم قد خرقت العرش"(١٣). وكذلك ما روي عنه في الموضع نفسه حيث قال: "لما خلق الله تعالى العرش قال: لن يخلق الله خلقا أعظم مني، فاهتز فطوقه الله بحية ، للحية سبعون ألف جناح ، وفي الجناح سبعون ألف ريشة ، في كل ريشة سبعون ألف وجه ، وفي كل وجه سبعون ألف فم ، في كل فم سبعون ألف لسان يخرج من أفواهها في كل يوم من التسبيح عدد قطر المطر وعدد الشجر والورق وعدد الحصى والثرى ، وعدد أيام الدنيا ، وعدد الملائكة أجمعين ، فالتوت الحية بالعرش، فالعرش إلى نصف الحية ، وهي ملتوية عليه" (١٤).
ولقد كانت بعض قرارات الأحبار تتعارض تعارضا صريحا مع قوانين أسفار موسى الخمسة ، أو تفسرها تفسيرا يبيح مخالفتها ، ومن هنا اتهام نبي العرب لهم بالتحريف والتبديل في كتاب الله. وهذا كان مأخذ ورقة بن نوفل على أحبار اليهود فقد كان يجيد العبرية ، وكان يرى أنهم يدرسون التلمود أكثر من التوراة .لكنه كان متفائلا بأن نبي العرب محمدا عليه السلام سوف يصحح المسيرة .
ومع أن كثيرا من علماء المسلمين قد التفت إلى الإسرائيليات في الشريعة الإسلامية ومنهم أصحاب التفاسير المشهورة للقرآن فانهم ينزّهون كعب الأحبار عن دسّ الروايات في الإسلام. وها هو أحد فقهاء المسلمين المعاصرين وهو الدكتور محمد السيد حسين الذهبي (رحمه الله) يدافع عن كعب الأحبار في كتابه "الإسرائيليات في التفسير والحديث" فيقول: "أسند من هذه الإسرائيليات المنكرة

شيء ليس بالقليل إلى نفر من سلفنا الصالح ، الذين عرفوا بالثقة والعدالة ، واشتهروا بين المسلمين بالتفسير والحديث ، واعتبروا من المصادر الدينية الهامة عند المسلمين، فاتهموا من أجل نسبة هذه الإسرائيليات إليهم بأبشع الاتهامات ، وعدّهم بعض المستشرقين ومن مشى في ركابهم من المسلمين مضللين مدسوسين على الإسلام وأهله ، ومن أكثر هؤلاء السلف نيلا منه وتحاملا عليه: أبو هريرة ، وعبد الله بن سلام ، وكعب الأحبار ، ووهب بن منبّه ممن لهم في الإسلام قدم راسخة"(١٥).

ولكن الدكتور محمد السيد حسين الذهبي (رحمه الله) يعترف من جهة ثانية بأن تسرب الإسرائيليات إلى التفسير والحديث مسبوق بتسرب الثقافة الإسرائيلية إلى الثقافة العربية في الجاهلية.

والأمر ليس بالمستغرب ، فقد حمل اليهود معهم إلى جزيرة العرب ما حملوا من ثقافات كتبهم الدينية المدونة وغير المدونة ، وما يتصل بها من شروح ، وما توارثوه جيلا بعد جيل من أنبيائهم وأحبارهم. وكانت لقريش ـ كما يحدثنا القرآن ـ رحلتان :رحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشام وفيهم كثير من أهل الكتاب ومعظمهم من اليهود وكانت تتم بينهم لقاءات سواء في الجزيرة العربية أو خارجها. ولا شك أن هذه اللقاءات كانت عاملا قويا من عوامل تسرب الثقافة اليهودية إلى العرب الذين كانت ثقافتهم حينئذ ، بحكم بداوتهم وجاهليتهم ، محدودة ضيقة .

إن كل ما ذكرناه آنفا يوضح ويثبت أن أقنية التأثر مفتوحة. لكن ما نحن بصدده ليس مسألة قابلية واحتمال وإنما نبحث في الحدث ذاته فهل وقع التأثير والتسرب فعلا أم لا ....وإذا وقع فأين مواطن التأثر في الشريعة الإسلامية.

حسنا ، دعونا نقارن بين الشريعة الإسلامية المكتوبة وبين المشنا اليهودية مضافا إليها "المدرش" و "البسيقتا" وسنكتشف ما يلي:

دراسة الشريعة عند اليهود كما عند المسلمين صالحة لكل زمان ومكان .فيقول رجال الدين اليهود: "إن واجب الإنسان وهو منهمك في دراسة الشريعة أن يقول لنفسه كل يوم: كأنّا في هذا اليوم تلقيناه من طور سيناء"(١٦). وواضح في شريعة الإسلام أن عملية التوفيق بين الشريعة وبين الأحداث المعاصرة تستند إلى قاعدة شهيرة هي أن "الإسلام صالح لكل زمان ومكان".

والله بحسب "المشنا" إله عاقل قادر على كل شيء ولكن "المشنا" تصفه أحيانا بصفات البشر تارة وبصفات إزائية تحده تارة أخرى ، فهو يحب ويبغض ويغضب ويضر وينفع ، وينتقم ويمكر ، ومثل هذه الصفات وغيرها نجدها في القرآن والحديث. ويكفي لذلك أن نراجع "أسماء الله الحسنى في القرآن". ثم إن "المشنا" تصور الله جالسا على عرش يحيط به طائفة من الملائكة المختلفي الدرجات يقومون على خدمته. ويعترف الأحبار كما يعترف فقهاء المسلمين بأن الصفات البشرية والإزائية لله قائمة على الافتراض إلى حد ما فيقولون: إننا نستعير له صفات من خلقه نصفه بها لنيسّر بذلك فهمه ، فإذا لم يكن في مقدور العامة أن يفكروا إلاّ على أساس الصور المادية فليس الذنب واقعا عليهم ، وقد جعل القرآن نفسه للذات الالهية صفات البشر المحدودة، فهو يسمع: قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها" ، ويستفسر: "أأنت قلت للناس اعبدوني وأمي إلهين من دون الله" ويكلم البشر ، فقد كلم موسى ومن قبله ابراهيم. وحتى محمد عليه السلام سيرى الله متجسدا يوم القيامة. ففي صحيح البخاري: "إن المؤمنين لما يتشفعون ربهم يوم القيامة فيأتون الى محمد. قال:

فأنطلق فاستأذن على ربي فيؤذن لي عليه. فاذا رأيت ربي وقعت له ساجدا. "بل ان الله يتجسد يوم القيامة. فعن أبي سعيد كما أخرج البخاري - "قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة. ويبقى من كان يسجد رئاء وسمعة فيذهب يسجد فيعود ظهره طبقا واحدا". ولكنه في حديث قدسي يروي عن محمد عليه السلام أن الله لا يمكن أن يراه أحد حتى الأنبياء إلا من دخل الجنة فهو يقول: "يا موسى لن تراني. إنه لن يراني حي إلا مات، ولا يابس إلا تدهده، ولا رطب إلا تفرق. إنما يراني أهل الجنة الذين لا تموت أعينهم ولا تبلى أجسادهم" (١٧). ومن عجيب أن البخاري أورد في صحيحه - كما أسلفنا قبل قليل - أن محمدا يستأذن على ربه فيؤذن له ويراه ويقع له ساجدا. ولا يمكن أن يفسر هذا التناقض إلا بقبول أن الله يتجسد، وإلا كيف يراه محمد عليه السلام ويقع له ساجدا .....وكيف يكشف ربنا عن ساقه إلا إذا كان متجسدا. أو كان الحديث القدسي المنسوب إليه كذبا في كذب !!!

وكما في المشنا، فإن الله، في الأحاديث القدسية عند المسلمين، يخجل ويستحي لقوله: "إني لأهم بأهل الأرض عذابا فإذا نظرت إلى عمّار بيوتي والمستغفرين بالأسحار صرفت عذابي عنهم" (١٨). وهذا ما رواه البيهقي عن أنس بن مالك.

والله إن كان يندم ويغضب في المشنا فإنه يغضب إلى درجة النزق في الأحاديث القدسية عند المسلمين، فقد روي عنه قوله: "من لم يرض بقضائي ولم يصبر على بلائي فليلتمس ربا سواي" (١٩). رواه ابن حيان والطبري وأبو داود وابن عساكر عن الدارمي. وكذلك قوله: "يا محمد من آمن بي ولم يؤمن بالقدر خيره وشره مني فليلتمس ربا غيري" (٢٠) - رواه الشيرازي.

وهم في "المشنا" يصورون الله أيضا بأنه روح الكون غير المنظورة السارية فيه كله، تمد الكون بالحياة وتسمو عليه وتلازمه في وقت واحد تعلو على العالم ولكنها مع ذلك حالة في كل ركن من أركانه وكل جزء من أجزائه. والحضرة الإلهية الكونية المسماة ب "السّكينا" (السكينة) تكون حقيقية في الأشخاص

المقدسين عند اليهود والأتقياء الورعين عند المسلمين، وهم الذين يدعوهم المسلمون ب "أولياء الله الصالحين، وقد ورد في القرآن قوله: "وأنزلنا عليهم السكينة".....

وكذلك فان الابتعاد عن التثليث والحماس للتوحيد من أهم القواسم المشتركة بين العقيدتين. ففي اليهودية والإسلام نجد الإله القادر على كل شيء إلها واحدا فردا صمدا. وليس بين الأفكار كلها عند اليهود والمسلمين فكرة أبغض إليهم من تعدد الآلهة وتبعيضها (مع أنهم قد يتورطون في التبعيض عن غير دراية). وهكذا نجد اليهود لا يفتأون يجهرون بوحدانية الله في حماسة قوية، ويندّدون بشرك الوثنية، وبما يبدو في الثالوث المسيحي من تثليث، وهم يجهرون بهذه الوحدانية في أشهر صلواتهم وأكثرها انتشارا وهي المعروفة ب "شمع يسرائيل" ويعني ذلك: "اسمعي يا إسرائيل، الله إلهنا، الله واحد" شمع يسرائيل، ادوناي الوهينا، أدوناي أحد" (٢١). وقد عبّر الخطاب القرآني عن المعنى نفسه في "سورة الصمد" وجاء فيها: "قل هو الله أحد ...الله الصمد لم يلد ولم يولد ...ولم يكن له كفوا أحد". وكذلك قوله في آية أخرى: "وإلهكم اله واحد"....وقوله: "لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة" (٢٢).

والواقع أن اليهود ، بوحدانية الله وحماستهم لهذا الجهر والتركيز على الوحدانية قد نقلوا عدوى ذلك إلى المسلمين. ففي الأحاديث القدسية المنسوبة إلى الذات الإلهية نقرأ الحديث التالي الذي رواه عن نبي العرب النسائي ، وابن حبان، والحاكم ، وأبو نعيم وأبو يعلى وغيرهم قال: "قال يا موسى يا ربّ علمني شيئا أذكرك وأدعوك به ، قال موسى قلّ لا اله إلا أنت يا رب. فقال موسى إنما أريد شيئا تخصني به ، قال: يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهنّ غيري والأرضين السبع في كفة ولا اله إلا الله في كفة مالت بهنّ كفة لا اله إلا الله" (٢٣).

كذلك نقرأ "حديثا قدسيا" يخاطب الله فيه موسى فيقول كما رواه أبو نعيم عن أنس عن نبي الإسلام عليه السلام: "أوحى الله إلى موسى: لولا من يشهد أن لا اله إلا الله لسلطت جهنم على أهل الدنيا..."(٢٤).

"وحديثا قدسيا" آخر يخاطب الله فيه موسى فيقول برواية الديلمي عن أنس عن نبي الإسلام: "أوحى الله إلى موسى إن في أمة محمد لرجالا يقومون على كل شرف وواد ينادون بشهادة أن لا اله إلا الله. جزاؤهم عليّ جزاء الأنبياء" (٢٥).

وفي الحض على عدم الشرك حديث قدسي رواه الطبراني في الكبير عن سلمان الفارسي عن نبي الإسلام أن الله قال مخاطبا الإنسان: "يا ابن آدم ثلاث خصال واحدة منهن لي ، وواحدة لك وواحدة فيما بيني وبينك ، فأمّا التي لي فتعبدني ولا تشرك بي شيئا، وأما التي لك فبما عملت من خير جزيتك به ، فإن أغفر فأنا الغفور الرحيم. وأما التي بيني وبينك ، فعليك الدعاء والمساءلة ، وعلي الاستجابة والعطاء" (٢٦).

وعند اليهود ليس ثمة مكان بجوار الله في هيكله أو عبادته ، سواء أكان مسيحا أم نبيا أم قديسا. وقد نهى أحبار اليهود العامة من الناس عن ذكر اسمه إلا في أحوال جد نادرة. ويقصدون بذلك أن يحولوا بينهم وبين تدنيسه أو اتخاذه وسيلة للسحر. ولقد انتقل هذا الحرص إلى كثير من أدبيات المسلمين فهم يبدون حرصا أن يشيروا لله بأسماء من صفاته كقولهم: "قال تعالى" ، "رب العزة" وغير ذلك.

اليهود لكي يتجنبوا النطق بهذا الاسم الرباعي "يهوه" كانوا يذكرون منه لفظ "أدوناي" أي الرب ويشيرون باستعمال بدائل منه مثل "الواحد المقدس"، "الواحد الرحيم" والمسلمون تعودوا أن البدائل هي أسماؤه الحسنى فيكتفون مثلا بمناداته ب "الرحمن" و "الرحيم". بل إن بعضا من عامة المسلمين ينادون الله باسمه "يهوه" دون أن يدروا الأصل العبري في التسمية. وكثيرا ما تسمعهم يقولون في

دعواتهم: "يا الله ... يا هوه" وكلمة "يا هوه" أصلها "يهوه" راجع صورة رسالة السلطان العثماني - الوثيقة.

صورة الصفحة الأولى من الرسالة التي وجهها السلطان المخلوع « عبد الحميد » إلى الشيخ أبي الشامات باللغة التركية وبخط السلطان نفسه. ولاحظ في أعلاها كلمة يا هو

بل إن كثيرا من العوام في بلاد الشام يلفظ اسم "يهوه" عند شعوره بالمفاجأة أو بضرورة الاستدلال ... فإذا قلت شيئا يدعو للاعتراض أو الاستغراب قيل لك "يوه" ؟! وهذه الكلمة أصلها: "يا يهوه" أي "يا الله" بالعربية.

وبحسب اليهودية فان الله قادر على صنع المعجزات وهو يصنعها فعلا، وخاصة على أيدي كبار الأحبار، ولكن يجب أن لا يظن أن هذه المعجزات خرق لقوانين الطبيعة ، إذ ليس ثمة قوانين إلا إرادة الله. وقد أفاد الإسلام من هذه القاعدة في الشريعة اليهودية. ذلك أن نبي الإسلام لم يبرهن على رسالته بمعجزات خارقة لناموس الطبيعة. فالقرآن لو صح الزعم بإعجازه، فإن إعجازه معرفي وليس خرقا لقوانين الطبيعة. وعندما قال ابن صوريا لنبي الإسلام: "ما جئتنا بشيء" رد عليه محمد عليه السلام بآية في الخطاب القرآني: "ولقد أنزلنا إليك آيات بينات ، وما يكفر بها إلا الفاسقون" (٢٧). والمعنى هنا: آيات قرآنية معجزات. كذلك فسر المفسرون ، الآية التي جاء فيها " ......وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس" (٢٨) فقد ذكر المفسرون أن البينات هي المعجزات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص...الخ.

وليس في الإسلام من معجزة جاء بها نبي العرب غير القرآن نفسه ....وهذا ما حسمه القرآن ذاته فقد ورد في خطابه: "وإن كبر عليك إعراضهم فان استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية. ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين" (٢٩).

كذلك وردت في السورة نفسها (الأنعام): "وقالوا لولا نزّل عليه آية من ربه. قل إن الله قادر على أن ينزّل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون" (٣٠). ومع ذلك نجد ، خلافا لما حسمه القرآن ، أن في السيرة والحديث معجزات جاء بها نبي الأمة. بعضها رافقت ولادته، وأخرى لازمت رسالته ، فمن حديث الشجر والحجر ، وتكثير الطعام ، وتدفق المياه كنبع من بين أصابع كفه الشريفة ، وانتهاءا بأول حمار ناطق في التاريخ وهو الذي تروي السيرة أن عليه السلام أسماه يعفورا، وسميت ، تيمنا باسمه ، إحدى القرى السورية. وأعتقد أن نبي الإسلام ما كان يرضى أن تنسب إليه معجزات كهذه لا سيما وأن الخطاب القرآني حسم المسألة فنفى أن يكون محمد قد جاء بمعجزة غير القرآن. وبكل الأحوال فان الإسلام هنا لا يخرج عن قاعدة الشريعة اليهودية في "المشنا" والتي توجب عدم الظن بأن المعجزات التي يصنعها الله على أيدي كبار الأحبار هي خرق لقوانين الطبيعة.

ولم تقل التوراة إلا الشيء القليل عن خلود الثواب والعقاب. ولكن هذه الفكرة أصبحت ذات شأن كبير في آراء الأحبار والتي تضمنتها "المشنا" و"الجمارا" و"المدرش" و"البسيقتا". فقد صوروا النار على أنها "جهنم" أو "شاول" وذلك تمثلا بوادي "جهنّم" والذي كان عبارة عن كومة من الأقذار في خارج أورشليم القدس ، وتظل النار متقدة فيه لمنع انتشار الأوبئة. أما شاول فقد كانت في رأيهم مكانا مظلما تحت الأرض يذهب اليه جميع الأموات .ولقد انتقل مبدأ خلود الثواب والعقاب بحذافيره إلى الشريعة الإسلامية واذ تفنن أحبار اليهود في تقسيم السموات الى سبع طبقات ، وجهنم إلى سبع طبقات تتدرج في درجات العذاب ، فقد انتقلت اللوحه بحذافيرها إلى كتب الشريعة الإسلامية فالجنة تم تصويرها في الشريعتين على أنها حديقة تحوي جميع المسرات الجسمية والروحية ، فخمرها عصرت من كروم ، والهواء فيها معطر. والله نفسه يجتمع بالناجين من العذاب في وليمة أعظم ما يسر أصحابها أن يروا وجهه. وحتى الوليمة جاء ذكرها في صحيح الحديث. فمن بين الأحاديث القدسية مثلا ما رواه ابن عساكر عن أبي هريرة عن نبي العرب قوله: "أوحى الله إلى عيسى أن انتقل من مكان إلى مكان لئلا تعرف فتؤذى ، فوعزتي وجلالي لأزوجنّك ألف حوراء ، ولأولمنّ عليك أربعمائة عام" (٣١).

وإذا ما فكر اليهود في النجاة كان تفكيرهم فيها أنها نجاة شعب لا نجاة فرد، لكن نبي الإسلام جعل كل فرد مسؤولا عن نجاته.

ولم تكن العقيدة وحدها تستطيع أن تحفظ على اليهود وحدتهم ولذلك اهتموا بجماعية الشعائر. وذلك ما تلقفه المسلمون الأوائل الذين ركزوا على الصلوات الجماعية والحج. والشعائر عند الطرفين هي، أولا وقبل كل شيء، قانون العبادة. ولما أن حلت المعابد اليهودية محل الهيكل المدمر استبدلت الأضاحي الحيوانية بالقرابين والصلوات. وكما أن اليهود لم يجيزوا وضع صورة رمزية لله أو الآدميين كذلك فعل المسلمون لأن هؤلاء الآخرين حرصوا حرص اليهود، على تجنب كل ما يشتم منه عبادة الأوثان. ومع أن الموسيقى الآلية كانت مباحة في الهيكل، إلا أنها حرّمت في المعابد وحرّمت كذلك في مساجد المسلمين وفي بيوتهم.

ولقد كانت الصلاة تجربة دينية يمارسها اليهودي المتدين كل يوم، بل يكاد يمارسها في كل ساعة. وكانت صلوات الصباح تتلى من علب صغيرة تحتوي على فقرات من الكتاب المقدس مثبتة على الجباه والأذرع. أما صلوات المسلمين التي تدخّل النبي موسى نفسه من أجل تخفيفها عن المسلم ......فإنها وان كانت تختلف شكلا عن صلوات اليهود إلا أنها تتفق معها. فاليهود والمسلمون لا يكتفون بالصلوات المنزلية، لأن الناس لا يرتبطون ويتماسكون إلا إذا اشتركوا معا في القيام بأعمال واحدة. وكان أحبار اليهود يحاجّون بما عرف عنهم من مبالغة بأن "الله لا يستجيب لصلاة الإنسان إلا إذا قام بها في الكنيس" (٣٢) وحرّض الإسلام من جانبه المسلم على الصلاة الجماعية في المسجد.

إنما تفترق طقوس صلوات اليهود عن الصلوات الإسلامية من حيث أن الأولى تتضمن "الشمونة عسرا" والتي استبدلها الإسلام بالصلوات الإبراهيمية في خاتمة كل صلاة. والسبب أن صلاة "الشمونة عسرا" (٣٣) وهي أهم قسم في صلوات اليهود اليومية تحوي دعاءا بمجيء ابن داود، الملك المسيح الذي يجعل اليهود كما

كانوا أمة متحدة، حرة، يعبدون الله في هيكلهم بشعائرهم وترانيمهم القديمة. ولم يكن بإمكان المسلمين لأن ينزلقوا تقليدهم فيها لأنهم يعترفون بالمجيء الأول للمسيح فيما ينكر ذلك اليهود.

أما من حيث مضمون بقية الصلوات فإنها متقاربة جدا. فالصلوات اليهودية والإسلامية تتضمن تلاوة فقرات من الكتاب المقدس، وعلى أدعية حمد وبركة للأحياء والأموات، إضافة إلى دعاء ختامي.

وكما ورد في وصية "العازر"...... لا تتكلم في أثناء الصلاة، وردد الإستجابات، واعمل الخير بعد الصلاة"، كذلك اعتبر الشرع الإسلامي أن الكلام في أثناء الصلاة من بين مبطلاتها. وحض نبي الإسلام على ترديد الاستجابات وعمل الخير بعد الصلاة.

وتكاد قواعد الطهر والنظافة تكون واحدة في الدينين فكلاهما يرى أن الصحة البدنية تعين على سلامة الروح. لقد كان الأحبار يحرمون على بني دينهم أن يعيشوا في مدينة ليس بها حمام، ويعينون للاستحمام قواعد تكاد تبلغ مرتبة الأوامر الطبية. فنبي الإسلام قرر أن "النظافة من الأيمان" لكن أحبار اليهود تشددوا في قواعد الغسل كقولهم: "إذا اغتسل الإنسان بماء ساخن ولم يغتسل بعده بماء بارد كان مثله كمثل الحديد الذي يحمى في تنور ثم لا يوضع بعدئذ في ماء بارد"

(٣٤) وتشدد نبي الإسلام في قواعد أخرى تتعلق بغسل السبيلين "والاستبراء" و "الاستنجاء" وسوى ذلك، إلا أن الشريعتين تلتقيان عند ضرورة غسل أعضاء الجسم قبل الصلاة العامة، وقبل القيام بكل شعيرة دينية ، بالنسبة لليهود (وقبل مسّ القرآن) بالنسبة للمسلمين. وبحسب الشريعتين معا فان جثث الموتى، والاتصال الجنسي ، والحيض ، والولادة ، والخنازير نجس يستوجب الطهر منه. فيما تشددت اليهودية وحدها في الأمراض الجلدية. والمرأة في الشريعة اليهودية تعتبر نجسة فلا يقترب منها زوجها أربعين يوما بعد أن تلد ولدا. ويطبق المسلمون هذه القاعدة حتى اليوم. فتستحم المرأة المسلمة في اليوم الأربعين من ولادتها لتطهر من نجسها. وهذا ما يسميه عوام المسلمين في بلاد الشام ب "الفسخ".

وتقضي الشريعتان كذلك بعملية الختان. ومع أن الشريعة الموسوية تعتبر الختان قربانا ليهوه وعهدا بينه وبين عباده ، ومع أن الشريعة الإسلامية تقتضي ذلك على أنها "أمر من رسول الله" فإن انتشار هذه العادة بين المصريين الأقدمين والأحباش والفينيقيين ، والعرب عموما ، يوحي بأنها كانت إجراءا صحيا يحتمه الجو الذي يساعد على النضوج والإهتياج الجنسي المبكرين أكثر مما هو وسيلة من وسائل النظافة .

وحتى طريقة الذبح تكاد تكون واحدة في الشريعتين فهما تجمعان معا على وجوب ذبح الحيوان بطريقة تضمن أن تقل آلامه إلى أقصى حد ، وبحيث يخرج الدم من اللحم. لأن أكل اللحم بما فيه من الدم رجس. ومن أجل هذا يجب أن يعهد إلى أشخاص مدربين بذبح الحيوان فيتأكدوا من سلامته من الأمراض. ويجب أن يقوم الناحر بذكر اسم الله عند الذبح. ولحم الخنزير محرم ممقوت وكذلك الميتة والموؤدة. وفي "المشنا" يجب الامتناع عن تناول الطعام في غير أوقاته: "لا تنقر طوال النهار كالدجاج" ، وكذلك نجد كثيرا من الأحاديث المروية عن نبي الإسلام وفيها يدعو المسلم إلى الاقتصاد في أكله وشرابه.

ويحتفل اليهود بعيد رأس السنة وبهلال الشهر مع بداية الإعتدال الخريفي فيكون بداية شهر تشرين الأول / اوكتوبر. وينفخون في قرن الحمل (الشفار أو الصفارة) إحياءا لذكرى نزول التوراة ، ودعوة الناس إلى التوبة من الذنوب ، واستعجالا لذلك اليوم "السعيد" حين يدعى جميع يهود العالم ليعبدوا الله في أورشليم. ومن مساء رأس السنة إلى اليوم العاشر من تشرين الأول ، تكون أيام توبة وتكفير عن الذنوب. وكان أتقياء اليهود في هذه الأيام جميعها يصومون ويصلون. فإذا جاء يوم الغفران (هاكيريم) لم يكن يجوز لهم فيه أن يأكلوا أو يشربوا أو يحتذوا نعالا، أو يقوموا بعمل أو يستحموا أو يقربوا النساء من مطلع الشمس إلى مغيبها.

والإسلام كذلك أمر بصوم المسلمين في شهر رمضان على اعتباره الشهر "الذي نزل فيه القرآن" وورد ذلك صراحة في الخطاب القرآني لقوله: شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن" ......وأما عيد الغفران (هاكيريم) فتقابله في الإسلا "ليلة القدر". والصوم اليهودي الإسلامي يبدأ يوميا من شروق الشمس إلى غروبها.

وبينما يحتفل اليهود في الرابع عشر من آذار (مارس) كل عام بعيد "بوريم" الذي أنجى فيه موردكي واستير "الشعب" من مكر الوزير الفارسي هامان .... نجد أن هامان قد ورد ذكره في

القرآن وزيرا لفرعون في مصر وليس وزيرا فارسيا كما في "سفر استير" وقد طلب منه فرعون أن يقوم له بعمل ما "قال يا هامان ابن لي صرحا لعلّي أطّلع إلى إله موسى" ....
ونرى المؤرخ ول ديورانت يحكم في كتابه (قصة الحضارة) بأن "التلمود هو أولا وقبل كل شيء قانون أخلاقي ، وأن هذا القانون الأخلاقي شديد الاختلاف عن القانون الأخلاقي المسيحي، وعظيم الشبه بالقانون الإسلامي" (٣٥).
ويتفق الدينان اليهودي والإسلامي في كثير من قواعد الأخلاق ولا سيما ما يتعلق منها بحرمة الأسرة والمسكن وطاعة الأبوين وإجلال وتكريم كبار السن ومحبة الأبناء والعطف على الأطفال وإيثار الزكاة والصدقات. والإمتناع عن الزواج عن قصد يعتبر من الآثام في اليهودية كما في الإسلام ثم إن إنشاء البيت وتكوين الأسرة من الأمور الشرعية التي يحتمها الدين اليهودي وتنص عليه القاعدة الأولى من قواعد الشريعة البالغ عددها ٦١٣ قاعدة. وفي ذلك يقول أحد المعلمين اليهود: "إن من لا ولد له يعد من الأموات. ويتفق نبي الإسلام مع استراتيجية هذا المعلم اليهودي في ضرورة التكاثر حتى روي عن محمد عليه السلام حديث شهير بين المسلمين إذ يقول: "تكاثروا وتناسلوا فإني مفاخر بكم الأمم" (٣٦).
ولقد ورث العرب في جاهليتهم عن اليهود كرههم أن يلدوا بنات ، وفرحهم بإنجاب الذكور. ذلك أن الذكر لا الأنثى هو الذي يحمل إسم أبيه وإسم الأسرة ، ويرث أملاكه ، أما البنت فتتزوج في بيت غريب. ولا تكاد تتم تربيتها حتى يفقدها أبواها .وهذا المفهوم قد عكس نفسه في قواعد الشريعتين، اليهودية ومن بعدها الإسلامية. إنما خفف نبي الإسلام على المرأة مما كان يصيبها في الجاهلية ، وحصّل لها بعض الحقوق ، إنما بقيت مع ذلك ناقصة العقل والدين ولا تعدل شهادتها شهادة الذكر فكما أن عقلها نصف عقل الذكر كذلك فان شهادة من امرأتين تعدل شهادة رجل وترث نصف ما يرثه الذكر إن كانت شقيقة له.
ولم يندد اليهود وعلماؤهم بالشهوة الجنسية وإن كانوا يدعون إلى كبح جماحها بالزواج وبتعدد الزوجات. والعزة عند اليهودي (الرجل) تمنعه أن يسير خلف امرأة حتى ولو كانت زوجته. وتقول قاعدة "المشنا" : "خير للإنسان أن يمشي خلف أسد من أن يمشي خلف إمرأة" (٣٧). ولا يزال المسلمون المتشددون حتى اليوم يأنفون من السير خلف زوجاتهم ، وبعضهم ممن يقود سيارته بنفسه يأنف أن تجلس زوجته بجانبه ، لا سيما إن كان بين الركاب رجل آخر.
ويشير أحبار اليهود بالزواج المبكر للشاب والفتاة. ومن الأحبار من كان يقول إن على الرجل أن يثبت دعائم مركزه الإقتصادي قبل أن يقدم على الزواج. "على الرجل أولا أن ينشيء البيت ثم يفرشه بكرمه ، ثم يتزوج"(٣٨). واختصر محمد نبي الإسلام هذه الوصية بكلمات قليلة ، فقال: "من استطاع منكم الباءة فليتزوج" (٣٩).
وكان الأحبار اليهود ينصحون الشاب بألا يختار زوجته لجمالها وحسب بل لصفاتها التي سوف تجعلها في المستقبل أمّا صالحة. وقد صاغ نبي الإسلام مثل هذه الوصية في ما روي عنه، بالحديث القائل: "تنكح المرأة لثلاث ، لجمالها ومالها ودينها. فاظفر بذات الدين تربت يداك".
وأجاز العهد القديم كما أجاز التلمود والقرآن تعدد الزوجات. ومن أقوال أحد أحبار اليهود في هذا المعنى: "يستطيع الرجل أن يتزوج أي عدد من النساء يشاء". ولكن فقرة ثانية في مقاله هذا تحدد

عدد الزوجات بأربع ، ونجد لهذه القاعدة مثيلا في القرآن ففي مطلع إحدى الآيات نقرأ قوله: "وانكحوا ما طاب لكم من النساء" ...... ولكن في فقرة ثانية من الآية حدد عدد الزوجات بأربع فاستكمل الآية بالقول...... "مثنى وثلاث ورباع".

وجملة القول أن قوانين التلمود بوجه عام من وضع الرجال وأنها لذلك تحابي الذكور محاباة بلغ من قوتها أن بعثت في نفوس أحبار اليهود الفزع من قوة المرأة وكيدها. وصحيح أن الأحبار كانوا يرون فيها خفة العقل ولكنهم يقرّون بأن لديها حكمة غريزية لا وجود لها في الرجل وهذا عبّر عنه القرآن لدى المسلمين بالقول: "إن كيدهن عظيم" ولقد أنصف القرآن المرأة أكثر مما أنصفها الشرع اليهودي فان كانت شهادتها بحسب النص القرآني تعدل نصف شهادة الذكر، فإن الشرع اليهودي - بحسب قول الأحبار - جعل "شهادة مائة امرأة تعدل شهادة رجل واحد".

ومكان المرأة في الشريعتين وآدابهما هو البيت ، ويقول أحد الأحبار المتفائلين أن المرأة في عصر المسيح الثاني ستلد طفلا في كل يوم "وتتردد في الآداب الإسلامية حتى اليوم عبارة تقول: "مكان المرأة هو بيت زوجها".

وظل اليهود طوال العصور القديمة والوسطى يجمّلون نساءهم بفاخر الثياب ، لكنهم حرموا عليهن أن يظهرن أمام الجماهير عاريات الرأس. بل وأمر اليهودي أن لا يصلي في حضرة إمرأة يرى الناس شعرها. ولم ينتقل عدوى الحجاب إلى الإسلام إلا بعد مضايقة المنافقين لزوجات نبي الإسلام فخاطبت واحدة من الآيات نبي العرب محمدا عليه السلام بالقول: "يا أيها النبي قل لأزواجك وأزواج المؤمنين

يدنين من جلابيبهن عليهن. ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين" (٤٠). وكان وثيق الصلة بكعب الأحبار، فقد أخرج البخاري في صحيحه عن أنس قال: "قال عمر وافقت ربي في ثلاث. قلت يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى ، فنزلت واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى. وقلت يا رسول الله إن نساءك يدخل علبهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب. واجتمع على رسول الله صلى الله عليه وسلم نساؤه في الغيرة فقلت لهن: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن....."(٤١).

وتقول إحدى قواعد "المشنا" إن من قلة الذوق والوقاحة أن تجرأ الفتيات على أن يبدين هواهن أو خيارهن بالنسبة للزوج. ومع ذلك فإن الزواج لا يكون إلا برضاء الزوجين. ولكن من حق الوالد أن يزوج ابنته لمن يشاء وهي صغيرة السن حتى وان كانت في السادسة من عمرها. وهذا ما فعله الصحابي الجليل أبو بكر الصديق عندما زوج ابنته عائشة من نبي العرب عليه السلام ، ولم تكن تتجاوز السابعة حتى أنها نفسها تقول: "تزوجني في السابعة وأهديت له وأنا في التاسعة".

وثمة عاقد يوقع عقد زواج اليهوديين ويسمى العقد " كتوبة "ويسمى عند زواج المسلمين ب "الكتاب". ويحدد في العقدين بحسب الشريعتين بائنة الزوجة مهرها ومؤخر الصداق. ولم يكن مؤخر الصداق عند اليهود يقل عن مائتي زوزا ، وهو ما يكفي لشراء بيت ، وهو في الشريعتين يقتطع من مال الزوج إذا طلقها ومات عنها.

وفي الشريعتين نجد مركز المرأة منحطا من الوجهة القانونية ، عاليا من الناحية الأخلاقية ، ولكن الرجلين اليهودي والمسلم يحمدان الله كما حمده أفلاطون لأنهما لم يولدا أنثيين. والمرأة اليهودية

تجيب عن ذلك في تواضع جم: "وأنا أحمد الله الذي خلقني كما أراد" ، فيما المرأة المسلمة تجيب بقولها: "الحمد لله الذي خلقنا إناثا ولم يخلقنا ذكورا".
وللنساء في المعابد اليهودية والمساجد الإسلامية موضع منعزل في الرواق أو خلف الرجال أو في علّية خاصة ، وتلك تحية سمجة لمفاتنهن التي تلهي العابدين من الرجال عن العبادة.
وبعد أن يسرت الشريعتان اليهودية والإسلامية للرجل إشباع غريزته الجنسية عن طريق السماح له بتعدد زوجاته والتسري بما ملكت يمينه. جعلت الشريعتان الزنى من الجرائم التي يعاقب عليها مرتكبها بالإعدام رجما (إن كان متزوجا). ولكننا نجد بعض الأحبار ترق قلوبهم فيأمرون بجلد الزاني ، بل إن رب ايكا يقول :"يجد الإنسان في كتاب سيئاته يوم الحشر كل شيء رآه بعينيه وأبى أن يستمتع به".
وقد أبيح الطلاق في الشريعتين برضا الطرفين. فأما الزوج (الرجل) فلا يمكن أن يطلق إلا برضاه. وأما الزوجة فيجوز للرجل أن يطلقها بغير رضاها .
لكن هناك من الأحبار اليهود من أصر على اتباع أسفار موسى الخمسة في التوراة بنصها الحرفي وأبرز هؤلاء الحبر "عنن" الذي احتج على ما أدخله علماء التلمود من تبديل في الشريعة الموسوية ، وما يحاولونه في تفسيرهم وشرحهم من توفيق بينها وبين الظروف القائمة في أيامهم ولذلك سمي أتباعه ب "القرائين" وكان منهم البعض في صدر الإسلام. وانتقلت قناعتهم بأن التلمود تحريف للتوراة إلى المسلمين الأوائل الذين قالوا بذلك أيضا. "والقرّاء" هو المتمسك بالنصوص. واللفظة آرامية أصلها قرا (بدون همزة على الآخر) وتعني النص. ومنه أيضا "القرآن".
والواقع أن الحبر "عنن" كان مقبولا في الفكر الديني الإسلامي ولا سيما من الشيعة الذين يطالبون بنبذ السنة واتباع القرآن وحده. فهو متمسك بالنصوص ويرفض تأويلات وشروح التلمود ويعتبرها تحريفا. كما أنه يمتدح يسوع ولكن بعد أن يقلب اسمه إلى "عيسى" ويرى فيه أنه رجل صالح لم يرغب في نبذ شريعة موسى المدونة بل كل ما كان يطلبه أن ينبذ الناس قوانين الكتبة والفريسيين الشفوية. ويرى "عنن" أن عيسى لم يكن يرغب في وضع دين جديد ، بل كان يرغب في تطهير الدين اليهودي وتدعيمه. وبالطبع لا يخفى على القارىء المسلم أن يرى أثر تعاليم القرّاء "عنن" في الشريعة الإسلامية حيث يسوع هو عيسى وهو مجرد نبي أراد تصحيح مسيرة اليهودية بتكليف من الله، وحيث الفريسيون والكتبة قد حرفوا التوراة بوضعهم التلمود. بل إن الحبر "عنن" كان له أيضا التأثير الواضح في فكر مارتن لوثر الذي طالب بنبذ التقاليد الكاثوليكية والعودة إلى الأناجيل.
ومن يقرأ سعديا بن يوسف المولود في أحد قرى الفيوم المصرية عام ٨٩٢م. ويطالع شرحه لأسفار التوراة ولا سيما في "كتاب الأمانات والاعتقادات" المطبوع عام ٩٣٣م. يتأكد لديه أن الشريعة الإسلامية شأنها شأن اليهودية تقوم على الوحي والتواتر معا. ومع أن الشريعتين تؤمنان أيضا بالعقل ، وتطالبان بأن يثبت استنادا إلى العقل صدق الوحي والتواتر. فإننا نادرا ما نجد فقهاء الشريعتين يطبقون ذلك.
إن فلسفة سعديا وابن ميمون كما هي فلسفة الغزالي وابن رشد والرازي ، فيها كلها أن نظام العالم وقوانينه هو ما يدل على وجود خالق مدبر عاقل. وليس من العقل في شيء أن يظن المرء بأن الله العاقل المدبر يعجز عن أن يثبت على الفضيلة. ولكن الفضيلة في الفكر اليهودي والإسلامي، كما

هو واضح ، لا يثاب عليها دائما في هذه الحياة. ومن ثم لا بد أن تكون هناك حياة أخرى تعوض ما يبدو في هذه الحياة الدنيا من ظلم ظاهري. ولعل آلام الصالحين في هذه الدنيا ليست إلا عقابا لبعض ما ارتكبوه من ذنوب حتى يدخلوا الجنة من فورهم بعد موتهم ، كما أن ما يظفر به الأشرار من نعم إنما هو مثوبة على أعمالهم الصالحة العارضة.

نعم إن سعديا وابن ميمون ونظراءهما من فلاسفة العرب يكرسون ربط الحاضر بالماضي والأحياء بالأموات. وقد انتشرت ، من مظاهر ذلك ، في بيوت ومحال اليهود والمسلمين تزيين الجدران بآيات من التوراة عند اليهود وبآيات من القرآن بل ومن الأحاديث النبوية عند المسلمين. ففي بيت اليهودي كانت تعلق على باب الحجرة أنبوبة يقال لها بالعبرية "مزوزا" وتحتوي ملفا من الرق كتبت عليه فقرتان من سفر تثنيه الاشتراع (الآيات ٤ - ٩ من الصحاح السادس و ١٣ - ٢١ من الصحاح الحادي عشر) وهي تذكر اليهودي بأن ثمة إلها "واحد يجب عليه أن يحبه من كل قلبه وروحه وبكل قوته. وأما على جدار بيت المسلم أو متجره فكثيرا ما تقرأ عبارات قالها نبي الإسلام مثل: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه" ومقاطع من آيات قرآنية مثل: "إن مع العسر يسرا" ، وكذلك: "ألم نشرح لك صدرك..."

ولقد ظهر في وقت ما في القرن الأول بعد الميلاد كتاب من تلك الكتب التي تتحدث عن الأسرار الخفية ويعرف باسم "سفر يصيرا" - أي كتاب الخلق .وكان الأتقياء والمتصوفة من اليهود ومنهم "يهودا هليفي" يقولون أن واضعه هو إبراهيم الخليل ، أو الله نفسه ، ومما جاء فيه أن عملية الخلق قد تمت بواسطة عشر "سفروتات" (أي إعداد أو أصول) وهي: روح الله. وفيوض ثلاثة منها : الهواء والماء والنار ، وثلاثة أبعاد مكانية إلى اليسار ، وثلاثة أبعاد زمانية إلى اليمين، وهذه الأصول هي التي حددت محتويات العالم.

والواقع أن "سفر يصيرا" هو ما يسميه القرآن ب "صحف إبراهيم" ولأن عملية الخلق قد تمت بواسطة عشرة سفروتات ، انتقلت أهمية هذه المناسبة إلى العقيدة الإسلامية وسميت ب "عاشوراء" وتحولت إلى مناسبة للصوم فيما أثر عن نبي الإسلام. فقد روي عن ابن عباس "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صام يوم عاشوراء وأمر بصيامه" (٤٢). وهذا الحديث متفق عليه. بل إن نبي الإسلام كان يصوم أيام العشر. وقد وصفها بحسب ما روي عن ابن عباس بقوله: "ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام" (٤٣). والواقع أن "سفر يصيرا" يكاد أيضا يشرح فلسفة العدد (٧) في الإسلام التي هي عبارة عن فيض.

روح الله وثلاثة أبعاد مكانية إلى اليسار وثلاثة أبعاد زمانية إلى اليمين. وأما فلسفة العدد (١٠) فتكون بإضافة فيوض روح الله الثلاثة إلى سابقتها وهي :الهواء والماء والنار (٤٤).

ولقد اقتبس الشيعة عند المسلمين مناسبة عاشوراء فكانت موعد حدادهم على استشهاد الحسين ابن علي. ولكنهم اقتبسوا وحدهم دون غيرهم شيئا آخر من "سفر زوهر" أو ما يسمى بكتاب المجد. وهذا يعزى تأليفه إلى شمعون بن يوحاي أحد علماء القرن الثاني للميلاد. وفيه يذكر شمعون أن الملائكة قد ألهمته وألهمت السفروتات العشرة أن يكشفوا لقرائه المستترين الأسرار التي كانت من قبل محفوظة إلى أيام المسيح المنتظر.

ولقد جمعت في الزوهر كل عناصر القبالة: فكرة الإله الشامل لكل شيء والذي لا يعرف إلا عن طريق الحب. والحروف الأربعة المكونة لأسم يهوه ، والأوساط الخالقة ، والفيوض الربانية ، والاستعارات الخاصة بالعالم الكبير والعالم الصغير. وتاريخ ظهور المسيح وكيفية ظهوره، وأزلية الروح وتنقلها ، والمعاني الصوفية للطقوس الدينية ، والأعداد والحروف والنقط والشرط واستعمال الكتابات الجفرية. وقراءة الكلمات عكسا لا طردا ، ومثل ذلك قراءة اسم يسوع التي أصبحت عوسي ثم انقلبت إلى عيسى.

وأهم ما في هذه المسألة أن عبد الله بن صوريا اليهودي الأصل قد نقل إلى بعض شيعة الإسلام شيئا من تعاليم "سفر زوهر" فعلمهم فلسفة الأعداد والحروف وطريقة استعمال الكتابات الجفرية. حتى أصبح للشيعة فيما بعد "جفر" خاص. وتاريخ ظهور المسيح وكيفية ظهوره باتت لديهم تاريخا لظهور المهدي المنتظر وهو الحسين بن علي ، أو أبوه ابن أبي طالب. والواقع أن مفكري الشيعة ومحدثيهم ينكرون وجود عبد الله بن صوريا أساسا ، ويقولون أنه شخص وهمي.



الإسرائيليات في الإسلام

إذا ، فالإسرائيليات لم تتسرب إلى العقيدة الإسلامية عن طريق التفسير والحديث فقط ، كما رأى عدد من كبار المفسرين. فالإسرائيليات التي يحذر فقهاء المسلمين من وجودها في نصوصهم المقدسة لم يكن مصدرها "التوراة" ، بل "المشنا" و "البسيقتا" و "المدرش" و "سفر زوهر" و "سفر يصيرا". أما
التوراة نفسها فهي في صلب بنيان القرآن ، وقد أقر الخطاب القرآني بذلك عندما أكد على وحدة الكتاب عند الله. وليس صحيحا أن القرآن جاء ناسخا للتوراة والإنجيل فالقرآن والإنجيل والتوراة يستندون كما رأينا في مطلع البحث إلى عقيدة جوهرية واحدة هي عقيدة التوحيد: "وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا اله إلا أنا فاعبدون" (٤٥). والمسلمون يؤمنون بالكتاب كله ، بالذي أنزل إلى اليهود والنصارى ، ولا يمكن للوحي أن ينقض بعضه بعضا: "ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون" (٤٦). ولا يمكن لامريء أن يقول بأن الإسلام نسخ وابطل ما قبله فقد "شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحا ، والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى" (٤٧).
وقد رأينا أن مفسري القرآن من الصحابة والأتباع ـ قبل القرن الثامن ميلادي، وتحديدا قبل خلافة عمر بن عبد العزيز ـ ما كانوا يطلعون على التوراة للإستئناس بها عند شرحهم للآيات القرآنية ، ولا سيما في ما يختص بأخبار الأولين ، بل كانوا يلجأون إلى "أهل الكتاب" من اليهود، لا سيما من دخل منهم في الإسلام ، فكان هؤلاء يضلّونهم بما يعرفونه من "المشنا" وغيره. وهي أضاليل لا أساس لها في التوراة. حتى أن المفسرين في القرنين التاسع عشر ، والعشرين للميلاد كانوا يحملون على المفسرين الذي أغرموا بالإسرائيليات ، ويكشفون ذلك عند مقارنة هذه الإسرائيليات بأسفاره التوراة. ومن بين الذين عابوا على سابقيهم من المفسرين تورطهم في الإسرائيليات: الشيخ محمد رشيد رضا صاحب "تفسير القرآن الحكيم" الشهير ب "المنار" (٤٨) فقد كان الشيخ رضا يقارن هذه الإسرائيليات بما ورد في التوراة فيردها ، وكانت صحبة الصحابي لا تحميه عنده إذا تأكد له صحة نسب واحدة من الإسرائيليات إليه. وهو أحيانا يضرب صفحا عن ذكر الإسرائيليات ويكتفي بالإشارة إليها وبيان بطلانها ، ومن ذلك مثلا أنه عندما فسر الآية ٦٩ من "سورة الأعراف" نجده

يفسر قوله: "وزادكم في الخلق بسطة" بأنه زادهم في المخلوقات بسطة وسعة في الملك والحضارة ، أو بسطة في خلق أبدانهم ، إذا كانوا طوال الأجسام ، أقوياء الأبدان ..حتى يقول: "وفي التفسير المأثور روايات إسرائيلية الأصل في المبالغة في طولهم وقوتهم ، لا يعتمد عليها ولا يحتج بشيء منها" (٤٩).

كذلك فإنه يعرض لتفسير قصة نوح في القرآن فيقول: "وأما ما حشا المفسرون به تفاسيرهم من الروايات في هذه القصة وغيرها عن الصحابة والتابعين وغيرهم، فلا يعتقد بشيْ منه (٥٠) ويضرب مثلا في ذلك الحديث المروي عن عائشة في صنع السفينة ، وأم الولد الكافر الذي رفعته لينجو فغرق معها. ويضيف قوله: "وأنكر منه ما رواه ابن جرير عن ابن عباس عن إحياء عيسى عليه السلام بطلب الحواريين لحام بن نوح وتحديثهم إياه عن السفينة في طولها ، وعرضها ، وارتفاعها ، وطبقاتها ، وما في كل منها. ودخول الشيطان فيها بحيلة احتال بها على نوح ، ومن ولادة خنزير وخنزيرة من ذنب الفيل ، وسنّور وسنّورة من منخر الأسد ، وكل ذلك من الأباطيل الإسرائيلية المنفرة وقد رواه من طريق علي ابن زيد ابن علي (٥١).

وعلى الأغلب نجد صاحب "تفسير المنار" يذكر الروايات الإسرائيلية التي تناقلها المفسرون ، ثم يعرضها على التوراة متخذا من ذلك دليلا على كذبها .فالتوراة عنده هي الأصل المعتمد ، بل هي المحك الذي يعرض عليه روايات المفسرين المسلمين ، فما وافقها فهو حق وما خالفها فهو باطل.

ومن ذلك تفسيرة للآية القرآنية التالية: "قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فان يخرجوا منها فإنا داخلون" (٥٢).

ويقول صاحب تفسير المنار في ذلك: "أما ما روي في التفسير المأثور من وصف هؤلاء الجبارين ، فأكثره من الإسرائيليات الخرافية التي كان يبثها اليهود في المسلمين ، فردّدوها من غير عزو إليهم ، كقولهم إن العيون الإثني عشر الذين بعثهم موسى إلى ما وراء الأردن ليتجسسوا ويخبروه بحال تلك الأرض ومن فيها قبل أن يدخلها قومه ، رآهم أحد الجبارين فوضعهم كلهم في كسائه، وفي رواية : كان أحدهم يجني الفاكهة ، فكان كلما أصاب واحدا من هؤلاء العيون وضعه في كمه مع الفاكهة. وفي رواية: أن سبعين رجلا من قوم موسى استظلوا في خف رجل من هؤلاء العماليق (٥٣).

ثم يقول صاحب "المنار" في تعليق على التفسير: "وهذه القصة مبسوطة في الفصل الثالث عشر والرابع عشر من سفر العدد ، الذي هو السفر الرابع من أسفار التوراة. وفي أولهما أن الجواسيس تجسسوا أرض كنعان كما أمروا ، وأنهم قطعوا في عودتهم زرجونة (كرمة) فيها عنقود عنب واحد ، حملوه بعتلة بين اثنين منهم ومعه شيء من الرمان والتين. وقالوا لموسى وهو في ملأ بني إسرائيل: قد صرنا إلى الأرض التي بعثنا فيها ، فإذا هي بالحقيقة تدرّ لبنا وعسلا ، وهذا ثمرها ، غير أن الشعب الساكنين فيها أقوياء ، والمدن حصينة عظيمة جدا ، ورأينا ثم أيضا بني عناق - "إلى أن قال الكاتب " - وكان كالب يسكت الشعب عن موسى قائلا: نصعد ونرث الأرض فانا قادرون عليها. وأما القوم الذين صعدوا معه (أي للتجسس) فقالوا لا نقدر أن نصعد إلى الشعب لأنهم أشد منا ، وشنعوا عند بني إسرائيل على الأرض التي تجسسوها وقالوا هي أرض تأكل أهلها ، وجميع الشعب الذين رأيناهم فيها طوال القامات ، وقد رأينا ثم من الجبابرة جبابرة بني عناق، فصرنا في عيوننا كالجراد، وكذلك كنا في عيونهم".

ويعلق صاحب "المنار" بعد أن يعرض رواية المفسرين المسلمين على رواية التوراة فيقول:
«فأنت ترى أنه ليس في الرواية المعتمدة عند بني إسرائيل تلك الخرافات التي بثوها بين المسلمين في العصر الأول ، وإنما فيها من البالغة: أنهم لخوفهم ورعبهم من الجبارين ، احتقروا أنفسهم حتى رأوها كالجراد ، واعتقدوا أن الجبارين رأوهم كذلك، وأما حمل زرجون العنب والفاكهة بين رجلين فلا يدل على مبالغة كبيرة في عظمها، وقد يكون سبب ذلك حفظها لطول المسافة" (٥٤).
مع ذلك ، فهنالك حتى الآن بين العلماء المسلمين من يرفض هذه الحقيقة، حقيقة أن التحريف كان في تسريب الشريعة غير المكتوبة التي كان يتداولها اليهود في صدر الإسلام والدليل أن التوراة التي بين أيدينا اليوم والتي كانت بين أيدي صاحب "المنار" خالية من هذه الخرافات التي اعتمدها المفسرون المسلمون الأوائل. والطريف في الأمر أن المفسرين المعاصرين للقرآن يقبلون بهذه الخرافات الإسرائيلية الفاضحة ويتهمون التوراة بالتحريف مع أنها جاءت خلوا من هذه الخرافات. ومن ذلك مثلا أن الشيخ الدكتور محمد السيد حسين الذهبي يأخذ على صاحب "المنار" احتكامه للتوراة فيعلق بقوله: "ولست أرى وجها للمقارنة بين ما ذكره المفسرون ، وما نقله عن التوراة ، فالتوراة دخلها التحريف والتبديل ، فالاحتكام إليها غير صحيح ، ثم لم يهوّن الشيخ من مبالغات التوراة ، وما فيها قريب مما كتب في التفسير ؟ الحق أن هذا مسلك ما كان للشيخ - رحمه الله - أن يسلكه" (٥٥).
غريب أمر الشيخ الذهبي وأمثاله ... فهو يرى أن صاحب "المنار" يهون من مبالغات التوراة ، ويرى أن ما فيها قريب مما كتب في التفسير ؟ !!! فهل أن قول المستطلعين الذين أوفدهم موسى إلى أرض كنعان "فصرنا في عيوننا كالجراد" مبالغة إلى حد الخرافة؟ ...أو لا يقول المسلم في حياته العامة لقد صغرت في عيني كما صغرت في عيون الناس. وهل هذه الكناية قريبة من الخرافات التي وردت في تفسير القرآن كقوله "رآهم أحد الجبارين فوضعهم كلهم في كسائه" وكذلك قوله: "أن سبعين رجلا استظلوا في خف رجل من هؤلاء العماليق" ؟ !!! أبمثل هذا العقل والتفكير حكمنا على التوراة بأنها محرفة ؟! إن الذهبي يصر على اعتماد الخرافات الاسرائيلية في التفسير حتى لا يقال ان التوراة صالحة كمقياس.
وبينما يدعو الشيخ محمد رشيد رضا صاحب "المنار" إلى تحكيم العقل فيقول: "زمن أراد الاسرائيليات فليرجع الى المتفق عليه عند أهل الكتاب ليعلم الفرق بين ما عندنا وما عندهم (٥٦) ، وبينما يقول أيضا: "إذا علمت هذا فلا يغرّك شيء مما يروى في التفسير المأثور في تفصيل هذه القصة ، فأكثره لا يصح، وهو أيضا مأخوذ من تلك الاسرائيليات المأخوذة عن زنادقة اليهود ، الذين دخلوا في الاسلام لكيد له ، وكذلك الذين لم يدخلوا فيه" (٥٧). بينما صاحب "المنار" يقول ذلك منصفا ومنبها نجد الذهبي يقول: "ومالنا ولكون التوراة معتمدة عند أهل الكتاب ؟ المهم أن تكون عندنا حتى تكون حجة على ما سواها من المذكور في التفسير، وذلك لا يقول به مسلم فكيف إذا تصح المقارنة ؟! (٥٨).
ونحن نقول بدورنا: إن بمثل هذا التعصب لا يمكن لعقل الذهبي بل لعقل أي مسلم أن يتبين الحقيقة، ولا أعتقد أن أحدا يخطّئنا القول بذلك!!
وأخذ "الذهبي" على صاحب "المنار" أنّ الأخير يقول عن تفسير الآية ١٩٢ من سورة الأعراف ما يلي :

"ولا ثقة لنا في شيء مما روى في هذا التبديل من ألفاظ عبرانية ولا عربية، فكله من الإسرائيليات الوضيعة ـ كما قال الأستاذ الإمام هنالك (٥٩)- وان خرج بعضه في الصحيح والسنن موقوفا ومرفوعا ، كحديث أبي هريرة المرفوع في الصحيحين وغيرهما :قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سجّدا وقولوا حطّه ، فدخلوا يزحفون على أستاهم وقالوا: حطة ، حية في شعرة ، وفي رواية: في شعيرة ـ رواه البخاري في تفسير السورتين (٦٠) من طريق همام بن منبه أخي وهب ، وهما صاحبا الغرائب في الإسرائيليات ، ولم يصرح أبو هريرة بسماع هذا من النبي صلى الله عليه وسلم ، فيتحمل أنه سمعه من كعب الأحبار ، إذ ثبت أنه روي عنه" (٦١).

وصاحب "المنار" هنا يورد حديثا في صحيح البخاري. وهو يعتمد أسفار التوراة وينكر المفسرين الذين حشوا تفاسيرهم بالإسرائيليات. لأن الإسرائيليات ليست من التوراة بل من وضع زنادقة يهود ـ كما يقول ـ وقد سرت منهم إلى المسلمين وهي خرافات ومفتريات صدقهم فيها الرواة ، بمن فيهم بعض صحابة نبي الإسلام عليه السلام.

ولصاحب "المنار" العلامة الشيخ محمد رشيد رضا رأي في كعب الأحبار الذي يحيطه المسلمون على مدى عصورهم بهالة من القداسة ، فعند تفسيره للآية ١٨٧ من سورة الأعراف (يسألونك عن الساعة أيّان مرساها) يتناول الشيخ رضا مشكلة الروايات الواردة في شأن الآجال ، وذكر منها رواية عن كعب الأحبار وناقشها ، وانتهى منها بحكمه السديد على كعب فقال: "إن يد بطل الإسرائيليات الأكبر كعب الأحبار. قد لعبت لعبها في مسألة الدجال (في كل واد أثر من ثعلبة)" (٦٢).

وهو ـ أي صاحب "المنار" ـ يأتي برواية أخرى عن كعب الأحبار في شأن الدجال فيقول: "بمثل هذه الخرافات كان كعب الأحبار يغش المسلمين ، ليفسد عليهم دينهم وسنتهم ، ويخدع به الناس لإظهاره التقوى ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم" (٦٣).

ويلتفت صاحب "المنار" أيضا إلى دور "وهب بن منبه" الذي ترك اليهودية إلى الإسلام ، أو تظاهر في ذلك ، ففي تفسيره للآية القائلة: "فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين" (٦٤) يقول العلامة الشيخ محمد رشيد رضا: "وفي التفسير المأثور روايات في صفة الثعبان الذي تحولت إليه عصا موسى عليه السلام ، وفي تأثيره لدى فرعون ، ما هي إلا من الإسرائيليات التي لا يصح لها سند ولا يوثق بشيء منها (٦٥).

ويضرب مثلا رواية وهب بن منبه: "إن العصا لما صارت ثعبانا حملت على الناس فانهزموا منها ، فمات منهم خمسة وعشرون ألفا ، قتل بعضهم بعضا ، وقام فرعون منهزما" (٦٦).

ويعلق عليها بالقول: "وقد اقتصرت على هذه الرواية ، لأقول: إنني أرجح تضعيف عمرو ابن الفلاس لوهب على توثيق الجمهور له ، أنا أسوأ فيه ظنا ، على ما روي من كثرة عبادته ، ويغلب على ظني أنه كان له ضلع مع قومه الفرس الذين يكيدون للإسلام والعرب ، ويدسون لهم من باب الرواية ومن طريق التشيع، فقد ذكر الإمام أحمد: أن والده منبها فارسي أخرجه كسرى إلى اليمن فأسلم (من اليهودية) في زمن النبي صلى الله عليه وسلم. وأن ابنه وهبا كان يختلف من بعده إلى بلاده بعد فتحها، وههنا موضع الشبهه في الغرائب المروية عنه وهي كثيرة. مثله عندي كعب الأحبار الإسرائيلي ، كلاهما كان تابعيا كثير الرواية للغرائب التي لا يعرف لها أصل معقول ولا

منقول، وقومهما كانوا يكيدون للأمة الإسلامية العربية التي فتحت بلاد الفرس، وأجلت اليهود من الحجاز، فقاتل الخليفة الثاني (عمر بن الخطاب) فارسي مرسل من جمعية سرية لقومه ، وقتلة الخليفة الثالث كانوا مفتونين بدسائس عبد الله بن سبأ اليهودي والى جمعية السبأيين وجمعيات الفرس، ترجع جميع الفتن السياسية وأكاذيب الرواة في صدر الإسلام" (٦٧).
وإذا فالإسرائيليات لم يكم مصدرها "التوراة". إنما السؤال الذي يجدر طرحه هو: كيف تسربت هذه الإسرائيليات إلى تفسير القرآن ؟!
لقد كان علماء التفسير ، وبعضهم من الصحابة وفي صدر الإسلام يلجأون إلى اليهود لتفسير ما يستعصي عليهم فهمه من آيات القرآن ، وبذلك كان اليهود يجدونها فرصة سانحة لحشو عقول العلماء المسلمين بخرافات وسذاجات غريبة. فالألوسي مثلا ينقل عن تفسير البغوي خرافات اليهود.
فعند تفسيره للآية (١٢)من سورة المائدة "ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا اثني عشر نقيبا نرى البغوي يروي قصة غريبة عن عوج بن عنق وأن طوله كان ثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعا وثلثا ، وأنه كان يحتجز بالسحاب ويشرب منه ، ويتناول الحوت من قرار البحر فيشويه بعين الشمس، وأن ماء الطوفان طبق ما على الأرض من جبل وما جاوز ركبتي عوج، وأنه عاش ثلاثة آلاف سنة ، حتى أهلكه الله على يد موسى".
ثم يذكر كيفية هلاكه فيقول: "أنه جاء وقوّر صخرة الجبل على قدر عسكر موسى عليه السلام ـ وكان فرسخا في فرسخ ـ وحملها ليطبقها عليهم، فبعث الله تعالى الهدهد فقوّر الصخرة بمنقاره فوقعت في عنقه فصرعته ، فأقبل موسى عليه السلام وهو مصروع فقتله"........
ثم يذكر: "أن أم عوج ـ وهي عنق إحدى بنات آدم ـ كان مجلسها قريبا من الأرض ، وأن عوج بن عنق لقي بني إسرائيل ، الذين أمرهم الله أن يدخلوا الأرض المقدسه ـ وكان على رأسه حزمة من حطب ـ فأخذهم جميعا وجعلهم في حزمته ، وانطلق بهم إلى امرأته ، وقال لها: انظري إلى هؤلاء الذين يزعمون أنهم يريدون قتالنا ، وطرحهم بين يديها ، وقال: ألا أطحنهم برجلي ؟ فقالت له امرأته ، بل خلّ عنهم حتى يخبروا قومهم بما رأوا ففعل"(٦٨).
وفي فتاوى العلامة ابن حجر، قال العماد الحافظ ابن كثير: "قصة عوج وجميع ما يحكمون عنه هذيان لا أصل له ، وهو من مختلقات أهل الكتاب ، ولم يكن قط على عهد نوح عليه السلام ، ولم يسلم من الكفار أحد. وقال ابن القيّم: من الأمور التي يعرف بها كون الحديث موضوعا: أن يكون مما تقوم الشواهد الصحيحة على بطلانه ، كحديث عوج بن عنق ، وليس من العجيب من جرأة واضع هذا الحديث والكذب على الله تعالى ، إنما العجب ممن يدخل هذا الحديث في كتب العلم من التفسير وغيره ولا يبين أمره. ثم قال: لا ريب أن هذا وأمثاله من صنع زنادقة أهل الكتاب الذين قصدوا الإستهزاء والسخرية بالرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم" (٦٩).
"والخازن"، وهو علاء الدين أبو الحسن علي البغدادي الشافعي يعتمد هو نفسه على أحد من اليهود الذين أسلموا ، وذلك في تفسيره لكثير من آيات القرآن. وهذا اليهودي الذي أسلم أو تظاهر بالإسلام ليس غير وهب بن منبه الذي حذر منه صاحب "تفسير المنار" الشيخ محمد رشيد رضا. ففي تفسيره للآيتين: "وأيوب إذ نادى ربه أني مسّني الضر وأنت أرحم الراحمين. فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه و وأهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين " (٧٠) يروي الخازن عن

وهب بن منبه ما يمس العقيدة الإسلامية نفسها، إذ يقول: "قال وهب بن منبه كان أيوب رجلا من الروم ، وهو أيوب بن أموص ، بن تارح بن روح بن عيص بن اسحق بن إبراهيم. وكانت أمه من ولد لوط بن هاران ، وكان الله قد اصطفاه ونبأه وبسط له الدنيا ، وكانت له البثينة من أرض البلقاء من أعمال خوارزم مع أرض الشام كلها ، سهلها وجبلها ، وكان له فيها من أصناف المال كله ، من الإبل والبقر والغنم ، والخيل والحمير ، ما لا يكون لرجل أفضل منه في العدد والكثرة وكان له خمسمائة فدان ، يتبعها خمسمائة عبد ، لكل عبد امرأة وولد ومال ، ويحمل له آلة كل فدان أتان ، لكل أتان من الولد اثنان ، أو ثلاث ، أو أربع ، أو خمس وفوق ذلك ، وكان الله تعالى قد أعطاه أهلا وولدا من رجال ونساء ، وكان برّا تقيا ، رحيما بالمساكين ، يطعمهم ويكفل اليتامى والأرامل ، ويكرم الضيف ، ويبلّغ ابن السبيل ، وكان شاكرا لأنعم الله ، مؤديا لحق الله ، قد امتنع من عدو الله إبليس ، أن يصيب منه ما يصيب من أهل الغنى ، من العزة والغفلة والتشاغل عن أمر الله بما هو فيه من أمر الدنيا"

....

"وكان إبليس لا يحجب عن شيء من السموات ، وكان يقف فيهن حيثما أراد ، حتى رفع الله عيسى فحجب عن أربع ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم حجب عن السموات كلها ، إلا من استرق السمع. فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب ، وذلك حين ذكره الله وأثنى عليه ، فأدرك إبليس الحسد والبغض فصعد سريعا حتى وقف من السماء حيث كان يقف، وقال :الهي، نظرت في أمر عبدك أيوب فوجدته عبدا أنعمت عليه فشكرك ، وعافيته فحمدك ، ولو ابتليته بنزع ما أعطيته لحال عما هو عليه من شكرك وعبادتك ، ولخرج من طاعتك. قال الله تعالى: انطلق فقد سلطتك على ماله ، فانقض عدو الله حتى وقع على الأرض ، فجمع عفاريت الجن ومردة الشياطين وقال لهم: ماذا عندكم من القوة ؟ فقد سلطت على مال أيوب ، وهو المصيبة الفادحة ، والفتنة تأتى لا تصبر عليها الرجال".

وبعد أن يذكر أقوالا غريبة في إفناء أموال أيوب ، يضيف قوله: "فلما رأى إبليس أنه قد أفنى ماله ولم ينج عنه بشيء صعد سريعا حتى وقف الموقف الذي يقف فيه ، وسأل الله أن يسلطه على ولده، فقال الله له: "انطلق فقد سلطتك على ولده"

ويذكر بعد ذلك الكثير عن العذاب والهلاك الذي وقع بولده ، ثم يذكر أن إبليس جاء إلى أيوب بعد ذلك وقال له: "لو رأيت بنيك كيف عذبوا ، وكيف انقلبوا منكوسين على رؤوسهم ، تسيل دماؤهم وأدمغتهم ، ولو رأيت كيف شققت بطونهم فتناثرت أمعاؤهم لتقطع قلبك عليهم ، فبكى أيوب وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه وقال: ليت أمي لم تلدني ، ثم لم يلبث أن تاب إلى ربه فوقف إبليس خاسئا ذليلا ، وسأل الله أن يسلطه على جسد أيوب ، فقال له عز وجل: انطلق فقد سلطتك على جسده ، ولكن ليس لك سلطان على لسانه وقلبه وعقله. فانقض عدو الله إبليس سريعا فوجد أيوب ساجدا ، فعجل قبل أن يرفع رأسه ، فأتاه من قبل وجهه ، فنفخ في منخريه نفخه اشتعل منها جسده ، فخرج من قرنه إلى قدمه تآليل مثل اليات الغنم ، ووقعت فيه حكة ، فحك بأظافره حتى سقطت كلها ، ثم حكها بالمسرح الخشنة حتى قطعها ، ثم حكها بالفخار والحجارة الخشنة حتى قرح لحمه وتقطع وتغير وأنتن ، فأخرجه أهل القرية حتى جعلوه على كناسة لهم، وجعلوا له عريشة ، ورفضه خلق الله كلهم غير امراته".

ثم ذكر وهب بن منبه كلاما طويلا في حوار أيوب مع بعض خلصائه ، وفي تضرعه إلى الله ، كي يكشف عما به من بلاء وضرّ ، وما كان من كلام له وكشفه الضر عنه ، ثم نقل عن الحسن البصري: "أن أيوب مكث مطروحا على كناسة لبني إسرائيل سبع سنين واشهر يختلف فيه الدود ، ولا يقربه أحد غير رحمة (اسم زوجته) ثم إن صبر أيوب على بلائه أعيا إبليس ، فاستشار أعوانه ، فأشاروا عليه أن يأتيه من قبل زوجته ، فانطلق إبليس حتى أتى رحمة امرأة أيوب ، فتمثل لها في صورة رجل وقال لها: أين بعلك يا أمة الله ؟ قالت: هو ذاك يحك قروحه ويرد الديدان في جسده ، فأخذ يوسوس لها ويذكرها بجمال أيوب وشبابه وما هو فيه من الضر ، وأن ذلك لا ينقطع عنه أبدا ، فصرخت ، فعلم أنها جزعت ، فأتاها ساخطة وقال: ليذبح لي هذه أيوب ويبرأ ، فجاءت تصرخ: يا أيوب ، حتى متى يعذبك ربك ؟ أين المال ؟ أين الولد ؟ أين الصديق ؟ أين لونك الحسن ؟ أين جسمك الحسن ؟ اذبح هذه السخلة واسترح. فقال لها أيوب :أتاك عدو الله فنفخ فيك، ويلك ... ... والله لئن شفاني الله لأجلدنك مائة جلدة، أمرتني أن أذبح لغير الله ....وطردها..." (٧١).

والخازن ينتهي من هذه القصة ولا يعقب عليها بشيء. فهي من قصص القرآن وهكذا فسرها صحابي جليل هو: وهب بن منبه. أفلا يخطر ببال المسلم أنها إعادة قراءة للتوراة !

حتى ابن كثير ، نجده في تفسيره المعروف باسمه يستند إلى كثير من الروايات الإسرائيلية الغريبة ، مع أنه في أحيان كثيرة يحذر في تفسيره من الروايات الإسرائيلية ، فمثلا ، عند تفسيره للآية (٢٥٨) من سورة البقرة: "ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك" ... . نجده بعد أن يذكر بأن الذي حاجّ إبراهيم عليه السلام هو ملك بابل " نمرود بن كنهان ، أو نمرود بن فالخ يقول التالي: "وروي عن عبد الرزاق، عن معمر ، عن زيد بن اسلم: أن النمرود كان عنده طعام ، وكان الناس يفدون إليه للميرة ، فوفد إبراهيم في جملة من وفد للميرة ، فكان بينهما هذه المناظرة ، ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطى الناس، بل خرج وليس معه شيء من الطعام ، فلما قرب من أهله عمد إلى كثيب من التراب فملأ منه عدليه ، فقال: أشغل أهلي عني إذا قدمت إليهم ، فلما قدم وضع رحاله ، وجاء فاتكأ فنام ، فقامت امرأته سارة إلى العدلين فوجدتهما ملآنين طعاما طيبا ، فعملت طعاما ، فلما استيقظ إبراهيم وجد الذي قد أصلحوه ، فقال: أنّى لكم هذا ؟ قالت: من الذي جئت به ، فعلم أنه رزق رزقهم به الله عز وجل. قال زيد بن اسلم: وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكا يأمره بالإيمان بالله ، فأبى عليه ، ثم دعاه الثانية فأبى ، ثم الثالثة فأبى ، وقال: اجمع جموعك ، واجمع جموعي ، فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس ،فخرجت اليه البعوض، وسلطها الله عليهم ، فأكلت لحومهم ودماءهم ، وتركتهم عظاما بادية ، ودخلت واحدة منها في منخري الملك ، فمكثت في منخري الملك أربعمائة سنة عذبه الله بها ، فكان يضرب رأسه بالمرزاب في هذه المدة حتى أهلكه الله بها" (٧٢).

وابن كثير في القصة السابقة يذكر روايته عن عدد من الرواة لا تجد بينهم يهوديا واحدا أو مسلما كان يهوديا ....ومع ذلك فان القصة عن الإسرائيليات كما هو واضح ولكن ابن كثير مع ذلك لا يأنف أن يعتمد في تفسيره على روايات وهب بن منبه الصحابي الذي كان أبوه يهوديا فأسلما أو تظاهرا بالإسلام. ففي تفسيره للآية. "ألقاها فإذا هي حية تسعى نجده يذكر ما يلي :"وقال وهب بن منبه في قوله (فألقاها فإذا هي حية تسعى) قال: فألقاها على وجه الأرض ، ثم حانت منه نظرة ، فإذا بأعظم

ثعبان نظر إليه الناظرون ، يدب يلتمس ، كأنه يريد شيئا يريد أخذه ، يمر بالصخرة مثل الخلفة من الإبل فيلتقمها ، ويطعن بالناب من أنيابه في أصل الشجرة العظيمة فيجتثها، عيناه تتقدان نارا ، وقد عاد المحجن منه عرفا ، قيل: شعره مثل النيازك ، وعاد الشعبتان غما مثل القليب الواسع ، فيه أضراس وأنياب لها صريف ، فلما عاين ذلك موسى ، ولّى مدبرا ولم يعقّب ، فذهب حتى أمعن ، ورأى أنه قد أعجز الحية ، ثم ذكر ربه فتوقف استحياءا منه ، ثم نودي: يا موسى إن أرجع حيث كنت ، فرجع موسى وهو شديد الخوف ، فقال: (خذها بيمينك ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى) وعلى موسى حينئذ مدرعة من صوف ..فلما أمره بأخذها لف طرف المدرّعة على يده، فقال له الملك :

أرأيت يا موسى لو أذن الله بما تحاذر ، أكانت المدرعة تغني عنك شيئا ؟ قال: "لا، ولكني ضعيف ، ومن ضعف خلقت ، فكشف عن يده ، ثم وضعها على فم الحية حتى سمع حس الأضراس والأنياب ، ثم قبض فإذا هي عصاه التي عهدها ، وإذا يده في موضعها الذي كان يضعها إذا توكأ بين الشعبتين ، ولهذا قال تعالى: (سنعيدها سيرتها الأولى) أي إلى حالها التي تعرف قبل ذلك" (٧٣).

وفي تفسير محمد بن جرير الطبري المسمى "جامع البيان في تفسير القرآن" نجد أمثلة أكثر من أن تحصى على خرافات يهودية. ومن الأسانيد التي تلفت النظر ، ذلك الذي يسوقه عند تفسيره للآية (٩٤) من سورة الكهف:: "قالوا ياذا القرنين إن يأجوج وماجوج مفسدون في الأرض" .... قال: حدثنا ابن حميد، قال :حدثنا سلمة، قال: حدثنا محمد ابن اسحق قال: حدثني بعض من يسوق أحاديث الأعاجم من أهل الكتاب ممن قد أسلم مما توارثوا من علم ذي القرنين: إن ذا القرنين كان رجلا من أهل مصر ، اسمه: مرزبا ابن مردبة اليوناني من ولد يونان بن يافث بن نوح" (٧٤).

ومثل هذا الإسناد يدلنا أن ابن جرير الطبري كان يهتم بأن يكون مصدره في رواية الإسرائيليات من له بها علم ومعرفة. فهو ينبه على أن الذي ينسب إليه ما يروي رجل من أهل الكتاب الذين يسوقون أحاديث الأعاجم ، وهو يروي في تفسيره غرائب كثيرة ثم لا يتعقبها بنقد مكتفيا بذكر أسانيدها. فذو القرنين ثبت عنده أنه من أهل مصر مع أنه الاسكندر المقدوني، واكثر من ذلك انه يروي من الخرافات ما يمس العقيدة ومن تفسيره في ذلك ما يحطم من نبوة سليمان. وورد ذلك في تفسيره للآية (٣٤) من سورة "ص" : "ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب "فقال: "حدثنا قتادة: إن سليمان أمر ببناء بيت المقدس ، فقيل له: إبنه ولا يسمع فيه صوت حديد ، قال: فطلب ذلك فلم يقدر عليه ، فقيل له: إن شيطانا في البحر يقال له صخر المارد ، قال: فطلبه ، وكانت عين البحر يردها في كل سبعة أيام مرة ، فتبدل ماؤها ، وجعل فيها خمر ، فجاء يوم وروده ، فإذا هو بالخمر فقال :انك لشراب طيب ، إلا انك تصيبين الحليم ، وتزيدين الجاهل جهلا ، قال: ثم رجع حتى عطش جهلا، قال ثم شربها حتى غلبت على عقله ، قال: فأري الخاتم ، أو ختم به بين كفيه فذل ، قال: فكان ملكه في خاتمه ، فأتى به سليمان فقال: أنا أمرنا ببناء هذا البيت ، وقيل لنا: لا يسمعن فيه صوت حديد قال: فأتى ببعض الهدهد فجعل عليه زجاجة، فجاء الهدهد فدار حولها ، يرى بيضه ولا يقدر عليه ، فجاء بالماس فوضعه عليه ، فقطعها به حتى أفضى إلى بيضه ، فأخذ الماس فجعلوا يقطعون به الحجارة ، فكان سليمان إذا أراد أن يدخل الخلاء أو الحمام لم يدخله بخاتمه ، فانطلق يوما إلى الحمام وذلك الشيطان صخر معه ، وذلك عند مقارفة ذنب قارف فيه بعض نسائه ، قال :فدخل

الحمام وأعطى الشيطان خاتمه ، فألقاه في البحر فالتقمته سمكة ، ونزع ملك سليمان منه ، فألقى على الشيطان شبه سليمان ، قال: فقعد على كرسيه وسريره ، وسلّط على ملك سليمان كله غير نسائه ، قال: فجعل يقضي بينهم، وجعلوا ينكرون منه أشياء حتى قالوا: لقد فتن نبي الله ، وكان فيهم رجل يشبهونه بعمر بن الخطاب في القوة فقال: والله لأجربنه ، قال: فقال له: يا نبي الله ـ وهو لا يرى إلا أنه نبي الله ـ أحدنا تصيبه الجنابة في الليلة الباردة ، فيدع الغسل عمدا حتى تطلع الشمس ، فاقبل فجعل لا يستقبله فبينما هو كذلك أربعين ليلة حتى وجد نبي الله خاتمة في بطن سمكة ، فاقبل فجعل لا يستقبله جني إلا سجد له ، حتى انتهى إليهم (وألقينا على على كرسيه جسدا) قال: هو الشيطان صخر" (٧٥).

شبه سليمان ألقي على شيطان ، وسبق أن ألقوا في تفاسيرهم شبه يسوع على يهوذا. والله يمكّن شيطانا من التسلط على ملك نبيه ، وهناك نظير لعمر بن الخطاب يجرب الشيطان صخر فيسأله عن الجنابة في الليلة الباردة. ومعروف أن عمرا كان يرفث إلى زوجته أيام رمضان حتى وردت في القرآن آية تحلل ذلك :

"أحلّ لكم الرفث إلى نسائكم" .... وكل القصة التي رواها الطبري من أجل تفسير آية من أربع كلمات: "وألقينا على كرسيه جسدا" !!!

ولقد روى البخاري عن نبي الإسلام ما يمكن أن تحمله الآية من معنى من غير أن نقول زورا أو نرتكب محظورا ؟ فروى بسنده إلى أبي هريرة) ولننتبه هنا إلى ما يقوله أبو هريرة (قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال سليمان بن داود عليه السلام: لأطوفنّ الليلة على مائة امرأة أو تسع وتسعين ، كلهن يأتين بفارس مجاهد في سبيل الله ، فقال له صاحبه: قل إن شاء الله ، فلم يحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل ، والذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانا أجمعون" (٧٦).

وهنا نجد حتى البخاري يترك لأبي هريرة (رضي الله عنه) (أن يزري بالأنبياء ويسخر منهم.

ومن هذا القبيل الذي يشكك في نبوة الأنبياء ما رواه ابن جرير لتفسير الآية (٨) من سورة مريم: (قال ربّ أنّي يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا) قال: "حدثني موسى بن هارون قال: حدثنا عمرو، قال :حدثنا أسباط عن السدي قال: نادى جبرائيل زكريا: إن الله يبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميّا ، فلما سمع النداء جاء الشيطان ، فقال: يا زكريا إن الصوت الذي سمعت ليس من الله ، إنما هو من الشيطان يسخر بك ، ولو كان من الله أوحاه إليك كما يوحي إليك غيره من الأمر ، فشك وقال: أنى يكون لي غلام" (٧٧).

الدكتور محمد السيد حسين الذهبي يستدرك على ابن جرير فيقول: "ليس بخفي أن ما ذكره السدي باطل لا أصل له ، لأنه لا يجوز على نبي ـ مطلقا ـ أن يشك فيما يوحى به إليه ، وآلا لذهبت الثقة فيه وفيما يدعيه وحيا" (٧٨).

والذهبي لا يلفته في الرواية سخفها بل يخترع قاعدة تفيد بأنه لا يجوز لنبي أن يشك في ما يوحى به إليه .ألم يسأل الله إبراهيم الخليل ـ بحسب القرآن _ : "أو لم تؤمن .قال بلى ولكن ليطمئن قلبي" ؟!!!!

ولقد امتد تأثير الإسرائيليات إلى أتباع التابعين من الصحابة ، فها هو محمد بن السائب الكلبي قد اشتغل بالتفسير ، وكانت له معرفة بالأنساب والأخبار ، ومن أجل كونه أخباريا كثرت رواياته

الإسرائيلية في التفسير والحديث، ولعل سبب إكثاره منها أنه يهودي النزعة فهو من أتباع عبد الله بن سبأ اليهودي. قال ابن حبان: "كان الكلبي سبئيا من أولئك الذين يقولون: إن عليا لم يمت ، وأنه راجع إلى الدنيا ويملأها عدلا كما ملئت جورا ، وان رأوا سحابة قالوا: أمير المؤمنين فيها" (٧٩).
وعن ابن عوانة قال: "سمعت الكلبي يقول: كان جبرائيل يملي الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم، فلما دخل النبي صلى الله عليه وسلم الخلاء جعل يملي على علي" (٨٠).
والواقع أن الخرافات اليهودية التي تسربت إلى الإسلام يمكن عزوها إلى عدد من أحبار اليهود وعلمائهم ممن أسلموا أو تظاهروا بالإسلام. واشهر هؤلاء: كعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، وأخوه نبهان ، وعبد الله بن سلام ، وعبد الله بن سبأ ، إضافة إلى أبي هريرة الذي جاء إسلامه متأخرا ، وهؤلاء خاصة كانوا ينسبون إلى التوراة ما ليس فيها.
وهذا "أبورية" وهو أحد فقهاء المسلمين يقول عن كعب الأحبار "أنه أظهر الإسلام خداعا ، وطوى قلبه على يهوديته ، وأنه سلط قوة دهائه على سذاجة أبي هريرة لكي يستحوذ عليه ويلقنه كل ما يريد أن يبثه في العقيدة الإسلامية من الخرافات والأوهام ، وأنه طوى أبا هريرة تحت جناحه حتى جعله يردد كلامه بالنص ويجعله حديثا مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم" (٨١). وكان كعب الأحبار قد أسلم في عهد خلافة عمر بن الخطاب ، وسكن المدينة، وصحب عمرا وروى عنه (٨٢).
ونتوقف عند نقطة أساسية في سلوك كعب الأحبار فهو لم يشارك في قتال المرتدين في الجزيرة العربية إنما كان متحمسا لقتال الروم وقد شارك في غزواتهم في خلافة عمر. ومن المعروف أن أحبار اليهود في الجزيرة العربية كانوا يكنون حقدا تاريخيا على الروم ، وكانوا يجترونه كل يوم ، ولأسباب طرحناها في مطلع هذا البحث. أما الذين دافعوا عن كعب فكانت حجتهم أنه صديق عمر ، ولا يعقل لعمر أن يصادق ويساكن كعبا في المدينة ويشركه في جيش المسلمين لغزو الروم وهو مخدوع فيه وفي إسلامه!!! وكانت حجتهم أيضا أنه ثقة لما ثبت من رواية أعلام الصحابة عنه كأبي هريرة، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، وقد أخرج له في صحيحه مسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، ويعتبر الدكتور "محمد السيد حسين الذهبي" أن روايات كل "الأعلام" الذين ذكرنا أسماءهم عنه "شهادة كافية لرد كل تهمة تلصق بهذا الحبر الجليل" (٨٣).
ولكن "ابن كثير" وهو علامة ثقة عند الدكتور الذهبي ، كان يروي أن عمر بن الخطاب نهى كعب الأحبار عن التحديث ، وقال له: "ولتتركن الحديث عن الأول أو لألحقنك بأرض القردة" (٨٤).
ولقد هدد عمر أبا هريرة بمثل ما هدد به كعب الأحبار فقال له: "لتتركن الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو لألحقنك بأرض دوس" (٨٥).
وإن عالما مسلما جليلا من مصر هو محمد أمين يلاحظ ما لاحظه الكثيرون أن بعض "الثقات" كابن قتيبة والنووي لا يروي عنه أبدا ، وان ابن جرير الطبري يروي عنه قليلا. "ولكن الثعلبي والكسائي ينقل عنه كثيرا في قصص الأنبياء كقصة يوسف" ....
ولكن الدكتور الذهبي - رحمه الله - ينسى أن ابن جرير الطبري روى عنه فيما رواه أنه (أي كعب الأحبار) جاء إلى عمر بن الخطاب قبل مقتله بثلاثة أيام وقال له" :اعهد فانك ميت في ثلاثة أيام .قال (عمر): وما يدريك؟ قال: أجده في كتاب الله عز وجل في التوراة. قال عمر: انك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة ؟ قال: اللهم لا، ولكن أجد صفتك وحليتك وأنه قد فني أجلك" (٨٦).

ويعلق الأستاذ أحمد أمين على ذلك بالقول: "وهذه القصة إن صحت دلت على وقوف كعب على مكيدة قتل عمر ، ثم وضعها هو في هذه الصيغة الإسرائيلية ، كما تدلنا على مقدار اختلافه في ما ينقل "ثم يضيف: "وعلى الجملة، فقد دخل على المسلمين من هؤلاء وأمثالهم - يريد كعبا ووهبا وابن سلام وغيرهم - في عقيدتهم وعلمهم كثير كان له أثر غير صالح" (٨٧).

ولقد رأينا كذلك الشيخ محمد رشيد رضا ، صاحب "تفسير المنار" يقطع بكذب كعب الأحبار وبأن علماء الجرح والتعديل اغترّوا به وبوهب بن منبه وعدلوهما حيث يقول في مقدمة تفسيره بعد أن ذكر كلاما لابن تيمية ما نصه :

"فأنت ترى أن هذا الإمام المحقق - يريد ابن تيمية - جزم بالوقف عن تصديق جميع ما عرف أنه من رواة الإسرائيليات ، وهذا في غير ما يقوم الدليل على بطلانه في نفسه ، وصرح في هذا المقام بروايات كعب ووهب بن منبه ، مع أن قدماء رجال الجرح والتعديل اغتروا بهما وعدلوهما ، فكيف لو تبين له (لابن تيمية) ما تبين لنا من كذب كعب ووهب وعزوهما إلى التوراة وغيرها من كتب الرسل ما ليس فيها شيء منه ولا حومت حوله" (٨٨).

الأطرف من ذلك كله أن الشيخ الدكتور الذهبي رحمه الله يتسائل :"فمعاوية - رحمه الله - قد شهد لكعب بالعلم وغزارته وحكم على نفسه بأنه فرط في علم كعب ، فهل يعقل أن معاوية يشهد هذه الشهادة لرجل كذاب؟" (٨٩).

الشيخ الدكتور الذهبي يأخذ بشهادة معاوية لكعب الأحبار.........!! ولا أدري كيف - رحمه الله - يرتضي لعلمه أن يأخذ برأي لمعاوية مع أن معاوية أراد دفن ذكر محمد نبي العرب عليه السلام ؟..

لقد روى الزبير بن بكار عن مطوف بن المغيرة بن شعبة الثقفي قال :دخلت مع أبي على معاوية فكان أبي يأتيه يتحدث عنده ثم ينصرف ألي فيذكر معاوية وعقله ويعجب مما يرى منه ، إذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء فرأيته مغتما فانتظرته ساعة وظننت أنه لشيء حدث فينا أو في عملنا فقلت له :ما لي أراك مغتما منذ الليلة؟"

"قال: يا بني ، إني جئت من عند أخبث الناس ، قلت له وما ذاك ، قال: قلت لمعاوية وقد خلوت به: انك قد بلغت مناك يا أمير المؤمنين ، فلو أظهرت عدلا ، وبسطت خيرا ، فانك قد كبرت ، ولو نظرت إلى إخوتك من بني هاشم فوصلت أرحامهم فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه. وان ذلك مما يبقى لك ذكره وثوابه. فقال لي: هيهات هيهات !أي ذكر أرجو بقاءه! ملك أخو تيم فعدل وفعل ما فعل ، فما غدا أن هلك فهلك ذكره ، إلا أن يقول قائل: أبو بكر ، ثم ملك أخو عدي فاجتهد وشمّر عشر سنين فوالله ما غدا أن هلك فهلك ذكره، إلا أن يقول قائل: عمر ، ثم ملك أخونا عثمان ، فملك رجل لم يكن أحد في مثل نسبه فعمل ما عمل وعمل به ، فوالله ما غدا أن هلك فهلك ذكره وذكر ما فعل به ، وان أخا هاشم يصرخ به في كل يوم خمس مرات :أشهد أن محمدا رسول الله. فأي عمل وأي ذكر يبقى مع هذا لا أم لك ؟ .. والله إلا دفنا دفنا" (٩٠). فإذا كان معاوية يريد على هذا المنوال دفن ذكر نبي الإسلام ، فكيف يرتضي الشيخ الدكتور الذهبي أن يرجع إلى رأيه في كعب الأحبار ؟!!.

وحتى ابن عباس وهو محل ثقة جميع الفقهاء فيما يسند إليه كان يرجع إلى رجل يسمى أبا الجلد غيلان بن فروة الأزدي (وهو من أصل يهودي) وقد أثنى الناس عليه بأنه كان يقرأ الكتب. وعن

ميمونة ابنته أنها قالت: كان أبي يقرأ القرآن في كل سبعة أيام ويختم التوراة في ستة، يقرأها نظرا ، فإذا كان يوم ختمها حشد لذلك ناس ، وكان يقول: كان يقال: تتنزل عند ختمها الرحمة. وهذا الخبر المبالغ فيه من ابنته يبين لنا مكانة الأب في الاستفادة من التوراة.

ومن بين المراجع المفضلة عند ابن عباس نجد أيضا كعب الأحبار وعبد الله بن سلام وأهل الكتاب على العموم ممن حذر الناس منهم حتى أن أحمد أمين يقول في هذا الشأن: "وقد دخل بعض هؤلاء اليهود في الإسلام فتسرب منهم إلى المسلمين كثير من هذه الأخبار ودخلت في تفسير القرآن يستكملون بها الشرح. ولم يتحرج حتى كبار الصحابة مثل ابن عباس عن أخذ قولهم .وروي أن نبي المسلمين قال: (إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم) ، ولكن العمل كان على غير ذلك وأنهم كانوا يصدقون وينقلون عنهم" (٩١). وابن عباس هذا هو من دعا له نبي العرب عليه السلام بقوله :"اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل" (٩٢). بل إن عليا بن أبي طالب أثنى على شفافيته في التفسير بقوله: "كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق" (٩٣).

نعم إن أحبار اليهود اتبعوا بدهائهم العجيب طرقا غريبة لكي يستحوذوا على عقول المسلمين - كما يقول أبورية -.

وحتى عبد الله بن عمرو خدعته الخرافات الإسرائيلية وأباطيلها ، فما يضعه أحبار اليهود كان عبد الله بن سلام يصوغه في قالب لفظي لا يثير ارتيابا ثم يحكمه الداهية كعب الأحبار في صياغة أخرى لا تخالف الأولى ، لكي يستحوذ على عقول المسلمين ، وكانت الفريسة التي يستهويها حديثه هو عبد الله بن عمرو بن العاص.

وكان عمرو بن العاص قد أصاب يوم اليرموك زاملتين قيل أنهما من التوراة وأغلب الظن انهما دستا من قبل بعض اليهود الذين تظاهروا بالإسلام. ويبدو أن عبد الله بن عمرو - برغم ما روى عن تقواه وحرصه - قد وقع في شرك الزاملتين ، فكان يحدث منهما. وقد اندفع أبورية للتأكيد بأن "حديث البشارة بالنبي - عليه السلام - وذكر أوصافه في التوراة خرافة إسرائيلية سرت إلى عبد الله عمرو بن العاص عن طريق أستاذه كعب الأحبار" (٩٤). ومن عبد الله بن عمرو بن العاص ، سرت هذه الحكاية إلى صحيح البخاري برواية عطاء بن ياسر ، قال: "لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة ، قال: أجل، والله انه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبي أنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا سخّاب في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، لن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا لا إله إلا الله ، ويفتح به أعينا عمينا وآذانا صما وقلوبا غلفا" (٩٦).

تلك هي بإيجاز مواطن تأثر الإسلام بعقيدة اليهودية ، وقد عرضناها على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر. وإنما لا بد قبل الإنتقال إلى البحث الثاني من الإشارة ولو بقليل إلى منشأ العداء القائم بين الإسلام واليهود. فلقد كانت الأسباب الرئيسية الباعثة على هذا العداء أسبابا اقتصادية. إنما الخلافات الدينية كانت على الدوام سببا في زيادة المنافسات الاقتصادية وستارا لها. لقد دعم اليهود المسلمين الأوائل في صدر الإسلام ظنا منهم أنهم يستطيعون بواسطته مواجهة الخطر المسيحي المتمثل في الدولة البيزنطية. ولكن ما أن قويت شوكة المسلمين قليلا حتى أغضبهم من اليهود عدم

أيمانهم بالرسالة المحمدية وانقلبوا عليهم، وكان لا بد لليهود الذين وقعوا بين نار الدولة المسيحية ونار الدولة الإسلامية الفتية أن يفتشوا عن دور آخر من خلال الإسلام نفسه ، فتظاهر بعض أحبارهم بالإسلام واستطاعوا تسريب كثير من الخرافات إلى الإسلام عن طريق التفسير والحديث بعدما كانوا نجحوا في تشتيت المسيحية إلى بدع. وأكثر ما كان يؤلمهم أنهم فشلوا في سحب اعتراف الرسالة المحمدية بالمجيء الأول للمسيح.

ويقينا لن تكتمل الصورة إلا إذا دخلت في تفاصيلها عوامل تأثير البدع النصرانية، والظروف المسيحية عموما في أبان ظهور ونشأة الإسلام وهذا ما سنتناوله في بحث مقبل.

إنما رأيت أن استبق ذلك ببحث أتناول فيه ما دخل من العهد القديم (ولا سيما أسفار الشريعة الأولى) في الأحاديث المنسوبة إلى نبي الإسلام ، وهي الأحاديث التي وردت في مجامع المحدثين ، كصحيحي البخاري ومسلم ، وفي مجامع النسائي ، والقزويني ، والترمذي ، وقد جمعها السيوطي أساسا في كتابيه :"كنوز الحقائق" و "الجامع الصغير"، فاعتمدناه، كما اعتمدنا "شرح المفاوي" له:



الأسفار الحكمية والحديث

لقد شاع حتى في زماننا الحالي أن أسفار العهدين ، القديم والحديث ، لم تكن معربة أبان ظهور الإسلام ، وذلك خطأ بات موروثا. وصحيح أننا لا ندري ماذا جرى لتلك التعريبات القديمة، إنما نجد -دليل ذلك واضحا- في ما تسرب من هذه الأسفار ، ولا سيما الحكمية منها إلى الأحاديث المنسوبة إلى نبي الإسلام ، وكذلك إلى الأمثال المنسوبة إلى علي بن أبي طالب.

وسأبدأ بتقديم مقارنات لإثبات ذلك، وستكون المقارنات على سبيل المثال، وليس الحصر.

١. **الحديث في سفر التكوين**

- خلق آدم على صورته .على صورة الله خلقه (تك ٣٧:١)
- **الحديث: خلق الله آدم على صورته (الجامع الصغير - ص ٣٠٤)**
- إن الله جعل الإنسان ترابا من الأرض (تك ٢:٧)
- **الحديث: خلق الله آدم من تراب (الجامع الصغير - ص ٧٣)**
- غرس الرب الإله جنة في عدن(تك ٢ :٨)
- **الحديث: إن الله بنى جنات عدن بيده (الجامع الصغير - ص ٣٣)**
- رأى الله أن جميع ما صنعه هو حسن جدا (تك ١ :٣١)
- **الحديث: كل خلق الله حسن (الجامع الصغير - ص ١١٣)**

٢. **الحديث في سفر الخروج**

- أكرم أباك وأمك لكي يطول عمرك في الأرض (حر ١٠:٢٠)
- **الحديث: من برّ والديه طوبى له زاد الله في عمره (الجامع الصغير- ١٥٠)**
- من ضرب أباه وأمه فليقتل قتلا (خروج ٢١ - ١٥)
- **الحديث: من ضرب والديه فاقتلوه (الجامع الصغير - ص ١٥٤)**

٣. **الحديث في سفر الأحبار**

- لا تبت أجرة الأجير عندك إلى الغد (اح ١٩:١٣) وكذلك مثله في
- **الحديث: أعطوا الأجير أجرته قبل أن يجف عرقه (الجامع الصغير**

٦١ ومن تفسير المناوي ١٩) وكذلك قوله "أوفوا الأجير أجره في المصدر نفسه".

- إن عشي رجل بهيمة فليقتل قتلا، والبهيمة أيضا فاقتلوها (اح 15:20)
- **الحديث: من أتى بهيمة فاقتلوه، واقتلوها معه (الجامع الصغير ص ١٤٦)**

٤. **الحديث في "تثنية الاشتراع"**

- إن الرب هو الإله ليس اله سواه (تث ٤-٣٥) ومثله الملوك الثالث

(61:8)

- **الحديث: لا اله إلا الله هي الموجبة(الجامع الصغير- ص ١٨٠)**
- ملعون من يضلّ أعمى عن الطريق (تث ٢٧ :١٨)
- **الحديث: لعن الله من أكمه الأعمى عم السبيل (الجامع الصغير- ص ١٣٠)**
- ملعون المستخف بأبيه و أمه (تث ٢٧ :١٦)
- **الحديث: ملعون من سبّ أباه .ملعون من سبّ أمّه (المناوي - ص ٤٠٤)**

٥. **الحديث في سفر يشوع**

- قال يشوع :يا شمس قفي .... وقفت الشمس إلى أن انتقم الشعب من أعدائهم (بش ١٠: ١٢-١٣)
- **الحديث :ما حبست الشمس على البشر قط الاّ على يشوع بن نون (المناوي ص ٣٨٩)**

٦. **الحديث في سفر الملوك**

- إن الإنسان إنما ينظر إلى العينين. وأما الرب فانه ينظر إلى القلب مل (١٦ :٧)
- **الحديث: إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم (الجامع الصغير - ص ٩٧)**

٧. **الحديث في "أخبار اليوم"**

- أنت وحدك تعرف قلوب بني البشر (أخ ٦ :٣٠)
- **الحديث: علم الباطن سرّ من أسراره عز وجل وحكم من أحكامه (المناوي ٣٧٩)**
- إنك تزكي البارّ وتعطيه بحسب برّه(أخ ٦ :٢٣)
- **الحديث: إن الله يعطي و لا يضيع أجر المحسنين (البخاري ج ٣ ص ١٩٠)**

8. **الحديث في" طوبيا"**

- الصدقة تنجي من كل خطيئة (طب ٤ :١١)
- **الحديث: الزكاة طهور من الذنوب (الجامع الصغير - ص ٨٣)**
- الذين يعملون المعصية والإثم هم أعداء لأنفسهم (طب ١٢ :١٠)
- **الحديث: إنما المجنون المقيم على معصيةالله المناوي - ص ٤٥)**

٩. **الحديث في سفر أيوب**

- الذين يحرثون الإثم ويزرعون المشقة هم يحصدونها (أيوب ٤ :٨) ومثله في (سفر الأمثال ٢٢ :٨)و (أرميا ١٢ :١٣)
- **الحديث: قال داود يا زارع السيئات أنت تحصد شوكها وحسكها**
- المنافق لا يقوم أمام الله (أيوب ١٣ :١٦)

- **الحديث: ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها (في البخاري ومسلم)**

١٠. الحديث في المزامير

- جانب الشر واصنع الخير (مز ٣٣: ١٥ و ٣٦: ٣٧)
- **الحديث: ائت المعروف واجتنب المنكر (في الجامع الصغير)**
- تلذذ بالرب فيعطيك سؤل قلبك (مز ٣٦: ٤)
- **الحديث: اذكر الله فانه عون لك على ما تطلب (الجامع الصغير - ص ٤٨ و المناوي ص ٤)**
- إن كنت للآثام راصدا يا رب فمن يقف (مز ١٢٩: ٣)
- **الحديث :من نوقش المحاسبة هلك (الجامع الصغير - ص ١٦١)**
- إن يوما في ديارك خير لي من ألف (مز ٨٣: ١١)
- **الحديث: رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم في ما سواه (الجامع الصغير - ص ٣٣٧)**
- رأس الحكمة مخافة الرب (مز ١١٠: ١٠) وكذلك في (الأمثال ٩: ١٠) وفي
- (ابن سيراخ)
- **الحديث: رأس الحكمة مخافة الله (المسعودي ٤: ١٦٨)**
- يا رب من يحل في مسكنك ، الساكن بلا عيب وفاعل البرّ والمتكلم بالحق في قلبه والذي لا يغتاب بلسانه (مز ١٤: ١-٣)

- **الحديث: قد أفلح من أخلص قلبه الإيمان وجعل قلبه سليما ولسانه صادقا ونفسه مطمئنة (الجامع الصغير - ص ٣١١)**
- الرب رؤوف كثير الرحمة ، لا على حسب خطايانا عاملنا ولا على حسب آثامن كافأنا (مز ١٠٢: ٩-١٠)
- **الحديث :عفو الله أكبر من ذنوبكم (الجامع الصغير - ص ٣٧٧)**
- أيام سنينا سبعون سنة ومع القوة فثمانون سنة ورغدها إنما هو ضرر (مز)
- **الحديث: أعمار أمتي بين الستين والسبعين (أوردها البخاري) وقال**
- **الشعبي مكتوب في الزبور من بلغ السبعين اشتكى من غير علة (العقد الفريد ١: ٣٣١)**

١١. الحديث في سفر الأمثال

- من يرحم الفقير يقرض الرب (مث ١٧)
- **الحديث :إن الصدقة تقع في يد الله(الجامع الصغير - ص ٣٧)**
- اذهب أيها الكسلان إلى النملة أنظر إلى طرقها وكن حكيما. تعد في الصيف طعامها للشتاء (مت ٦: ٦-٨)
- **الحديث :مثل المؤمن كمثل النملة تجمع في صيفها لشتائها**

(الجامع الصغير - ص ١٤٣)

- مساير الحكماء يصير حكيما ومؤانس الجهّال يصير شريرا (مث ١٣:٢٠)
- **الحديث :المرء على دين خليله فلينظر المرء من يخال المناوي- ١٦٤) ومثله :إياك وقرين السوء فانك به تعرف (الجامع الصغير- ص ١٥٣)**
- الذي يسود على روحه أفضل ممن يأخذ المدن (مث ١٦:٣٢)
- **الحديث: ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد من يملك نفسه (البخاري والمناوي) وكذلك مثله قوله :أفضل الجهاد أن يجاهد الرجل نفسه (الجامع الصغير - ص ٦٥)**
- الموت والحياة في حكم اللسان (مث ١٨:٢٠)
- **الحديث: البلاء موكل بالمنطق (الجامع الصغير - ص ١٦٨)**
- الإنسان المطيع يتكلم كلام المنتصر (مت ٢١:٢٨)
- **الحديث: من أطاع الله فاز (المناوي - ص ١٤٨)**
- الأخ أمنع من مدينة محصنة (مث ١٨:١٩)
- **الحديث: إن المرء كثير بأخيه (الجامع الصغير - ص ١١٠)**
- ككلب عائد على قيئه هكذا الجاهل المكرر سفهه (مت ٢٦:١١)

ومثله في رسالة بطرس الثانية (٢:٢٢)

- **الحديث: العائد في صدقته كالكلب يعود إلى قيئه(البخاري ج ٢:١٢٣)**
- من يجد المرأة الفاضلة .إن قيمتها فوق اللآليء (مت ٣١:١٠)
- **الحديث: زوجة صالحة خير من كنز الناس (الجامع الصغير - ص ٣١٣)**

١٢. **الحديث في سفر الجامعة**

- إن البشر لا يعلمون أحبّا يستوجبون أم بغضا (جا ٩:١)
- **الحديث: عجب لطالب دنيا، وهو لا يدري أرضي عنه أو سخط (الجامع الصغير - ص ٣٧٥)**
- إن الله سيحضر كل عمل ليدين على كل خفي خيرا كان أو شرا (جا ١٢:١٤) ومثله في رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس (٦:٨)
- **الحديث :من يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره (البخاري جز ٣:٩٩)**

وقد ورد مثل ذلك في القرآن

- لكل أمر أوان ولكل غرض تحت السماء وقت (جا ٣:١)
- **الحديث: لكل شيء ميقاته (المناوي - ص ١٥٨)**

١٣. **ألحديث في سفر الحكمة**

- الرب يفحص أعمالكم فأرباب القوة بالقوة يفحصون، وان للأشداء امتحانا شديدا (حك ٦: ٤-٧)

- **الحديث: أشد الناس عذابا للناس في الدنيا أشد الناس عند الله يوم القيامة (الجامع الصغير ـص ٥٥)**
- محص الله الصديقين كالذهب في البودقة فهم في وقت افتقادهم يتلألأون (حك ٣: ٦-٧)
- **الحديث: مثل المؤمن حين يصيبه البلاء كمثل الحديدة تدخل النار فيذهب خبثها ويبقى طيبها (الجامع الصغير ـ ص ١٣٥)**

١٤. الحديث في نشيد الأناشيد

- إني نائمة وقلبي مستيقظ (نش ٥:٣)
- **الحديث: تنام عيناي ولا ينام قلبي (الجامع الصغير ـ ص ١٧٥)**

ومثله :أننا معشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا (البخاري ج ٢ :٤٤)

١٥. الحديث في سفر يشوع بن سيراخ

- يا بني اتخذ التأديب منذ شبابك .تروّ في أوامر الرب فهو ينيلك ما تتمناه (سخ ٦: ١٨ و ٣٢)
- **الحديث :إن الله يحب الشاب الذي يفني شبابه في طاعة الله (الجامع الصغير ـ ص ٩٨)**
- لا تسلم نفسك إلى المرأة لئلا تتسلط على قدرتك (سخ ٩:٢)
- **الحديث :طاعة المرأة ندامة (الجامع الصغير ـ ص ٩٤)**
- لا تشمت بموت أحد، أذكر أننا بأجمعنا نموت (سخ ٨:٨)
- **الحديث: لا تظهر الشماته بأخيك فيرحمه الله ويبتليك (الجامع الصغير ـ ص ١٩١)**
- الماء يطفيء النار الملتهبة والصدقة تكفّر الخطايا (سخ ٣:٣٣)

ومثله في لوقا (١١:٤١)

- **الحديث: الصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفيء الماء النار (الجامع الصغير ـ ص ٩٢)**
- في جميع أعمالك أذكر أواخرك فلن تخطأ إلى الأبد (سخ ٧:٤٠)
- **الحديث :أكثر ذكر الموت يسلك عما سواه .(الجامع الصغير ـ ص ٢١٣) ومثله قوله :أكثروا ذكر الموت فانه يمحض الذنوب ويزهّد**
- أوصاهم (أي البشر) كل واحد في حق القريب (سخ ١٧:١٢)
- **الحديث: لكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته (المناوي ـ ص ١١٥) و (البخاري ـ ص ١١٥)**
- كل رجس مبغض عند الرب (سخ ١٥:١٣)
- **الحديث: إن الله يبغض الفاحش البذيء (المناوي ـ ص ٣٤)**
- الهدايا والرّشى تعمي أعين الحكماء، وكلجام في الفم تحجز توبيخاتهم (سخ ٢٠:٣١)
- **الحديث: الهدية تعوّر عين الحكيم .(ومثله) :الهدايا للأمراء غلول.**

(ومثله أيضا) :الهدية تذهب بالسمع والقلب والبصر (الجامع الصغير ـ ص ١٧٦)

- الإفراط من شرب الخمر خصومة ونزاع ومرارة للنفس (سخ38:31)
- **الحديث :اجتنبوا الخمر فإنها مفتاح كل شر (الجامع الصغير ـص ١٤)**
- عجّل الزمان واذكر الأجل (سخ ١٠:٣٦)
- **الحديث: اغتنموا العمل وبادروا الأجل (الجامع الصغير ـ ص ٢٠)**
- الغمة تأتي بالشيخوخة قبل الأوان (سخ ٣:٢٦)
- **الحديث :الهمّ نصف الهرم (الجامع الصغير ـ ص ١٧٦)**

١٦. **الحديث في سفر أشعيا**

- انطلق وقل لهؤلاء الشعب اسمعوا سماعا ولا تفهموا، وانظروا نظرا ولا تعرفوا (ع ٦:٦)
- **الحديث: يدعو الله المنافق فلا يسمع، ينظر ولا يبصر (المناوي ـص ٢٣٠)**
- إن هذا الشعب يكرمني بشفتيه، وأما قلبه فبعيد عني (شع ١٢:٥٢)

ومثله (متى ٨:١٥)

- **الحديث :ويل لمن يذكر الله بلسانه ويعصى الله في عمله (الجامع الصغير ـ ص ١٧٨)**
- أنا الرب وهذا اسمي ولا أعطي لآخر مجدي (شع ٨:٤٢)
- **الحديث :قال الله: الكبر ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدا منهما قذفته في النار (الجامع الصغير ـ ص ٣٠٦)**

١٧. **الحديث في سفر أرميا**

- ملعون الرجل الذي يتوكل على البشر وقلبه ينصرف عن الرب (ار ٥:١٧)
- **الحديث: من سعى إلى الناس فهو لغير رشده (الجامع الصغير ـ ص ١٥٥)**

١٨. **الحديث في سفر حزقيال**

- المنافق إذا تاب عن جميع خطاياه فانه يحيا حياة ولا يموت (حز 21:18)
- **الحديث: التائب من الذنب يكن لا ذنب له (الجامع الصغير ـ ص ١٧٧) ومثله قوله: التوبة تهدم الحوبة (الإيجاز و الإعجاز ـص ٦)**

١٩. **الحديث في سفر دانيال**

- يضيء العقلاء كضياء الجلد، والذين هدوا إلى البرّ كثيرين كالكواكب إلى دهر الداهرين (دا ٣:١٢)
- **الحديث: إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء يهتدي بها (الجامع الصغير ـ ص ٣٧)**

٢٠. **الحديث في سفر زكريا**

- ابتهجي جدا يا بنت صهيون و اهتفي يا ابنـة أورشليم، هوذا ملكك يأتيك مخلصـا وديعـا راكبـا على أتان (زك ١١:٩)
- **الحديث: جاء في لسان العرب (٩٦:٥) في حديث عطاء أنه قال:**

أبشري أورى شلّم براكب الحمار (قال :يريد بيت المقدس)

٢١. أمثال الإمام عليوأسفار العهد القديم

من أمثال علي بن أبي طالب المنقولة عن أسفار العهد القديم نذكر ما يلي:

- قول سليمان في (أمثال ١٥:٣٣) قبل المجد التواضع
- **ومن أمثال علي: سمو المرء التواضع (ص١٨)**

- قول سليمان في (أمثال ١:٧) مخافة الرب رأس العلم
- **وقال علي: رأس الحكمة مخافة الله (رويت عنه في الكثير الكثير من المصادر)**
- يقول ابن سيراخ (٦:٥) الفم العذب يكثر الأصدقاء واللسان اللطيف يكثر المؤانسات.
- **وروي لعلي قوله (ص ٣٢) لين الكلام قيد القلوب**
- وقال ابن سيراخ (٧:٤٠) في جميع أعمالك اذكر أواخرك فلن تخطـ إلى الأبد
- **وفي حكم علي (ص ٧٢) :ذكر الآخرة دواء**
- وفي أمثال سليمان (١٤:٣٤) العدل يعلي الأمة
- **ومن حكم علي :ثبات الملك بالعدل (ص ٦)**
- وفي المزامير (مز ١٨:٨) شريعة الرب كاملة ترد النفوس .أمر الرب مستقيم يفرح القلب
- **ومن حكم علي (ص ٣٢) :كلام الله دواء القلوب**

أخيرا ، ثمة الكثير من الأحاديث المنسوبة إلى نبي الإسلام وكذلك من الأمثال والحكم التي جاءت موافقة أو مطابقة لما ورد في الأناجيل الأربعة، إنما رأيت أرجاء ذكرها لحين البحث في صورة الفكر النصراني قبل وإبان ظهور الإسلام .



هوامش البحث

١. مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٠- ٤٩١ المطبعة الشرقية
٢. الإسلام بدعة نصرانية .. ص٥٧
٣. المصدر أعلاه نفسه ... ص ٥٧
٤. سورة البقرة (٢١٢)
٥. سورة زخرف (٢)
٦. المائدة (٤٧)
٧. راجع آل عمران ٥٢ و ٥٣
٨. راجع "النحل" ٤٣ و ٤٤
٩. من شاء معرفة رأي الأغلبية فليرجع إلى كتاب ج ف. مور وعنوانه اليهودية في القرون الأولى من التاريخ المسيحي ـ مكتبة الجامعة الأمريكية في بيروت _ طبعة جامعة كمبريدج المجلد الأول ص ١٥١.

Judiasm in the first Centuries of the Christian Eara

Roman life and manners under the Early Empire

١٠. راجع الكتاب السابق كتاب الجزء الثالث ص ١٧٣ (مكتبة الجامعة الأمريكية)
١١. راجع "Talmudic Anthology" للمؤلف ب. رباطي (مكتبة الجامعة الأمريكية) ص ٣٠٠.
١٢. الآية ٧ من سورة غافر
١٣. تفسير القرطبي الجزء ١٥ ص ١٩٤-١٩٥ ـ طبعة دار الكتب المصرية.
١٤. المصدر السابق نفسه
١٥. انظر "الإسرائيليات في التفسير والحديث" تأليف الدكتور محمد السيد حسين الذهبي الطبعة الثانية "ـ دار الأيمان بدمشق ـ ص ٤٣
١٦. صحيح البخاري جزء ٤ ص ١٨٨
١٧. راجع (الاتحافات السنية بالأحاديث القدسية" لزين الدين المناوي . الحديث رقم ٢٠٢ ص ٨٧ ـ مؤسسة الرسالة بلبنان ـ ودار الإرشاد حمص
١٨. المصدر السابق نفسه الحديث رقم ٥٠ ـ ص٢٩
١٩. المصدر السابق نفسه الحديث ١٥٥ ـ ص ٦٨
٢٠. المصدر السابق نفسه الحديث ٢٠٠ ـ ص ٨٦
٢١. راجع "قصة الحضارة" ل"ول ديورانت "الجزء ١٤ ـ الكتاب الثالث ص ١٩

٢٢. سورة المائدة آية ٧٣
٢٣. "الإتحافات السنية ".. (مصدر سابق) الحديث ٢٥٠ ص ١٠٨
٢٤. المصدر السابق .. الحديث ٢٢٥ ـ ص ٩٧ وللحديث بقية تتعلق بطاعة الوالدين
٢٥. المصدر السابق .. الحديث ٢٢٣ ـ ص ٩٦
٢٦. المصدر السابق .. الحديث ١٨٦ ـ ص ٨١
٢٧. سورة البقرة ـ ٩٩
٢٨. سورة البقرة ـ ٨٧
٢٩. سورة الأنعام ـ ٣٥
٣٠. سورة الأنعام ـ ٣٧
٣١. الإتحافات السنية.. (مصدر سابق) الحديث ٢٣٦ ص ١٠٢
٣٢. راجع كتاب "تلمود كل إنسان" ـ كوهين ـ مكتبة الجامعة الأمريكية ـ ص ٨٩ ـ (Everyman's Talmud)
٣٣. تتضمن "الشمونة عسرا" ١٨ فقرة
٣٤.
٣٥. قصة الحضارة ـ ول ديورانت ـ مصدر سابق ، الجزء ١٤ ـ الكتاب الثالث ص ٢٩ و ٣٠
٣٦. نص الحديث في محفوظاتي الشخصية ـ وهو شهير عند عامة المسلمين
٣٧. قصة الحضارة ـ مصدر سابق ـ ص ٣٢
٣٨. قصة الحضارة ـ مصدر سابق ـ ص ٣٣
٣٩. حديث منسوب إلى نبي الإسلام وهو شهير عند عامة المسلمين
٤٠. "سورة الأحزاب"
٤١. راجع الإتقان في علوم القرآن للعلامة جلال الدين السيوطي ـ الجزء الأول ص ٣٤ ـ ٣٥
٤٢. راجع "رياض الصالحين" للنووي ـ دار الخير ـ الطبعة الثالثة ص ٣٧٣
٤٣. المصدر السابق نفسه ص ٢٧٣
٤٤. "قصة الحضارة"ـ مصدر سابق الجزء ١٤ ـ الكتاب الثالث ص ١٣٧
٤٥. سورة الأنبياء ـ ٥
٤٦. سورة العنكبوت ـ ٤٦
٤٧. سورة الشورى ـ ١٣
٤٨. ولد الشيخ "محمد رشيد رضا" عام1282 هـ وتوفي عام ١٣٥٤هـ .
وقد طبع تفسيره (المنار) في اثني عشر جزءا تنتهي في الآية ٥٣ من
سورة يوسف. وأتم تفسير السورة الشيخ الإمام بهجت البيطار ،
وطبع تفسير السورة بتمامها
٤٩. تفسير المنار ـ جزء ٨ ـ ص ٤٩٨
٥٠. تفسير المنار ـ جزء ١٢ ـ ص ١٠٤
٥١. تفسير المنار جزء ١٢ ـ ص ١٠٥ (وزيد بن علي هو من المغالين في التشيع)

٥٢. المائدة الآية ٢٢
٥٣. تفسير المنار جزء ٩ ـ ص ٣٣١
٥٤. تفسير المنار جزء ٩ ـ ص ٣٣٢
٥٥. "الإسرائيليات في التفسير والحديث "ـ الدكتور محمد حسين الذهبي ـ ص ١٨٣ ـ(دار الإيمان دمشق ـ الطبعة الثانية ١٩٨٥)
٥٦. تفسير المنار جزء ٨ ـ ص ٣٥٥
٥٧. تفسير المنار جزء ٨ ـ ص ٣٥٦
٥٨. "الإسرائيليات في التفسير والحديث "مصدر سابق ـ ص ١٨٤
٥٩. يقصد ما ذكره في الجزء الأول من تفسير المنار ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥ عند تفسيره للآية ٥٩ من سورة البقرة" :فبدّل الذين ظلموا غير الذين قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجسا من السماء بما كانوا يفسقون"
٦٠. يقصد سورة البقرة وسورة الأعراف. ففي سورة البقرة الآية التي ذكرناها أعلاه .وفي سورة الأعراف يقصد الآية ١٦٢ : "فبدل الذين ظلموا منهم قولا
٦١. تفسير المنار جزء ٩ ـ ص ٣٧٣
٦٢. تفسير المنار جزء ٩ ـ ص ٤٩٨
٦٣. المرجع السابق نفسه
٦٤. سورة الأعراف ـ آية ١٠٧
٦٥. تفسير المنار جزء ٩ ـ ص ٤٩٨
٦٦. المرجع السابق نفسه
٦٧. تفسير المنار الجزء ٩ ـ ص ٤٤
٦٨. تفسير الإلوسي ـ الجزء ٦ ـ ص ٨٦ ـ٨٧
٦٩. المرجع السابق نفسه
٧٠. سورة الأنبياء ٨٣ ـ ٨٤
٧١. تفسير الخازن ـ الجزء ٤ ـ ص ٢٥٠ ـ ٢٥٤
٧٢. تفسير ابن كثير ـ الجزء الأول ص ٣١٣ ـ ٣١٤
٧٣. تفسير ابن كثير ـ الجزء الثالث ص ١٤٥
٧٤. تفسير ابن جرير ـ الجزء ١٦ ـ ص ١٤
٧٥. تفسير الطبري ـ الجزء ٢٣ ص ١٠١ (المطبعة الأميرية)
٧٦. صحيح البخاري (كتاب الجهاد ـ باب طلب الولد للجهاد) الجزء ٤ ـ ص ٢٢
٧٧. تفسير ابن جرير ـ الجزء ١٦ ـ ص ٣٩
٧٨. "الإسرائيليات في التفسير والحديث" مصدر سابق (ص ١٢٧)
٧٩. "ميزان الاعتدال "للذهبي ـ الجزء الثالث ـ ص ٥٥٨. وانظر وفيات الأعيان الجزء الثالث ص ٤٣٧ ـ مطبعة السعادة .
٨٠. المرجع السابق نفسه

٨١. أضواء على السنة المحمدية ـ ابورية ـ ص ١٧٢ـ١٧٣
٨٢. راجع" تهذيب الأسماء واللغات "الجزء الثاني ص ٦٨ المطبعة المنيرية
٨٣. الإسرائيليات في التفسير والحديث ـ مصدر سابق ـ ص ٩٦
٨٤. "البداية والنهاية "لابن كثير ـ الجزء الثامن ـ ص ١٠٨ـ مطبعة السعادة
٨٥. المصدر السابق نفسه ص ١٠٩
٨٦. "فجر الإسلام "مجمد أمين ـ ص ١٩٨ ـ طباعة لجنة التأليف والترجمة
٨٧. المصدر السابق نفسه
٨٨. تفسير المنار ـ الجزء الأول ص ٩ (مصدر سابق)
٨٩. الإسرائيليات في التفسير والحديث ـ مصدر سابق ـ ص ١٠٤
٩٠. "الموفقيات "طبع وزارة الأوقاف ببغداد ـ ص ٥٧٦ وانظر تاريخ المسعودي "مروج الذهب" الجزء الثاني ص ٣٤١.
٩١. "فجر الإسلام "محمد أمين ـ مصدر سابق ص ٢٤٨
٩٢. ورد بهذا اللفظ في مسند الإمام أحمد، ورواية البخاري في باب فضائل أصحاب النبي أنه ضمّه إلى صدره وقال: "اللهم علمه الحكمة"
٩٣. راجع" التفسير والمفسرون "الجزء الأول ص ٦٥ ـ ٦٧
٩٤. راجع" الإسرائيليات في التفسير والحديث "مصدر سابق ـ ص ٨٦
٩٥. يعني رفع الصوت بالخصام
٩٦. صحيح البخاري (كتاب البيوع ـ باب كراهية الصخب في الأسواق) الجزء الثالث ص ٦٦ ـ ٦٧ .وأخرجه البخاري في كتابه التفسير (باب :إنّا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا)



صورة الفكر النصراني قبيل وإبان ظهور الإسلام

من العبث أن يقول المرء اليوم بأن "الإسلام" فكرة دينية محضة وإنها نبتت في فراغ روحي. وثمة كثير من الباحثين كتبوا في نشأة الإسلام، والقرآن، بأن محمدا (عليه السلام) دعا إلى إصلاح مجتمع فاسد متصدع، وذهب بعضهم إلى أنه دعم دعوته بتعاليم إنجيلية في الفقر وعمل البر والإحسان. وما يبرر ضحالة مثل هذه الأبحاث أن كتب السيرة والتاريخ الإسلامي، أغفلت ذكر الكثير من أخبار النصرانية قبيل وإبان ظهور الإسلام "وكل علم ليس في القرطاس ضاع". وعلى سبيل المثال فإن ما قيل في آثار الخطابة بين نصارى العرب في الجاهلية قليل جدا ، وكذلك شأن شعر النصارى. وكأن مؤرخي العرب تعمدوا أن يصوروا العرب وكأنهم عاشوا شبه عزلة عن المسيحية فلم يعرفوا منها شيئا.

وصحيح أن أهل الجاهلية لم يدونوا معارفهم في القراطيس وغيرها لقلة انتشار علم الخط. إلا أنه صحيح أيضا أن الرواة المسلمين لم يكترثوا بتدوينها حين بدأوا جمع آثار الجاهلية في القرن الثاني للهجرة ، وأهملوا بالتالي ما عرفه آباؤهم من تاريخ النصرانية في الجزيرة العربية فلم يعيروه أهمية تذكر.

أما لماذا أخذت على نفسي مواصلة التنقيب في هذا الإتجاه (١)، فلأن أي لقاء إسلامي - مسيحي جاد، لابدّ وأن يستند إلى تظهير صورة اللقاء الأول، لقاء السنوات الأولى التي سبقت ومن ثم أعقبت إعلان رسالة الإسلام ، وذلك لتكون الخلفية والأساس. وبدون ذلك ستبقى المجاملة هي الطابع لكل حوار، وستختفي الجدية ويحل محلها النفاق والملق الظاهر ، هذا إذا استثنينا التسخير السياسي ومتطلباته.

ثم انه لا بد من إعادة كتابة التراث الإسلامي. ومع أنني موقن تماما بأن عملية التصحيح تتطلب عملا مؤسسيا ضخما ، فان الأمل يحدوني دوما أن يجد غيري الجرأة والشجاعة لاقتحام هذا المجال ، وبعمق أكبر ، ولن يكون ثمة اقتراب من الحقيقة بدون محاذرة التعصب ومجانبته تماما.

وخطتي في هذا المبحث أن أعرض للمآسي التي عاشتها الكنيسة المسيحية عامة والنصرانية في بلاد العرب بصورة خاصة، قبل أن أعمد إلى تظهير صورة الفكر النصراني ونشوء البدع النصرانية وخلافاتها ولا سيما في الجزيرة العربية ، وسيكون ذلك ضروريا لازما قبل الخوض في ظروف الحنيفية التي تعاملت مع البدع النصرانية ، سيما وأن الإسلام قام على القاعدة الحنيفية في التحكيم بين البدع. وبعد ذلك سأستخدم أسلوب البحث المقارن لتبيان موطن التأثر والتأثير بين الإسلام والنصرانية.

ولقد تبينت مبلغ حرج بعض الباحثين عند الخوض في شعر نصارى العرب في الجاهلية ، وذلك أن كثيرا من آيات القرآن الكريم جاءت في كثير منها مطابقة لبعض أبياتهم ، ومشابهة لها في النص غالبا. والمرجح أن ابتعاد الباحثين عن ولوج هذا المدخل سببه الخوف من أن المقابلات والمقارنات

بين القرآن والمصادر البشرية تقود إلى تقرير واقع ما. وهذا الواقع بنظر المتدينين قد يكون شتيمة وكفرا. كما أن المتعصبين من المسلمين لا يقبلون أن يكون القرآن الكريم خاضعا للبحث التاريخي. أو أن يكون له أي مصدر غير الله مباشرة. فالقرآن عندهم يعتمد كليا على اللوح المحفوظ.

ومع ذلك فإن جميع الأنبياء والمرسلين - ومحمد عليه السلام يفخر بالإنتماء إليهم - يدركون تماما أن الوحي في حقيقته يعتمد على ضعف الطبيعة البشرية وتحولات التاريخ. ويوقنون تماما بأن محبة الله تحتم على الله ذاته أن يتدخل مباشرة في تاريخ الإنسان وأن يشرك الإنسان في تدابيره.

وكلمة الله لا تكون فاعلة إلا إذا كانت مفهومة. وحتى تكون مفهومة يجب أن تكون هي نفسها كلمة البشر. فلماذا الخوف إذا من مقابلة كلام الله مع كلام البشر. ثم إن الخطاب القرآني نفسه يؤكد هذه الحقيقة: "إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا (السراء - ١٠٧). وكذلك: "الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك" (النساء - ١٦٢). ولهذا يكتفي محمد عليه السلام بشهادتهم: "قل كفى الله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب" (الرعد - ٤٣).

ثم إن أعز الأشخاص على نبي الإسلام عليه السلام هم: إبراهيم وموسى ولم يظهر الخطاب القرآني صورة لواحد منهما تداني الصورة التي يرسمها لعيسى بن مريم (يسوع) كلمته وروحه. فهل يكون غريبا أن يأتي الخطاب القرآني موافقا لما نظمه نصارى الجاهلية في المسيح شعرا ، أو ما قالوه في خطبهم نثرا ؟



مأساة الكنيسة

لم تثر عقيدة دينية من الخلاف والنقاش ما أثارته العقيدة المسيحية في جوهر وطبيعة مؤسسها. ربما لأنهم أرادوا للمسيحية أن تكون دينا فيما يسوع أرادها حركة حياة. وهكذا مرت عليها نحو سبعة قرون منذ تأسيسها وهي في حالة حرب مستمرة مع نفسها ومع مؤيديها ومع أعدائها.

والظاهرة الملفتة فعلا ، أن أكثر ما صادف المسيحية من حركات هرطوقية وزندقة في تلك الحقبة كان مصدره الشرق، الذي ورث عن اليونان شغفهم بتحديد ما لا حدّ له. ولن نستطيع أن نبحث ظروف نشوء البدع النصرانية ، في الشرق خاصة، ما لم نعرض للإشكالات التي وقع فيها أتباع المسيح وهي في أساسها لغوية - كما أعتقد جازما. وذات الله التي "تأنست فصارت إنسانا وصلبت على عهد بيلاطوس البنطي". كانت مثار لبس وغموض في ذهن المسيحي الشرقي في القرون السبعة الأولى ، ولم يستطيع منطقه اللغوي بالتالي قبول "الله الواحد في ثلاثة أقانيم"، ولم يستطع أن يؤمن كيف أن الله "الآب ضابط الكل خالق السماء والأرض ، كل ما يرى وما لا يرى"، هو نفسه "الرب الابن" الذي أسلمه يهوذا الأسخريوطي إلى الجلادين فعذب وصلب ومات "وقام في اليوم الثالث كما في الكتب". وهو نفسه الروح القدس "الرب المحيي" الذي أرسله الإبن إلى الرسل فحلّ فيهم. فنطقوا بكل لغة قوم دخلوا أرضهم.

وما حيّر ذهن المسيحي في تلك الحقبة أن المسيح نفسه ، في تعاليمه وإنجيله، ينطق مرة بلسان الآب، وينطق ثانية بلسان الإنسان. وهو حسب المعتقد الكاثوليكي بطبيعتين ومشيئتين:

" ليس كل من يقول لي: يا رب، يا رب يدخل ملكوت السموات بل الذي يعمل إرادة أبي الذي في السموات. كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم :يا رب يا رب ، ألم يكن باسمك قد تنبأنا وباسمك قد أخرجنا الشياطين ، وباسمك صنعنا عجائب كثيرة ؟ فحينئذ أعلن لهم أني ما عرفتكم قط ، أبعدوا عني يا فاعلي الإثم" (متى ٧:٢١).

"أما ذلك اليوم وتلك الساعة ، فلا يعلمها أحد، ولا ملائكة السموات ولا الإبن ، إلا الآب وحده"

"يا أبتاه إن أمكن فلتجز عني هذه الكأس ، ولكن ليس ما أريد أنا بل ما تريد أنت" (متى ٢٤:٣٦ و ٢٦:٣٩)

وهكذا نرى أن المسيح يظهر في هذه الآيات وغيرها ، مرة على أنه هو الله: (ليس كل من يقول لي يا رب يا رب) ثم فجأة يتحول إلى إنسان عادي :(بل الذي يعمل إرادة أبي الذي في السموات) ولقد أدى ذلك مثلا إلى خلاف حول طبيعة المسيح ومشيئته ، وأدى بالتالي إلى انقسام الكنيسة ، فظهرت بدع عديدة على أيدي رجالات من الكنيسة. ومن هذه البدع ما اندثر ، ومنها ما بقي واستمر إلى اليوم ولست بصدد ذكر هذه البدع جميعها، وتفصيل معتقداتها ، وإنما سأكتفي منها بما كان مؤثرا منها على ساحة التفاعل المسيحي - الإسلامي. وهكذا سأهمل كلا من بدعة "سيمون"، وبدعة "ساتورنينوس" (في القرن الأول للميلاد)، وكذلك كلا من "شردون" و "والتيتنوس" و "تاسيان"

و "منتانوس" (في القرن الثاني للميلاد)، و "بولس السميساطي" و "المانوية" (في القرن الثالث للميلاد)، وسأكتفي بالبحث في كل من "الأبيونية"، "ألأريوسية" و "البيلاجوسية" ، "النسطورية" ، و "اليعاقبة" ، إضافة إلى" المريمانية "و " الكسائية "لأن هذه البدع كانت فاعلة قبيل وإبّان ظهور الإسلام.



هل كان محمد نصرانيا

إنما قبل التفصيل في هذه البدع لا بد من البحث في ديانة نبي الإسلام قبل أن يتولى تبليغ رسالته. فهل كان وثنيا ؟ ... أم أنه كان على واحدة من هذه البدع التي ذكرت ؟ ؟أم أنه قبل الرسالة كان حائرا بين هذه البدع المختلفة فما أن صدع بالرسالة حتى تولى أمر تسوية تلك الخلافات؟ !! وفي هذا الاحتمال الأخير نشير إلى أن الخطاب القرآني طالبه صراحة بأن يكون الحكم الفيصل كل خلافات الأحزاب، بل وخصصت سورة لمثل ذلك وحملت اسم "الأحزاب" وأشير هنا بالذات إلى آية صريحة وردت في الخطاب القرآني ، وفيها قوله: "فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك بما شجر بينهم"(١).

إن سلسلة نسب نبي الإسلام تنفي الوثنية عن جدوده بدءا من اسم أبيه، عبد الله الذي لا يعقل أن يتسمى به وثني ، وانتهاءا ب "الياس" بن فهر الذي لا يمكن أن يكون إلا نصرانيا.

كذلك معروف عن قبيلة "بني النجار"، وهي القبيلة التي تنتسب إليها أمه ، آمنة بنت وهب أنها من قبائل النصارى العرب. وأن أمه ماتت على نصرانيتها، وأن نبي الإسلام حاول أن يستغفر لها ، وأن يطلب لها الحياة مجددا لفترة قصيرة ، وبما يكفي لها أن تتوب ، لولا أن الله لم يسمح بذلك بحسب الحديث المنسوب إليه.

ولقد حاول نبي الإسلام أن يقنع عمه أبا طالب بهجر البدعة النصرانية التي كان عليها ـ وأعتقد أنها النسطورية ـ لكن التأريخ الإسلامي يذكر لنا أنه أبى ذلك.

بيد أن الدليل الحاسم على نصرانية نبي الإسلام ، قبيل اضطلاعه بالرسالة الإسلامية ، يكمن في حادثة زواجه الأول من خديجة بنت خويلد. ذلك أنه من الثابت تاريخيا أن القس ورقة بن نوفل هو الذي تولى عقد القران ، بحضور عم محمد بن أبي طالب الذي ألقى قصيدة شهيرة في المناسبة. والقس ورقة، كما يدل عليه لقبه ، يتولى مسؤولية كهنوتية ، وبغض النظر عن البدعة النصرانية التي ينتمي إليها ـ وسنبحث في تفصيل ذلك لاحقا ـ فإن الرجل ولا شك كاهن نصراني (٢)، وينتمي إلى قبيلة أسد النصرانية والتي تنتمي إليها خديجة نفسها.

هنا نصل منطقيا إلى تحديد تاريخي لا يمكن تجاهله أو الحياد عنه. وذلك للأسباب التالية:

1 - من الثابت أن الذي تولى عقد القرآن كان قسيس (٣)
2 - وأن هذا القسيس هو ابن عم خديجة (العروس)
3 - وأن عقد القرآن تم قبل تكليف محمد بالرسالة بسنوات. وهذا يعني أن كاهنا قسيسا سيزوج ابنة أخيه ، أو ابنة عمه (هناك روايتان بهذا الصدد) بشاب لم

أن يعتنق العريس النصرانية وأن يتم تعميده أصولا .وفي كل الاحتمالات نجد أنفسنا مجبرين على التأكيد بأن محمدا كان نصرانيا، عندما تزوج خديجة، ولا يمكن ترجيح احتمال آخر (٤).

ولكن النصرانية في الأيام ، بل السنوات القليلة التي أعقبت ضلوع محمد برسالة الإسلام، كانت شيعا وأحزابا وبدعا ، وتحديد البدعة التي كان عليها نبي الإسلام قبل إسلامه، يقتضينا أن نعود مجددا إلى تحديد الطبيعة العقائدية لكل بدعة ، من تلك التي كانت فاعلة قبيل وإبان ظهور الإسلام كما أسلفنا.



الأبيونية

يذكر بعض اللاهوتيين المسيحيين أن يوحنا الرسول كتب إنجيله خصيصا ليفند ضلال هذه البدعة.
ويمكن إيجاز هذه البدعة التي خرج بها أبيون في أورشليم (القدس) خلال القرن الأول للميلاد بمسألتين:

- المسيح كان بشرا ، ولد من يوسف ومريم ، ولكنه أحرز الفضائل ، فاختاره الله ابنا له يوم عماده
- آمن بعض اتباعه بأن العذراء حبلت بالمسيح بفضل الروح القدس ، لكنهم أنكروا أنه مساو للآب

والواقع أن أبيون هذا يهودي متنصر، وكان يقيم مع أتباعه إنجيل متى فقط وكانوا يسمونه: "الإنجيل بحسب العبرانيين"، وهو إنجيل متى الأرامي لكنه ناقص ومحرّف ، وأما فروضهم فتتركز على الاغتسال الدائم بالماء للوضوء والتطهير ، وعلى تحريم الذبائح ، والتشديد على أعمال البر ورعاية الأيتام والعناية بالفقراء والمساكين وأبناء السبيل. وهكذا كان اعتقادهم لا يريد "المغالاة" في المسيح بتأليهه.



الأريوسي

بنسبة إلى أريوس (القرن الرابع للميلاد)، وهو مصري ولد في ليبيا ، حرمته مجامع الكنسية لكنه دأب على دعوته وتتلخص بدعته في ما يلي:

- المسيح ابن الله غير مساو للآب في الجوهر
- (المسيح) الكلمة ـ أخذ في تجسده الجسد دون النفس ، وكان يمكنه اقتراف الآثام كباقي الناس، لكنه تسامى بالفضائل فعصمه الله منها.
- أنكر الوهية المسيح



البيلاجوسي

ظهرت سنة ٤٠٤ على يد راهب بريطاني يدعى بيلاجيوس ، زار روما وقرطاجنة ، وافريقية ، وفلسطين ، وكان له أتباع كثيرون ، وتتلخص بدعته في ما يلي:

- خلق الله آدم وحواء مائتين. ولم يحمّل خطيئتهما لذريتهما بل لنفسيهما ، وهذا يعتبر نقضا للخطيئة الأصلية.

- نعمة الله ليست ضرورية للانسان ليعمل بوصايا الله بل تكفيه حريته الشخصية.
- الانقياد للشهوة ليس إثما ولا شرا. والفضائل مواهب طبيعية لا دخل لنعمة الله فيها.
- الأطفال يموتون لعلم الله المسبق بالخير أو الشر الذي كانوا سيصنعونه.



النسطورية

هي من أكثر البدع انتشارا وبقاءا في تاريخ الكنيسة كله، ومؤسسها كاهن إسمه نسطور من مرعش. نشأ في نواحي أنطاكية وعرف بورعه وعلمه، أصبح بطريكيا لقسطنطينية ، حارب البدع والهرطقات ثم أظهر بدعته فقد قال مرة في احدى خطبه: كيف يكون لله أم ؟، فان صح ذلك كان معثرة للوثنيين بإتيانهم بأمهات آلهتهم إلى هياكلهم. كلا ان مريم لم تلد إلها، إذ لا يلد الجسد إلا الجسد. وأما ما يلده الروح فهو روح ، لا تستطيع الخليقة أن تلد الخالق ، بل ولدت انسانا هو آلة الله. وكان ذلك سنة ٤٢٨. توفي في إفريقيا ، وفي موته قصص كثيرة. وتتلخص بدعته في التالي:

- الإنسان الذي تجسد في أحشاء العذراء هو غير كلمة الله الوحيد
- ما التجسد إلا حلول كلمة الله في ذلك الانسان بمنزله هيكل له
- المسيح ليس إالها بل هيكلا لله
- العذراء لا تدعى أم الله بل أم المسيح
- أرسل الله المسيح إلى العالم كأحد الرسل والأنبياء

ويعرف أصحاب هذه البدعة بالنسطوريين ، وسمي من عاد منهم إلى الكنيسة بالكلدان الكاثوليك.



اليعاقبة

وهي من أهم البدع التي انتشرت في القرن السادس ، وأسسها الراهب يعقوب البردعي وكان راهبا في دير بالرها ورقي إلى أسقفيتها عام ٥٤١م ولقب بيعقوب البردعي لأنه كان يلبس البردعة ويتقشف في لباسه. وقيل عنه أنه سافر في الدنيا كلها ودخل بلاد الشرق فمصر والشام وبلاد الحبشة والنوبة.

أما ما جاء به البردعي فلم يكن جديدا. فلشدة إيمانه بفكرة اوطيخا (٧) القائلة بطبيعة المسيح الواحدة ، حاول جمع ألأوطاخيين والأريوسيين والنساطرة في كنيسة واحدة. وأضافγ نه ما دام للمسيح طبيعة واحدة فهو لا شك يملك مشيئة واحدة. ونجح الى حد ما في مهمة جمع الأوطاخيين والأريوسيين والنساطرة في كنيسة واحدة ، لكنها ما لبثت أن انشطرت الى كنيسة أنطاكية اليعقوبية. وكنيسة الإسكندرية التي دعيت فيما بعد: "القبطية" ، ومن هذه الأخيرة الحبشة وكان مليكها "النجاشي".



المريميون

انتشرت هذه البدعة في جهات العرب ، وكان أصحابها يبالغون في عبادة مريم العذراء ، فيقدمون لها نوعا من القرابين أخصها أقراص العجين والفطائر دعاهم إبن البطريق ب "المريمية والبربرانية"، وذكر أنهم كانوا يقولون بأن المسيح وأمه إلهان من دون الله. وقد ذكرهم أيضا إبن تيمية، فسماهم ب "المريامانيين" وعلى هذا الأساس شرح مفسرو القرآن قوله: "يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله" .... (٥). وكذلك شرحوا قوله في سورة النساء "ولا تقولوا ثلثة" أي لا تقولوا الآلهة ثلاثة: الله والمسيح ومريم ، وهكذا ورد في شرح البيضوي والزمخشري وغيرهما.



الكسائية:

شيعة نصرانية انتشرت في الجزيرة العربية. وقد مدحت السيرة الحلبية أتباعها، لكثرة ما يعرفون عن الحق "ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق" (٦) ، وهم أهل العلم في القرآن، وهم النصارى المسلمون قبل المسلمين "وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين" .... (٧).



متاعب الكنيسة في الغرب

تعتبر فترة ظهور الإسلام من أحلك الفترات التي مرت على العالم البيزنطي وعلى الكنيسة المسيحية بآن واحد. فالدولة كانت تمزقها الإنقسامات في الداخل ، ويهاجمها الأعداء من جميع الجهات في الخارج. فقد كان الآفار والصقالبة يعبرون نهر الدانوب ويستولون على أراضي الإمبراطورية وبلدانها ، وكان الفرس يستعدون لاجتياح آسية الغربية ، وخسر القوط الغربيون اسبانيا ، واستولى اللمبارد بعد ثلاث سنوات من موت جستنيان على نصف ايطاليا (٥٦٨م). وكان قد فشا الطاعون في جميع أنحاء الامبراطورية في العام ٥٤٢م ، ثم ثانية في العام ٥٦٦م. ومن ثم عمتها المجاعة في العام ٥٦٩م.

ولم تكن العيوب في خلفاء جستنيان ، "فالمشاكل كان يتطلب حلّها أن يتوالى على الحكم رجال من طراز نابليون ولمدة قرن دون انقطاع". لقد قاتل جستين الثاني (٥٦٥ ـ ٥٧٨م) الفرس الساعين الى التوسع ببطولة وتيبيريوس كان صاحب فضل. وهاجم موريق الآفار الغزاة، وهو الذي صادف في حكمه ظهور ونشأة الاشلام. وكان آلاف من مواطنيه يدخلون الأديرة فرارا من الخدمة العسكرية. ولما أن نهى موريق الأديرة عن قبول أعضاء جدد فيها (الا بعد زوال الخطر عن الدولة) ، نادى الرهبان بسقوطه ، وتزعم فوقاس الذي عمّر مئة عام ثورة على الأشراف والحكومة (٦٠٢م)، وذبح أبناء موريق الخمسة أمام عينيه ثم ذبح وذبحت معه الأمبراطورة قسطنطينة ، وبناتها الثلاث بعد أن سملت أعينهم واقتلعت ألسنتهم وبترت أطرافهم.

وأفاد كسرى الثاني من هذا الإضطراب فجدد الحرب القديمة ـ حرب الفرس واليونان. وعقد فوقاس الصلح مع العرب ونقل الجيش البيزنطي كله إلى آسيا ، لكن الفرس هزموه في كل واقعة. والآفار استولوا على جميع الأراضي الزراعية الواقعة خلف القسطنطينية. واستغاث أشراف العاصمة بهرقل ، امبراطور أفريقيا اليوناني ، فاعتذر محتجا بكبر سنه وأرسل اليهم إبنه هرقل الأصغر الذي جاء بعمارة بحرية إلى البوسفور ، فخلع فوقاس ، وعرض جثة المغتصب المبتورة الأطراف أمام الشعب ، ونودي به إمبراطورا عام ٦١٠م. وقضى عشر سنوات يعمل لإحياء روح الشعب المعنوية ، ويعيد تنظيم الجيش. واستولى الفرس على القدس عام ٦١٤م. وكان هرقل قد فقد مصر أيضا، حتى أنه فكر في نقل جيشه إلى قرطاجة ليحاول منها استرجاع الأراضي المصرية لكن الأهلين والقساوسة منعوه من السير ، ورضي البطريق سرجيوس أن يقرضه ثروة الكنيسة اليونانية بفائدة ، ليمول بها حربا مقدسة يستعيد بها أورشليم/القدس. وزحف لقتال الفرس وهزمهم في مواقع عدة وأسقط كسرى الثاني وعاد ظافرا الى القسطنطينية بعد أن غاب عنها سبع سنين. وانقضت الفتوحات الإسلامية على بلاد الشام بمساعدة القبائل العربية النصرانية ولا سيما من كان منهم على البدعة النصرانية وتم الاستيلاء عليها وانتزاعها من حامية يونانية منهوكة القوى. ثم تمّ الاستيلاء

العربي على بيت المقدس (٦٣٨م) ومن ثم على مصر عام ٦٤١م فيما كان هرقل يعاني سكرات الموت.

كان هذا هو الظرف السياسي والعسكري للدولة البيزنطية المسيحية، حين ظهر الإسلام .وكان الإسلام بدوره حكما بين الشيع النصرانية في الجزيرة العربية أول الأمر ثم دينا خالصا حنيفا يعادي النصرانية والمسيحية واليهودية معا .ولكن وضع الكنيسة المسيحية لم يكن مع الأحداث السياسية والعسكرية في تلك الحقبة، بأحسن حالا، فلم يكن بوسع بطارقة الكنيسة الشرقية بذلك السلطان الأعلى لأسقف روما أن يفعلوا شيئا. فهؤلاء البطارقة كانوا خاضعين منذ زمن بعيد لأباطرة الروم الذين لم يتنازلوا عن دعواتهم - حتى عام ٨٧١م - بأن لهم السيادة على روما ومن فيها من البابوات. ولقد كان البابوات يوجهون النقد إلى الأباطرة ، ويعصون أوامرهم في كثير من الأحيان. ولكن الأباطرة مع ذلك كانوا هم الذين يعيّنونهم في مناصبهم، ويعزلونهم منها، ويدعون المجالس الكنسية إلى الانعقاد، وينظمون شؤون الكنيسة بقوانين تسنها الدولة. ولم يكن ثمة ما يحدّ من سلطان الأباطرة الديني المطلق في العالم المسيحي الشرقي إلا سلطان الرهبان ، ولسان البطريق ، واليمين التي يقسمها الإمبراطور - حين يتوجّه البطريق - بأن لا يبتدع بدعة ما في الكنيسة.

ولقد كان غريغوري الأكبر هو البابا في حقبة ظهور الرسالة المحمدية. وكانت متاعب البابا غريغوري كبيرة جدا. ومن هذه المتاعب – على سبيل المثال – أن الايرلنديين كانوا يحتفلون بعيد الفصح حسب تقويم كانت تسير عليه الكنيسة في باديء الأمر، ولكنها غيرته في العام ٣٤٣، فنشأ من ذلك نزاع بينها وبين القساوسة الغاليين ، فلجأ هؤلاء القساوسة إلى البابا غريغوري الأكبر. لكن القديس كولومبان الذي أسس الأديرة في جبال الفوج بفرنسا رفض أوامر البابا وقال: "إن الإيرلنديين أعلم منكم بالفلك أيها الرومان"، ودعا كولومبان البابا غريغوري أن يقرّ طريقة الإيرلنديين في الحساب "وإلا فسيعتبر من الخارجين عن الدين وتنبذه بازدراء كنائس الغرب".

ومع أن البابا غريغوري الأكبر كان هو المسيطر على أواخر القرن السادس فإن صحته المعتلة كانت تنعكس عليها فوضى زمانه. فأما صحته فقد كتب عنها عام ٥٩٩م يقول: "قضيت أحد عشر شهرا قلما غادرت فيها فراشي، ينتابني فيها النقرس والقلق المؤلم ، الى حدّ صرت معه أرجو النجاة بالموت". وكتب في عام ٦٠٠م ثانية: "أنا الآن ملازم للفراش منذ عامين ، وقد اشتد بي الألم إلى حدّ أكاد أعجز معه عن مغادرة سريري مدة ثلاث ساعات، أحتفل فيها بالقداس. وأنا أحسّ في كل يوم بأنني على حافة القبر، وأني في كل يوم أرتد عنه". وجاءه الموت فعلا في العام ٦٠٤م.

إذا فيما رأس الكنيسة لم يغادر سرير المرض طيلة السنوات الخمس (٥٩٥ – ٦٠٤م) كان نبي الإسلام يرسخ دعوته في الشرق بمساعدة من أتباع أكثر من بدعة نصرانية إضافة إلى اليهود الذين لمت شملهم الجزيرة العربية بعد شتات متعدد.

أما كيف صوّر لنا التاريخ العربي والإسلامي الحضور النصراني في المنطقة العربية، إبّان ظهور الاسلام ، فذلك أمر يدركه القارىء ولا شك ، ولا حاجة لذكر شواهد في هذا المضمار ، فالإفادات التي خلفها المؤرخون والباحثون العرب، عن الأديان في جزيرتهم قبل الإسلام نزرة نادرة ، ولا سيما في النصرانية التي كانت أقرب لهم عهدا ، فاذا ما كتبوا شيئا عن المسيحية لا يكادون يذكرون من تاريخها غير شيوعها في بعض القبائل. وإنما يستطيع المرء أن يستجمع شيئا من صورة

الحضور المسيحي من خلال ما كتبوه عن النصرانية عرضا عند حديثهم عن عادات العرب وأمثالهم وقصصهم ولهجاتهم. ولقد كان للأب "لويس شيخو" فضل في تجميع هذه الصورة حين تتبع التفاصيل في كتب نصارى الشرق، ولا سيما قدماء الروم والسريان وبعض الكتبة اللاتين.

والشواهد على النصرانية في بادية الشام كثيرة. فالمؤرخون العرب أفادوا أن القبيلة الأولى التي تولت على بادية الشام باسم الرومان إنما كانت "قضاعة" من قبائل اليمن ، ثم غلبتها على الأمر "سليح"، ثم جاءت بعدها "غسان" وبقي ملكها الى ظهور الاسلام ، وقد دانت بالنصرانية على رأي اليعقوبي في تاريخه ، والمسعودي في "مروج الذهب". ومما يثبت ارتقاء النصرانية واتساع دائرتها في بادية العرب أن منها خرج أول قياصرة الرومان النصارى ، وهو فيليبوس العربي ، الذي ملك على رومية من عام ٢٤٤ الى عام ٢٤٩ للميلاد ، وكان أصله من بصرى. ومن الآثار القديمة على ذلك بقاء عدد من الكنائس والأديرة حتى اليوم .ويقتضي التنبيه الى أن النصرانية في بادية الشام ثبتت في عزّها إلى ظهور الإسلام. ونحن نقول ب "نصرانية" بادية الشام ، وليس ب "مسيحيتها" لأن "البدعة اليعقوبية" كانت هي السائدة. أما أن اليعقوبي نسب اليهودية إلى قوم من غسان ، فلانتشار بدعة الأبيونية فيهم ، وهي من بقايا اليهود الأولين الذين تنصروا وحفظوا شيئا من نواميس موسى.

ومن الأدلة التي دونها المؤرخون تنصر "الضجاعمة" الذين سبقوا الغسانيين في ملك البلقاء. ولما انتهى طور الإضطهادات على المسيحيين في القرن الرابع قسمت منطقة الغور والسلط والبلقاء ونواحيهما إلى مدينتين دعيت الأولى بفلسطين الثانية وكانت حاضرتها مدينة باسان .ودعيت الأخرى بفلسطين الثالثة، وكانت حاضرتها "بترا". وقد بلغ عدد الكراسي فيها قبل الإسلام نحو أربعين كرسيا ، وعرف أسماء كثيرين من أساقفتها.

وممن دخلت النصرانية بينهم أمة النبط الذين كانت لهم دولة عظيمة. كذلك كانت نواحي الغور على ضفتي الأردن تضم عددا من الأديرة عرف منها عشرون.

وجاء في تاريخ القبط للمقريزي أن متياس ، وهو الرسول الذي أقيم بدلا من يهوذا الاسخريوطي سار إلى بلاد الشراة فبشر فيها المسيح.

وفي مصر ، ثمة شواهد تنتمي إلى أواسط القرن الثالث للميلاد ومنها رسالة للقديس ديونيسيوس أسقف الإسكندرية كتبها إلى فابيوس أسقف أنطاكية وقد وصف فيها المحن والبلايا المتعددة التي نالت نصارى مصر بسبب اضطهاداتها الحنفاء وعبدة الأوثان ، لا سيما في عهد القيصر دقيوس.

وقد أخبر المؤرخون أن القديسة هيلانة شيدت كنيسة على طور سيناء تذكارا لما جرى فيه من الأعاجيب في عهد موسى. وفي غزة اشتهر القديس هيلاريون.

واذا انحدرنا من طور سيناء إلى أطراف جزيرة العرب في جنوبها الشرقي حيث عسير مهر وحضر موت والشحر وغيرها مما يؤلف بلاد اليمن ، فإننا سنجد شواهد جليلة على دخول المسيحية في اليمن منذ القرون الأولى لتاريخ الميلاد ، ومما يستدل إليه من تواريخ العرب كالطبري ، والسيرة لابن هشام ، والمسعودي ، أن النصرانية واليهودية أخذتا في النزاع والمخاصمة في اليمن منذ أواسط القرن الثالث للمسيح. ومن الآثار التاريخية اليونانية عن نفوذ النصرانية في اليمن ما رواه المؤرخ الأريوسي فيلوسترجيوس (أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس) ودافع فيه عن أعمال الأريوسيين.

ومن أعظم الشواهد العربية على دخول النصرانية في اليمن ما رواه الطبري في تاريخه ، وياقوت في "معجم البلدان" (٨) وابن خلدون (٩)، وابن هشام (١٠) وغيرهم: من أن أهل نجران تنصروا جميعهم (٨). وذكروا النبأ في قصة طويلة خلاصتها أن رجلا من بقية أصحاب الحواريين ويقال له فيميون، (وقالوا فيمون، وقالوا فيمون)، كان من أفضل الناس عبادة ، وكان سائحا تجري على يديه الكرامات والمعجزات، ووصل في سياحته الى بلاد غسّان فتبعه رجل من أهل الشام إسمه صالح ، فتوغلا في بلاد العرب ثم اختطفتها سيارة وباعوهما بنجران، وأهلها حينئذ من بني الحارث من كعب المنتمين إلى كهلان يعبدون العزّى على صورة نخلة، فأوقف فيميون سيده على بطلان الشرك بما صنع لديه من الآيات ولا سيما إذ دعا ربه في يوم عيد العزى فأرسل الله ريحا جعف النخلة من أصلها، فعرف أهل نجران صحة دينة، وجعل فيميون عليهم رئيسا أحد أشرافهم ويدعى عبد الله بن التامر ، كما رعاهم أسقف كان يدعى بولس. وأقام أهل نجران على دين المسيح حتى دعاهم الى اليهودية أحد ملوكهم إسمه ذو نواس فأبى النجرانيون اتباعه، وكان رئيسهم اذ ذاك الحارث ، واستعدوا للدفاع عن بلدهم، إلا أن ذو نواس دخله بالمكر وحفر أخاديد ، أشار اليها البيان القرآني، فأضرمها نارا وألقى فيها على ما روى ابن اسحق عشرين ألف من النصارى أو يزيدون ماتوا في سبيل إيمانهم مع الحارث رئيسهم(١١).

ولا شك أن النصرانية في مدة ملك الحبشة على اليمن بلغت أقصى النجاح ، فقد جعلت الحبش من نجران قبله للنصرانية بعد أن اصطبغت بدماء أهلها فأقاموا فيها مزارا كان العرب يقصدونه من كل صوب، وأسموه "كعبة نحران" (١٢) أو كعبة اليمن.

ولكن هل كانت المسيحية في اليمن مستقيمة خالية من البدع؟ يرجح أن ايمانهم كان في أول الأمر كاثوليكيا يوافق تعليم المجامع الأربعة الأولى إنما يظهر أن بدعة "أوطيخا" سرت إلى اليمن لأن الحبشة في القرن السادس جنحوا إلى تعاليم اليعاقبة.

وعندما انتزع العجم اليمن من الحبش حافظت على نصرانيتها. وأما القول بأن سيف بن ذي يزن كان يهوديا فإنه مغلوط فمن الثابت أنه لاذ بقيصر ملك الروم النصراني ولو كان يهوديا كذي نواس لما جرؤ على ذلك.

ويعتقد الأب لويس شيخو أن نساطرة العراق انتهزوا فرصة دخول الفرس في اليمن ليعززوا بدعتهم فيها. وفي كتاب الأغاني أن عشرة من أساقفة نجران وفدوا على نبي المسلمين محمد عليه السلام وجادلوه فدعاهم إلى المباهلة ، ولعل منهم من كان نسطوريا وكان حينئذ رئيسا على نجران ، فأعطي الأمان هو وقومه.

ودخلت النصرانية مع الحبش إلى حضرموت ، علما أن قسما كبيرا من كندة كان يسكن في حضرموت ، والنصرانية كانت الديانة الغالبة على كندة كما هو معلوم.

كذلك دخلت النصرانية إلى عمان بواسطة دعاة أتوها من العراق ، ومن أسماء أساقفتها المذكورة في التواريخ الكلدانية: يوحنان (٤٢٤م) ، وداود (٥٤٤م) ، وشمويل (٥٧٦م) ، واسطفان (٦٧٦م).

وفي جملة الرسائل التي بعث بها نبي المسلمين عليه السلام إلى الملوك، رسالة وجهها الى ملك عمان النصراني المسمى جيفر بن الجلندي.

وأهل البحرين في الجاهلية هم من بني عبد القيس ، وكانت "عبد القيس" إحدى القبائل المعروفة بنصرانيتها. وكان للنساطرة في بلاد البحرين أساقفة وخصوصا في قطر التي كانوا يسمونها "بيت قطرايا". وقد ثبت هؤلاء النصارى على دينهم بعد الإسلام ، كما يظهر من مجمع نسطوري عقد سنة ٥٧للهجرة (٦٧٦ م) (٢٨). وكان على قطر اذ ذاك أسقف اسمه توما.

ومن مدن الاحساء بلدة اسمها "الخط" وتنسب إليها الرماح الخطية وكان الفرس يدعونها: "بيت ازدشير"، وكان للنساطرة فيها كنائس ، ويذكر من أساقفتها اسحق (٥٧٦م) وشاهين (٦٧٦م).

واليمامة التي تقع بين الأحساء شرقا والحجاز غربا كان معظم سكانها قبل الإسلام من بني حنيفة ممن يشهد المؤرخون المسلمون على نصرانيتهم .ويطول الحديث لو تحدثنا عن تاريخ المسيحية في العراق ، وتكفينا الإشارة إلى الكنائس القديمة في بابل الأنبار ، والحيرة ، والبصرة ، وبيت عربايا ، وميشان وغيرها .

ولكن البدعة النسطورية نفثت سمومها في كنائس بابل والعراق في أواخر القرن الخامس للميلاد. ثم اقتفت أثرها البدعة اليعقوبية، فقامت الحرب بين البدعتين، فانقسم أهل البلاد إلى قسمين. القبائل الواقعة شرقي الموصل حتى خليج العجم مالت إلى النسطورية بينما القبائل الواقعة غربي الموصل ، وديار ربيعة حتى جهات الرها ، وتخوم حلب وحماة وحمص اتبعت اليعاقبة.

ويمكن ايجاز خارطة الصراع في أواخر القرن الخامس وحتى نهاية القرن السادس كما يلي:الكنيسة الكلدانية تبعت بدعة نسطور. والكنيسة السريانية غلبت عليها بدعة اليعاقبة.

وأما الجزيرة في شمال بلاد الشام ، فإن أول برهان يثبت دخول المسيحية بين عربها ما أصاب هذه المسيحية من الانتشار السريع الغريب في ما بين النهرين، كما تصرح بذلك كل الآثار الكتابية والمعمارية كالكنائس والأديرة الباقية إلى يومنا والتي تنتمي إلى القرنين الرابع والخامس للمسيح. غير أن المسيحية في جزيرة بلاد الشام ، تشوهت منذ أواسط القرن الخامس للميلاد بأضاليل البدع ولا سيما اليعقوبية التي فصلتها عن مركز الوحدة.

ونحن نعرف ما كان للمسيحية من نفوذ في تدمر والبلاد المجاورة لها في القرن الثالث للميلاد. وقد كتبت في ذلك مئات المجلدات.

والآن بعد أن تتبعنا آثار المسيحية والنصرانية في أطراف بلاد العرب يبقى علينا أن نستكمل البحث في أواسطها لنتقصى ما كان للمسيحية والبدع من تأثير في القبائل الساكنة في الحجاز ونجد ، وبذلك تتم ابحاثنا عن تاريخ النصرانية في كل أنحاء جزيرة العرب.

في تاريخ الطبري قصة عن رسول السيد المسيح أرويها بحرفيتها دون القطع بصحتها، قال:

"حدثنا ابن حميد عن أبي سليم الأنصاري ثم الزّرقي قال: كان على امرأة منّا نذر لتظهرنّ على رأس الجمّاء (جبل بالعقيق من ناحية المدينة) قال: (فظهرت معها ، حتى إذا استوينا على رأس الجبل ، إذا قبر عظيم عليه حجران عظيمان ، حجر عند رأسه ، وحجر عند رجليه ، فيهما كتاب بالمسند لا أدري ما هو. فاحتملت الحجرين معي ، حتى إذا كنت ببعض الجبل منهبطا ، ثقلا عليّ ، فألقيت أحدهما وهبطت بالآخر ، فعرضته على أهل السريانية هل يعرفون كتابته فلم يعرفوه. وعرضته على من يكتب بالزبور (أي العبرانية القديمة) من أهل اليمن ، ومن يكتب بالمسند فلم يعرفوه. فلما لم أجد أحدا ممن يعرفه إلقيته تحت تابوت لنا ، فمكث سنين. ثم دخل علينا ناس من

أهل ماه من الفرس ، يبتغون الخرز ، فقلت لهم: هل لكم من كتاب ، فقالوا نعم. فأخرجت اليهم الحجر ، فاذا هم يقرأونه فاذا هو بكتابهم: (هذا هو قبر رسول الله عيسى بن مريم عليه السلام إلى أهل هذه البلاد). فاذا هم كانوا أهلها في ذلك الزمان مات عندهم فدفنوه على رأس الجبل".
ومن عجيب أمر كاتب هذه الشهادة أنه يعتبر كالمسيحيين "عيسى بن مريم" إلها ، اذ أن قرينة الكتابة تبين أن الرسول المذكور ليس هو السيد المسيح بل هو مرسل منه.
والواقع أننا نجد حضوراً نصرانياً (إضافة إلى الحضور اليهودي) في "أيلة" التي تقع في طرف الحجاز من جهة الغرب. فلا ينكر مؤرخو الإسلام أن صاحب "أيلة" كان نصرانياً لما ظهرت رسالة نبي الاسلام. وإسم صاحبها :يوحنا بن رؤبة وقد صالحه محمد عليه السلام على جزية تبلغ ٣٠٠ دينار. وكان قد قدم على نبي الإسلام سنة ٩ للهجرة وهو في تبوك.
أما أهل دومة الجندل فكانوا من بني السكون وهم فرع من بني كندة ، وكانوا نصارى كما ورد في السيرة لابن هشام. وصاحب دومة الجندل عند ظهور الإسلام هو إكيدر الكندي المسمى أصبح بن عمرو الكلبي. ويروي إبن سعد أن خالد بن الوليد قد حاربه في السنة التاسعة للهجرة وقتل أخاه حسّان.
وتعتبر "دومة الجندل" من "وادي القرى"، وهو يعتبر من الحجاز ، وسمي كذلك لكثرة القرى فيه. وكان اليهود يسكنون هذا الوادي أولا ثم نزلته قضاعة، وهي من أثبت القبائل في النصرانية ، ومنهم بنو سليح الذين ذكر المؤرخون تنصرهم في الشام.
وفي تيماء ، وهي بلدة في الحجاز بين الشام ووادي القرى ، نجد حصن السموءل المسمى ب "الأبلق" ومع ما ذكر عن السموأل أنه يهودي فإن الأب لويس شيخو يثبت نصرانيته من خلال أصله الغساني ومما نظمه شعرا في بعض تلامذة المسيح بل تصريحه باسم السيد المسيح في لاميته التي وجدت في الموصل حيث يقول : " وفي آخر الأزمان جاء مسيحنا فأهدى بني الدنيا سلام التكامل". إلا أن الأب شيخو يرجح أنه كان يتبع أحدى الشيع اليهودية المتنصرة.
وتعتبر "تبوك" مكانا حصينا بين وادي القرى والشام. وقد كان أهلها من نصارى قضاعة. ويقول ابن خلدون نقلا عن ابن سعيد: "وكان لقضاعة ملك آخر في كلب بن وبرة بن تغلب يتداولونه مع السّكون من كنده ، فكانت لكلب دومة الجندل وتبوك ، ودخلوا في دين النصرنية"(١٣).
ويقول ياقوت الحموي بشأن "معان": "هي مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء" (١٤). وكان أهلها نصارى تحت حكم الروم ، والمالك عليها عند ظهور الاسلام فروة بن أبي عامر شيخ بني جزام النصارى.
ثم "المدينة" وكان اسمها في الجاهلية "يثرب". وفي تقاليد العرب أن أول من سكنها هم العمالقة. ثم هاجر اليهود إليها في أزمنة مختلفة. ومما لا سبيل إلى انكاره أن النصرانية دخلت الى يثرب بعد السيد المسيح بقليل (١٦). وليس من المستبعد أن بين القبائل اليهودية المهاجرة من أورشليم قوم عرفوا النصرانية ودانوا بها. ويبدو أن بعض تلك البدع شاعت خصوصا في الحجاز كشيع الأبيونيين والكسائيين والأريوسيين، وبعض هذه البدع بالغ أصحابها في أضاليلهم فنبذ النصارى مزاعمهم كالمريميين الذين كانوا يبالغون في عبادة مريم العذراء فيقدمون لها نوعاً من القرابين. وهؤلاء كانوا يقولون - بحسب ابن البطريق - "أن المسيح وأمه الهان من دون الله". كذلك وصفهم

ابن تيمية في كتابه "الجواب الصحيح". وعلى هذا شرح مفسرو القرآن قوله في سورة المائدة: "يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله".

وروى القديس إيلاريوس في رسالته إلى الملك قسطنطين أن فرعا من أشياع آريوس ظهروا في جهات العرب وزعيمهم يدعى أقاقيوس. ويذهبون إلى أن السيد المسيح ليس ابن الله لزعمهم أن من قال ذلك جعل لله زوجة فخلطوا بين الولادة الجسدية والولادة الروحية الإلهية.

ومن الأدلة على نصرانية الأوس والخزرج أنهم ينتسبون إلى الحارث بن ثعلبة فيرتقي نسبهم إلى بني غسان الذين لا شك في نصرانيتهم. والأوس والخزرج كانوا الأغلبية في يثرب. إلا أن دين الأوس والخزرج في البداية كان الشرك، فقد كانتا تعبدان "المناة" كما روى الشهرستاني. لكنهما عدلتا بعد ذلك الى النصرانية. حتى أن أهل يثرب كانوا يسمون ب "أهل الكتاب" حتى أن الشهرستاني يقول في ذلك: "الفرقتان المتقابلتان قبل المبعث هم أهل الكتاب والأميون. والأمي من لا يعرف الكتابة ، فكانت اليهود والنصارى بالمدينة، والأميون بمكة" (١٧). وإذا، فان أهل المدينة كانوا قسمين: قسم يهودي كقريظة والنضير. وقسم نصراني وهم عرب الأوس والخزرج وقضاعة الذين كانوا يسكنون يثرب (المدينة)، بل إنه غلب اسم "أهل الكتاب" على النصارى كما يفيد القسطلاني. ويثبت ذلك أن أحد زعماء الأوس يوم وفد الهجرة النبوية إلى المدينة كان يدعى "أبا عامر الراهب" ، وفي إسمه إشارة إلى دينه ، فهذا قد حارب نبي الإسلام في "أحد" ثم خرج مع آله إلى ثقيف وهو الذي سماه نبي الاسلام ب "الفاسق" (١٨).

وكان النساطرة قد أقاموا في يثرب "مطروبوليطا" وذكر كذلك في التقويم القديم للكنيسة الكلدانية أنه كان في يثرب ثلاث كنائس على اسم ابراهيم الخليل، وأيوب الصديق ، وموسى الكليم.

وبقي النصارى في يثرب حتى بعد وفاة محمد عليه السلام كما يدل على ذلك قول حسان بن ثابت في داليته التي رثى بها نبي الإسلام: فرحت نصارى يثرب ويهودها لما توارى في الضريح الملحد (١٩).

ومن المرجح أن النصارى واليهود بقوا في المدينة الى عهد عمر بن الخطاب الذي أخرج الفريقيين من جزيرة العرب استنادا إلى ما روى في الحديث :"لأخرجن النصارى واليهود من جزيرة العرب".

وكما عرفت يثرب النصرانية في عهد الجاهلية كذلك عرفتها مكة. وأقدم ما رواه كتبة العرب عن النصرانية في مكة هو ما ورد بصدد تاريخ "جرهم الثانية". فقالوا أن "جرهم" استولوا بعد بني اسماعيل على الحجاز ، وصارت إليهم سدانة بيت الحرام في مكة ، ومفاتيح الكعبة. أما زمن ذلك فلم يتفق المؤرخون المسلمون عليه ، فيما العلماء الأوربيون اجمعوا على أن "جرهم" الثانية قامت قبل تاريخ الميلاد بقليل. ومما رواه مؤرخو العرب كابن الأثير ، وابن خلدون وغيرهما أن سادس ملوك جرهم يدعى باسم نصراني وهو عبد المسيح بن باقية بن جرهم ، ويستنتج الأب لويس شيخو من ذلك أنه "يتعين أن النصرانية دخلت مكة قبل بني الأزد ، وتغلب بني خزاعة ، أعني بعد موت وقيامة السيد المسيح بزمن قليل. وهذا يوافق نصوص الكتبة المروية سابقا عن تبشير رسل المسيح في الحجاز". ويؤكد أبو الفرج الاصفهاني (٢٠) أن بيت الحرام كان له في عهد بني جرهم "خزانة

وهي بئر في بطنه يلقى فيه الحلى والمتاع الذي يهدي له ، وهو يومئذ لأسقف عليه"، ويأتي ذلك إثباتا لما روى مؤرخو العرب عن نصرانية الملك الجرهمي عبد المسيح بن باقية.
ونقرأ في كثير من تواريخ مكة ، بل وفي السيرة ما يطابق النص التالي :"فلما كان يوم فتح مكة دخل رسول الله صلعم ، فأرسل الفضل بن العباس ابن عبد المطلب ، فجاء بماء زمزم ، ثم أمر بثوب فبلّ بالماء ، وأمر بطمس تلك الصور فطمست. قال: "ووضع كفيه على صورة عيسى بن مريم وأمه عليهما السلام. وقال: امحوا جميع الصور الا ما تحت يدي فرفع يديه عن عيسى ابن مريم وأمه ... وحدثني جدي قال: حدثنا داود عن عبد الرحمن عن ابن جريج قال: سأل سليمان بن موسى الشامي ، عطاء بن أبي رباح وأنا أسمع: أدركت في البيت تمثال مريم وعيسى ؟ ..قال :نعم ، أدركت فيها (كذا) تمثال مريم مزوقا في حجرها عيسى ابنها قاعدا مزوقا. وكان في البيت أعمدة ست سواري (كذا) ... ... قال: وكان تمثال عيسى بن مريم ومريم عليها السلام في العمود الذي يلي الباب. قال ابن جريج: فقلت لعطاء: متى هلك ؟ .قال: في الحريق في عصر ابن الزبير ..قال ابن جريج :ثم عاودت عطاء بعد حين فخط لي ست سواري كما خططت ثم قال :تمثال عيسى وأمه عليهما السلام في الوسطى من اللاتي تلين الباب الذي يلينا اذا دخلنا"(٢١).
وقد روى مثل هذا النص الزرقي ، والهروي ، والبيهقي وابن العربي ، وفيه شاهد أكيد على تنصر قسم من قريش في مكة. بل وإن اليعقوبي ذكر في تاريخه: "أما من تنصر من أحياء العرب فقوم من قريش من بني أسد بن عبد العزى ، منهم عثمان بن الحويرث بن أسد ، وورقة بن نوفل بن أسد"(٢٢).
وفي الأغاني يطالعنا بيت من الشعر ل "عدي بن زيد" يقول فيه: سعى الأعداء لا يألون شرا عليك ورب مكة والصليب (٢٣).
هذا مما يثبت نفوذ النصرانية في مكة بروز نهضة "الحنيفية" وهو أمر سنبحث فيه لاحقا.
ولم تخلى بقية مدن الحجاز من آثار النصرانية كالطائف وعكاظ ، وإذا وصلنا إلى بلاد نجد نرى في تاريخها عدة قبائل عرفت بتدينها بالمسيحية ك "طيء"، و "السكون"،
و "السكاسك"، وكندة.



الاسلام والبدع النصرانية

والآن ، كيف تعامل الإسلام مع البدع النصرانية؟ ...! هنا لا بد من البحث بشيء من التفصيل في "الحنيفية" وفي كيفية نشوئها. إنما قبل ذلك لابد من استذكار خارطة الصراع بين الشيع النصرانية.

رأينا إذا ، كيف أن حرب البدع النصرانية تأججت في الشرق بين أبيونيين وأريوسيين وبيلاجيوسيين ومانويين ومريميين وكسائيين ونساطرة ويعاقبه. وكان رهبان هذه البدع يتسابقون لنقل الصراع من جهات بلاد الشام والعراق وأطراف الجزيرة العربية إلى عرب البادية ومن ثم إلى الحجاز التي كانت قد عرفت الأبيونية والأريوسية في القرون الأولى للميلاد ويمكن ايجاز خارطة البدع ... المنتشرة في المحيط على الشكل التالي: في بادية الشام يعاقبة ونزاريون

- في مصر والحبشة أقباط من أصل نسطوري
- في اليمن أريوسيون ونساطرة ويعاقبه (على بدعة اوطيخا)
- في البحرين وقطر نساطرة
- في الأحساء نساطرة
- في العراق حرب بين النسطورية في النصف الشرقي المتاخم لبلاد فارس (ايران حاليا) ، واليعاقبة في النصف الغربي لملك الروم ، أي من شرقي "الموصل" حتى "الرها" وتخوم "حلب" و "حماة" و "حمص".
- والجزيرة في شمال سورية ، كانت المسيحية الملكانية هي السائدة فيها أولا ، ثم تبدلوا إلى يعاقبه في أواسط القرن الخامس للميلاد.

وكان طبيعيا أن يتركز صراع المحاور في الحجاز التي شهدت نهضة الحنيفية التي تستند استنادا تاما إلى البدعة الكسائية ، كما سيأتي تفصيل ذلك لاحقا.

ولقد أشار الخطاب القرآني صراحة - كما اسلفنا - إلى انقسام النصارى من بني اسرائيل ، الضاربين في مكة والحجاز ، فجاء قوله: "ومن الأحزاب من ينكر بعضه" (٢٤).

كذلك قوله: "كل حزب بما لديهم فرحون".

وقد خشي بني الإسلام أن يسهم هو نفسه في توسيع رقعة الخلاف، فجاء في البيان القرآني قوله: "إني خشيت أن تقول مزقت بين بني اسرائيل" (٢٥). ولكنه رفض أن يفرق بينها بل سعى لتوحيدها فجاء في البيان القرآني قوله: "لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون" (٢٦) ... ...

وفي رأيه أن القاسم المشترك بين هؤلاء: أن كلا منهم "آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله. لا نفرق بين أحد من رسله" (٢٧).

ولقد دققنا في جوهر العقيدة الإسلامية لوجدنا أنها تتوافق أو تتعارض مع الشيع النصرانية على الوجوه التالية:

أ - توافقت مع "الأبيونية" في أن العذراء مريم حبلت بالمسيح بفعل الروح القدس وبأنه فعل المكرمات ونال الفضائل وبأن له طبيعة واحدة بشرية.

ب - وخالفتها في أنه مولود من يوسف وأن الله اختاره ابنا له يوم عماده .

أ - توافقت العقيدة الاسلامية مع" الأريوسية "في أن المسيح كان شخصا عاديا ، وأن المسيح وروح القدس ليسا أقنومين في سر الثالوث.

ب - وخالفتها في أن المسيح ابن الله (ولو أنه غير مساو له في الجوهر) .

أ - توافقت العقيدة الاسلامية مع "البيلاجوسية" في نقضها للخطيئة الأصلية ، وفي أن الانقياد للشهوة ليس اثما ولا شرا. إنما اخضع الإسلام الشهوة للقوننة. فالزنا محرم ، لكن الزواج مباح من أربع ومما ملكت يمين الرجل وكذلك هنالك زواج المتعة.

ب - وخالفتها في ما ذهبت اليه من أن نعمة الله ليست ضرورية للإنسان ليعمل بوصايا الله بل تكفيه حريته الشخصية.

- ولم تقبل العقيدة الاسلامية بقول النساطرة أن المسيح مجرد هيكل لله.
- رفضت العقيدة الاسلامية في جوهرها بدعة "أوطيخا" جملة وتفصيلا.
- كذلك رفضت العقيدة الاسلامية في جوهرها البدعة "اليعقوبية" ونبذتها تماما كما نبذت كافة البدع "المونوفيزية" التي تؤمن بطبيعة ومشيئة إلهية واحدة للمسيح. كما رفضت البدعة المريمية القائلة بتألية العذراء مريم.

ويكون بذلك مجموع ما أخذ به الإسلام من البدع المسيحية: إن الله واحد لم يلد ولم يولد ولم يتألم ولم يمت ولم يصلب وأن المسيح رسول كغيره من الرسل وفي أن الانقياد للشهوة ليس حراما اذا تم ضبطه بحدود شرعية ، وأن العذراء مريم واجبة التكريم لكونها أم المسيح الذي هو كلمة الله وروحه. والواقع أن موقف الاسلام من البدع تبلور في الحنيفية التي استندت الى القاعدة الكسائية، فقد أخذت الحنيفية من البدع ما ذكرناه آنفا إضافة الى ما أخذته من المسيحية الكاثوليكية من بعض الشرائع والعبادات (وسنرى ذلك لاحقا). ولا بد هنا من التفصيل في الحنيفية وعلاقتها بالكسائية ونهوضها كمذهب أصولي أخذ صفة الدين.

الحنيفية والكسائية

لا أريد الإفاضة في الحديث عن القس ورقة بن نوفل مطران مكة والدور الذي كان له في ارشاد نبي الاسلام محمد عليه السلام فقد سبقني الى ذلك عدد من الكتاب والباحثين، وبعضهم غالى في أبيونيته ، والبعض الآخر غالى في أريوسيته. كذلك لم تخل كتب السيرة النبوية ومجلدات الحديث من بيانات حول دور هذا القس ومكانته عند المسلمين ونبيهم الكريم. ففي "صحيح البخاري بشرح الكرماني" (١:٣٨) نقرأ ما يلي: "ولم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي" (٢٨). كذلك امتدحه نبي المسلمين بعد موته إذ قال: "أبصرته في بطنان الجنة وعليه السندس" وفي رواية أخرى قوله: "اني رأيت له جنة أو جنتين" (٢٩). ومن الثابت باديء الأمر أن الرجل (القس ورقة بن نوفل) كان ينقل من الإنجيل العبراني ، وهو انجيل متى بالآرامية. إنما كان هذا الإنجيل منقوصا ومحرفا ، انما من الثابت أيضا أن ورقة كان من الأحناف (٣٠) فمن هم هؤلاء الأحناف. وما هي الحنيفية؟ :

كان القس ورقة بن نوفل ، قبل إعلان الرسالة الإسلامية، يتحنث في غار حراء مع عبد المطلب ، جد نبي الاسلام ، وعثمان بن الحويرث ، وعبيد الله بن جحش ، وأبي بكر (ابن أبي قحافة) ، وأبي أمية بن المغيرة ، وغيرهم .... وهذا ما أكدته السيرة الحلبية وغيرها. والتحنث هو التحنف والتبرر والتعبد في الليالي الطوال وإقامة أعمال البر والإحسان.

ويقوم ذلك على الصيام شهرا كاملا في السنة، وعلى إطعام الجياع والرأفة بالمساكين ، وعلى التخلي عن الناس ، والإنقطاع الى الله والتفكر فيه ، ويقوم أيضا على اعتزال عبادة الأوثان ، والإمتناع عن أكل الذبائح المقربة إاليهم وقراءة الكتب المقدسة والتأمل في قصصها وأخبارها. والأخذ بالختان ، والحج إلى البيت، والغسل من الجنابة ، وتحريم الخمرة وما أهلّ لغير الله.

وبمثل هذه الصفات وصفت كتب السيرة والاخبار والحديث القس ورقة بن نوفل ، إضافة الى من ذكرناه معه آنفا ، ويضاف إليهم أبو طالب ، ورباب البراء. وأسعد بن كريب الحميري. وقس بن ساعدة الأيادي ، وأبي قبيس بن صرمة ، وغيرهم .... والواقع أن محمدا عليه السلام تحنث معهم غير مرة في غار حراء عندما رافق جده عبد المطلب.

يقينا أن القرآن أورد كلمة "حنيفا" عشر مرات وأورد كلمة "حنفاء" مرتين وفي كل هذه المرات وردت "الحنيفية" نعتا وليس إسما. وقد أوردها البيان القرآني صفة لابراهيم الخليل وملته وأتباعه الذين لم يشركوا بالله أحدا .

"حنفاء لله غير شركين به" (٣١). أي أنهم على التوحيد المطلق. "وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين" (٣٢). والحنيفية عودة الى الفطرة الربانية. وكأنها بذلك تنشىء أول حزب

أصولي ، فلا اتباعا لكليم الله موسى ولا لمسيح الله كلمته وروحه: "ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما" (٣٣). وكذلك قوله: "فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها" (٣٤). وهو يريد من ذلك ايمانا بسيطا لا غش فيه ولا مواربة، ولا خوض في "تعقيدات اللاهوت" وفي فلسفة الأقانيم.

أما "الحنيفية" في كتب السير والأخبار: فتدل على جماعة من العرب لم يشركوا بالله - كالمرتبين - ولم يعبدوا الأصنام. وينقطعون إلى ذكر الله وشكره والصوم والحج له وايتاء الصدقات للمساكين وأبناء السبيل.

إنما نلاحظ في "مسند ابن حنبل" (٣٥) .... نص الحديث التالي المسند إلى نبي الاسلام عليه السلام وفيه يقول: "ولم أبعث باليهودية - ولا بالنصرانية - ولكني بعثت بالحنيفية السمحة". ونرى أن لفظة " - ولا بالنصرانية - " قد وردت بين معترضتين مما يرجح الشك بزيادتها وإضافتها في عهد الفتوحات الإسلامية ، عندما أصبح للمسلمين موقف معاد عامة من النصارى.

ونلاحظ أيضا قول الطبري في تفسيره لسورة البقرة: "وكان الناس من مضر يجحون البيت في الجاهلية ويسمون حنفاء" (٣٦).

وإذا ، فإن ما يشير إلى أن الحنيفية تعني هي نفسها النصرانية ، ونستكمل التقصي عن الدليل فنجد أن أهل الحديث والأخبار اعتبروا عددا من الرهبان والنصارى في جملة الأحناف ، ومنهم قس بن ساعدة ، والقس ورقة بن نوفل ، وعثمان بن الحويرث ، الملقب بالبطريق. وقد نص المحدثون على حنيفيتهم كما نصّوا على نصرانيتهم ، بل إن نبي الإسلام يقول في حديث له عن قس بن ساعدة: "هذا رجل من أياد تحنف في الجاهلية" (٣٧). وفي "مروج الذهب" للمسعودي ذكر ل "حنظلة بن صفوان" ، و "خالد بن سنان العبسي" ، و "رئاب الشفي" و "أسعد أبي كرب الحميري" و "قس بن ساعدة الأيادي" و "أمية بن أبي الصلت الثقفي" ، و "ورقة بن نوفل" و "عداس النينوي" و "أبي قبيس" و "صرمة أبي أنس الأنصاري" و "أبي عامر الأوسي" و "عبد الله بن جحش" و "بحيرا الراهب" وقد صنفهم المسعودي على أنهم "من الأحناف كما من النصرانية" (٣٨).

هذا يعني أن" الحنيفية "كانت تطلق على جماعة من النصارى أرادت العودة إلى فطرة الله والانصراف إلى عمل الخير ، وكأني بهذه الجماعة هي فئة الكسائيين. فالبيان القرآني يصف افرادها ب "الراسخين في العلم" (٦٠). لكونهم أصلا من علماء النصارى ، وكذلك ب "الذين جاءهم العلم".

نعم ، فللعلم في القرآن ولأهل العلم منزلة رفيعة كتلك التي يحتلها الكسائيون من النصارى. فهؤلاء لكثرة ما يعرفون عن الحق تراهم خاشعين باكين: "ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق". ويقوم علمهم على معرفة الكتاب بتمامه وكماله فهم "الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم". وهم أنفسهم أصحاب الاعراف يعرفون الناس بوجوههم: "على الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم" ، وهؤلاء من أصحاب العلم تكفي شهادتهم: "قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب" (٣٩). وإذا يرجح أن نقول عن الأحناف بأنهم "الكسائيون" المتجرون في الكتب. فالأوائل منهم كانوا يتحنثون مع جد نبي المسلمين عبد المطلب. وقد تواصل هذا التحنث بواسطة محمد وأبي بكر الصديق ورباب البراء وأبي قبيس وغيرهم.

وهناك من يربط الحنيفية بسكان "اليمامة" قبل الإسلام ، وهم بنو حنيفة الذين كان الكتبة المسلمون يشهدون على نصرانيتهم ، ولكن ذلك مستبعد لأن أهل اليمامة من النصارى قاوموا المسلمين تحت قيادة مسيلمة ، الذي عرف ب "الكذاب". ولكن ذلك لا ينفي أن تكون الحنيفية في الجاهلية شيعة نصرانية (الكسائية ـ مثلا)، وأنه خالطها تعاليم من غيرها، حتى أن شعراء الجاهلية كانوا يريدون ب "الحنيف" الراهب الناسك. وفي ذلك قول شاعر هذيل:

كأن تواكبه بالملا نصارى يساقون لاقوا حنيفا

وروى الأصفهاني وياقوت الحموي لأيمن بن خريم قوله في وصف الخمرة: وصهباء جرجانية لم يطف بها حنيف ولم ينفر بها ساعة قدر ولم يشهد القس المهيمن نارها طروقا ولا صلى على طبخها حبر .

والحنيف هنا ولا شك الراهب بدليل ذكره في البيت الثاني (القس ...والحبر). بل ان في شعر جرير ما يؤكد بأن الحنيفية شيعة نصرانية ، وذلك حين يهجو بني درهم اصهار الفرزدق.

وحالفتهم للؤم يا آل درهم حلاف النصارى دين من يتحنفا

أما كيف تعاملت الحنيفية أو الكسائية مع باقي الشيع النصرانية ، فذلك ما يرويه البيان القرآني كما ترويه مجلدات التفسير.

ففي "اليعاقبة" ورد في الخطاب القرآني قوله: "لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم". واليعاقبة كما أوردنا قالوا بأن العذراء مريم ولدت الها بمشيئة واحدة وطبيعة واحدة. ثم روى البيان القرآني عن المسيح أنه قال: "يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم " وذلك تنبيه من القرآن على ما هو "حجة قاطعة" على فساد قول اليعاقبة "لأن المسيح لم يفرق بين نفسه وبين غيره في أن دلائل الحدوث ظاهرة عليه" (الرازي).

والواقع أننا نجد في الرد القرآني على اليعاقبة مقالة الرد النسطورية والتي كانت شائعة في كنائسهم ، نقلا عن السيد المسيح ، فانطر قوله: "وقال المسيح يا بني اسرائيل إعبدوا الله ربي وربكم" (٤٠)وقوله: "إني صاعد إلى أبي وأبيكم، الى الهي والهكم" (٤١) (يوحنا ٢٠:١٧).

ثم إن الحنيفية ترد على "الملكانية" ومن ذلك قوله: "لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد" (٤٢). وهو الاتهام نفسه الذي يوجهه النساطرة إلى "الملكانية" ومقالتهم في ذلك تقول: ليس الله ثالث ثلاثة الآب والإبن والروح القدس. فالإبن والروح ليسا بإلهين من دون الله حتى يكون الله ثالثهما.

وثمة صورة أخرى عن تهمة (الثلاثة) "الله والمسيح ومريم" : "ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل. وأمه صديقه. كانا يأكلان الطعام. أنظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أني يؤفكون" (٤٣). وهذه أيضا من لائحة اتهام النساطرة لبدعة "المريميين" أو "الفطائريين" والذين ـ كما أسلفنا ـ كانوا يقدمون فطائر من عجين قربانا للعذراء مريم. والرد لا يتناول "المريميين" فحسب وإنما "اليعاقبة" أيضا. وتفسير الإتهام كما يسوقه الرازي ان كل من كان له أم فقد حدث بعد أن لم يكن ، وكل من كان كذلك كان مخلوقا لا إلها .وأن المسيح وأمه كانا محتاجين إلى الطعام اشد الحاجة. والإله هو الذي يكون غنيا عن جميع الأشياء فكيف يعقل أن يكون إلها. والواقع أن هذا الخطاب يستند الى مقالة النسطورية وليدة الأريوسية التي تسربت الى المدينة من الحيرة. لقد

وافق الأحناف على أن المسيح كلمة الله وروح الله ، لكنهم نبذوا التعبير: "إله" و "ابن الله"، لما فيه من شبهة على خالص التوحيد.

وختام دعوة الأحناف تتبنى المقالة النسطورية ، فتطلب إلى اليعاقبة والملكانيين والمريميين أن ينبذوا غلوهم في إكرام المسيح وأمه: وفي ذلك جاء في الخطاب القرآني قوله: "قل يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم غير الحق ، ولا تتبعوا اهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيرا ، وضلوا عن سواء السبيل" (٤٤).

ولقد أردت من كل ما ذكرت آنفا أن أصل إلى أن التثليث المسيحي ليس هو التثليث الذي يذكره الخطاب القرآني في تعابيره الأربعة:

- "ثلاثة" في قوله "ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد..." (٤٥).
- "الله ثالث ثلاثة" في قوله: "لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة" (٤٦).
- "الله هو المسيح ابن مريم" في قوله: "لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم..." (٤٧).
- "عيسى وأمه إلهان من دون الله" في قوله: "واذ قال الله عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله.."(٤٨).

فهذه التعابير تفيد نكران وحدانية الله وتعدد الذات الإلهية ، وإيجاد ثلاثة آلهة أي ، إلهين غريبين مع الله هما الانسان عيسى ابن مريم وأمه. وهذا التثليث كفر محض ينكره الأنجيل كما ينكره القرآن. فقول كهذا في الخطاب القرآني يعني ثلاثة آلهة ، ويعني تعدد الذات الإلهية ، وهذا لا أثر له في الانجيل والخطاب القرآني بهذه الصفة لا يخاطب أهل الإنجيل وانما أهل البدع كالمريمية واليعقوبية فلا الإنجيل علم، ولا المسيح قال للناس: "اتخذوني وأمي إلهين من دون الله" (٤٩).

لا ينتقص من أهمية الاسلام ولا من مكانته كدين ، كما لا يزيد في المسيحية كحركة حياة أن تنقصّى عن الثانية في الأول. فالإسلام -كما أنبأنا- القرآن- دين توحيد ، وبتوحيده شهد الأنبياء جميعهم ، فإبراهيم الخليل وأبناؤه مسلمون ، وذريته بفرعيها -من إسحق وإسماعيل- مسلمة ، والأسباط مسلمون ، والنبيون ما بين موسى والمسيح مسلمون. والمسيح نفسه وأنصاره الحواريون مسلمون. هكذا أبلغنا الخطاب القرآني، وبرر لنا الإسلام على أنه يوحّد بين كل الأديان. وعلى هذا الأساس يفترض أن تنتهي تعاليم اليهودية والمسيحية في جوهرها إلى ما آلت إليه تعاليم الإسلام. فإذا تقصينا عن آثار المسيحية أو النصرانية في اللوحة الدينية الإسلامية ، فان ذلك من باب التوفيق والجمع ، لا التلفيق بقصد المجاملة. وفي سبيل تمهيد المجرى لتيار تتفاعل فيه الأفكار بصدق وموضوعية بعيدة عن التعصب ، وبما يساعد على تقريب الصورتين وتطهيرهما في صورة مستقبلية واحدة.



هوامش البحث

١- سورة النساء ـ ٦٥

-2 قيل عن القس ورقة بن نوفل أنه "كان على دين موسى ثم صار على دين عيسى عليهما الصلاة والسلام ، أي كان يهوديا ثم صار نصرانيا" (سيرة ابن

٣- " القس هو رئيس النصارى". ورد هذا التعريف في " السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٦٣).

-4 ورد في "تاريخ اليعقوبي" (ج١: ٢٥٧) قوله: "وأما من تنصر من أحياء العرب ، فقوم من قريش من بني أسد بن عبد العزى ، فمنهم عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى، وورقة بن نوفل بن أسد".

٥- سورة المائدة ـ ١١٦

٦- سورة المائدة ـ ٨٣

٧- سورة العنكبوت ـ ٤٢

٩- معجم البلدان ل"ياقوت الحموي) "ج٤ ـ ٧٥٢(

٩- ذكر ذلك أيضا ابن خلدون في كتابه" العبر "ج٢ ـ ٥٩

١٠ - سيرة ابن هشام (ص ٢٠)

١١- من رسالة شمعون أسقف بيت أرشام نشرت في مجلة Lincei - الجزء الخامس عام ١٩١٠.

١٢- راجع "النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية " ل "الأب لويس شيخو" (ص ٦٤) وقد استدل عليها من شعر الأعشى اذ قال يكلم ناقته: وكعبة نجران حتم عليك حتى تناخي بأبوابها تزور يزيدا وعبد المسيح وقياساهم خير أربابها اذا الحبرات تلوّت بهم وجروا أسافل هدّابها

١٣- ابن خلدون "العبر" (ج٢: ٢٤٩)

١٤- معجم البلدان ليلقوت الحموي (ج٤: ٥٧١)

١٥- راجع تاريخ الطبري (ص١٠٧)

١٦- الملل والنحل ل "الشهرستاني" (ص ٤٣٤ـطبعة لندن)

١٧- راجع "السيرة" لأبن هشام (ص ٥٦١ ـ ٥٦٣)

١٨- دالية حسان بن ثابت (طبعة لندن ـ ص ٥٩)

١٩- الأغاني(جز ١٣ ص ١٠٩)

٢٠- راجع كتاب أخبار مكة للازرقي (ص ١١١)

٢١- تاريخ اليعقوبي (ج ١ ص ٢٩٨ ـ طبعة لندن)

٢٢- الأغاني (جحص ٢٤)
٢٣- سورة الرعد (آية ٣٦)
٢٤- سورة طه(94)
٢٥- سورة آل عمران (٨٤)
٢٦- سورة البقرة (٢٨٥)
٢٧- صحيح البخاري بشرح الكرماني (ج ١:٣٨)
٢٨- السيرة الحلبية (ج١-ص ٢٧٤)
٢٩- مات القس ورقة بن نوفل في السنة الرابعة ل "المبعث" (السيرة الحلبية ج١ ص٧٤)
٣٠- سورة الحج (الآية ٣١)
٣١-سورة يونس (الآية ١٠٥)
٣٢- سورة آل عمران (الآية ٦٧)
٣٣-سورة الروم (الآية ٣٠)
٣٤- مسند ابن حنبل (ج٤ص ١١٦)
٣٥- تفسير الطبري (ج ح-ص ١٣٥)
٣٦-طبقات ابن سعد (ج١ص ٥٥)
٣٧- مروج الذهب - المسعودي (ج١-ص ٧٨ وما بعدها)
٣٨- سورة الرعد (الآية ٤٣)
٣٩- سورة المائدة (الآية ٧٢)
٤٠- انجيل يوحنا (١٧:٢٠)
٤١- سورة المائدة (الآية ٧٣)
٤٢- سورة المائدة (الآية ٧٥)
٤٣- سورة المائدة (الآية ٧٦ - ٧٧)
٤٤- سورة النساء (الآية ١٧٠)
٤٥- سورة المائدة (الآية ٧٣)
٤٦- سورة المائدة (الآية ٧٢)
٤٧- سورة المائدة (الآية ١١٥)
٤٨- المصدر السابق نفسه



موقف نبي الاسلام من المسيحية

لا بد من التوضيح أولا بأن كثيرا ممن أرّخوا للإسلام وللسيرة النبوية، وكتبوا أبحاثهم الفقهية قد أساءوا إلى حقيقة موقف نبي العرب محمد عليه السلام من المسيحية. فنبي العرب لم يعاصر سوى أصحاب البدع النصرانية من يعاقبه ومريميين ونسطوريين ومانويين وأريوسيين وأبيونيين وبيلاجوسيين وغيرهم .وكافة هذه البدع كانت بعيدة عن المسيحية في أصولها كما أسلفنا في بحثنا السابق ، وكان مدعوا في بداية رسالته للتحكيم بينهم. وحسم خلافاتهم واختصت ، من القرآن بذلك، سورة الأحزاب. ومع أنه لا يمكن إنكار دور اليهود في تشجيع أصحاب البدع تلك ، وفي الإيقاع بينهم في الآن ذاته ، فإن محمدا قد فطن إلى ضرورة التوفيق بينهم على قاعدة التماس القواسم المشتركة وإغفال الفروق غير الجوهرية. وقد نجح في ذلك عبر "الإسلام" الذي طغى على تلك البدع واعتبره دينا واحدا لكافة الأديان والمذاهب.

لكن موقف نبي العرب من أصحاب البدع النصرانية هذه ، أسقطه مؤرخو الإسلام وفقهائه على الأصول. فأصبح موقفه من البدع وأصحابها - حسب تفاسيرهم - موقفا من المسيحية في تعاليمها الأصولية. وهكذا فإن تعصب المحدثين من العلماء المسلمين نجم عن ذلك الجهل القديم. ومع أن القرآن يرد على أصحاب البدع التي تقول بالطبيعة الواحدة وغير ذلك فإن كثيرا من العلماء المسلمين يفصلون هذه الردود نفسها على قياس المسيحيين الذين حافظوا على تعاليم المسيح. ولن استرسل في هذا المجال لأنني سأفصّل ذلك في بحث مستفيض آخر ، انما سأحصر همي هنا في مسألة الصليب بالذات. ما هو الصليب ؟ ..ماذا كان يعني للنصارى في صدر الاسلام (حيث البدع النصرانية كانت هي السائدة)؟ وماذا يعني للمسيحيين بعد قضائهم على هذه البدع؟ ..ولماذا استمر المسلمون في غالبيتهم ينظرون الى الصليب على أنه وثن يعبد مع أنه ما من مسيحي يعبد الصليب ؟!

قبل الإجابة على هذه الأسئلة لا بد أن أطمئن ذلك الأخ المسيحي الذي أبدى استياءه من الامام الذي خطب في صلاة الجمعة واستشار المسلمين لمحو شارة الصليب من كل مجالات حياتهم. فهذا الإمام المتعصب جاهل بموقف نبيه الكريم واليك الدليل:

لو سألت هذا الامام نفسه عن النقد الذي كان يتداوله المسلمون في صدر اسلامهم ، لذكر لك بأنه الدرهم والدينار ، بل إنه سيعترف أيضا بأن نبي المسلمين عليه السلام كان من بين المتداولين بهذا النقد. ولو سألته عن المصدر الذي سك هذا النقد لوجدته يعترف لك ببراءة أن العرب المسلمين في

ذلك العصر ما كانوا يسكّون النقد بل كانوا يتداولون النقد الرومي حتى عام ٧٦ للهجرة الموافق ل ٦٩٥ ميلادية ، أي حتى عهد عبد الملك بن مروان.
ولكن لو سألته عما نقش على هذا النقد الرومي الذي كان يتداوله حتى نبي الإسلام نفسه لوجدته يجهل ، والواقع أن النقد الرومي الذي كان يتداوله نبي الإسلام عليه السلام يحمل شارة الصليب ونجد قطعا من هذا النقد محفوظة من عهد هرقل إلى اليوم في الخزائن الأوروبية. وعلى هذا النقد صورة هرقل وهو قائم بشاراته المسيحية وعلى رأسه التاج يعلوه الصليب ، وبيده اليمنى صليب أكبر، وفي اليسرى كرة الأرض يرتفع منها في الوسط صليب صغير، وفي أحد الوجهين حرف M وهو سمة النقود. وفوق هذا الحرف تجد الأحرف الأوائل من إسم المسيح. كما تجد في الوجه الآخر إسم المدينة التي ضرب فيها النقد والسنة. ويشاهد الملايين في دار النقود بباريس عدة قطع من الدراهم والدنانير وعليها أسم دمشق وتحمل تاريخ ١٧و١٨ للهجرة أي ٦٣٨و٦٣٩م. وأخرى ضربت في حمص وبعلبك وطبريا والصليب موجود في جميعها.
إنما ليس أمام المسجد المشار إليه وحده الذي جاء تعصبه عن جهل ، فقد سبقه علماء وقعوا في المأزق نفسه ، إنما تعصبهم لم يكن عن جهل بل عن كراهية مقيتة كانت تزيد في الهوة بين المسلمين والمسيحيين، ومن بين هؤلاء المقريزي مثلا، فقد دخلت النقود المسيحية مدينة القاهرة وعمت سائر البلاد والأمصار في أيام المماليك نحو عام ٧٩٠ للهجرة - ١٣٨٨م .وكانت الصلبان مرسومة على هذه النقود ومع ذلك كتب المقريزي في شهر صفر ٨١٠ للهجرة (١٤٠٧م) ما يلي:
"الذهب ثلاثة أصناف ، وهي الذهب الهرجة ....وهو الذهب الإسلامي الخالص من الغش ....والصنف الثاني ذهب يقال له الإفرنتي ، والإفلوري والبندقي والوكاه وهو يجلب من بلاد الافرنج. وعلى أحد وجهيه صورة إنسان في دائرة مكتوبة. ولم يكن يعرف هذا الصنف قديما مما يتعامل به الناس ، وإنما حدث في القاهرة من حدود سنة تسعين وسبعمائة (١٣٨٨م) وكثر حتى صار نقدا رائجا ، وبلغ إلى مائتي درهم وثلاثين درهما من الفلوس كل دينار منه ، ووزن كل مائة دينار من هذا الذهب أحد وثمانون مثقالا وربع مثقال. غير أن الناس قصوه حتى يخف وزنه. واستقر ثمانية وسبعين وثلثا .. والنوع الثالث الذهب الناصري وهو الذي ضربه الملك الناصر فرج" (١).
وكان يقال للذهب البندقي: الذهب المشخص ، بسبب الصور التي تعلو وجهيه. وقد ذكر العيني في تاريخه في أخبار سنة ٨١٣ (١٤١٠م) أن الإفرنتي الذي عليه الصلبان "تحسن سعره جيدا وبلغ مائتي درهم من الفلوس الجدد" (٢). ولذلك رأى المقريزي إنكاره لوجود شعار "الكفر" عليه ، فذكر بتاريخ صفر ٨٢٩ للهجرة (١٤٢٥م) ما يلي:
"جمع السلطان الأمراء والقضاة وكثيرا من التجار ، وتحدث في أبطال المعاملة بالذهب المشخص الذي يقال له الفرنتي ، وهو من ضرب الفرنج، وعليه شعار كفرهم الذي لا تجيزه الشريعة المحمدية. وهذا الإفرنتي كما تقدم ذكره قد غلب في زمننا من حدود سنة ثمان مائة (٩٨ - ١٣٩٧م) على أكثر مدائن الدنيا من القاهرة ومصر وجميع أرض الشام. وعامة بلاد الحجاز واليمن حتى صار النقد الرائج ، فصوّب من حضر رأي السلطان في إبطاله. وأن يعاد سبكه بدار الضرب. ثم يضرب على السكة الإسلامية"(٣).

في قول المقريزي إذا إن الشريعة المحمدية لا تجيز التعامل بمثل هذا الذهب وعليه "شعار الكفر" أي الصلبان كذب فاضح لا يخفى على البصير. لأن النقود التي كانت بين أيدي الأنصار والصحابة والتابعين والخلفاء الراشدين والأمويين إلى أيام عبد الملك كانت كلها مضروبة بمثل هذا الشعار ، كما سبق لنا إثباته. وقد فات المقريزي حين وضع رسالته في النقود الإسلامية ، وأشار إلى الدنانير التي أمر معاوية بضربها وعليها صورته قائما أنه ضرب أيضا فلوسا بمثل هذه الصورة، وعلى الوجه الآخر منها شكل الصليب وسط دائرة صغيرة. واقتدى به عبد الملك بن مروان ومن كلا النقدين قطع محفوظة إلى اليوم في المتاحف الأوروبية .وفي زعمه أن الصحابة لم ينكروا من نقود معاوية "سوى نقشها ، فان فيه صورة" ولكنه أقر بأن سعيد بن المسيب "كان يبيع بها ويشتري ولا يعيب من أمرها شيئا" وسعيد هذا من أشهر الرواة. فكيف ارتضى صائغو الشريعة المحمدية بمثل الدنانير الهرقلية والفلوس الأموية مع وجود الصلبان فيها ، ولم يروا حرجا في التعامل بها ، ويجيء بعدهم قوم يستجيزون لأنفسهم الحق بتحريم ما أقره السلف الأول بل صاحب الشريعة نفسها ؟!

وما عسى المقريزي كان يقول ، لو قام في زمانه بعض الملوك والأمراء ووجدوا من الفطنة في السياسة والرفق في التجارة أن يضربوا نقودهم وعليها "شعار الكفر" -حسب تعبيره- ليتداولها المسلمون والنصارى ، كما فعل بعض ملوك التركمان في مغنيسية وأفسيس ، وكانوا قد خالطوا اللاتين في الجزائر القريبة، وأدركوا مقدار الربح من مبادلتهم أصناف التجارات ، فرأوا من الحكمة ، والذكاء تسهيلا لهذه المقايضة أن يضربوا نقودا على مثال نقودهم لرواجها ، فاستدعوا الصناع الإيطاليين ، وكلفوهم بضرب نقد إسلامي لهم وعليها صورهم ، ونقشوا فيها الصلبان بأمر منهم ، وفي دوائرها كتابة لاتينية تعريبها: "ضربت هذه العملة في مغنيسية بأمر صاروخان" أو "ضربت في تولوغوس (افسس) بأمر عمر بك أمير أيدين".

إن مثل هذه النقود التي اكتشفها المكتشف المشهور "وود" في خرائب أفسس ، هي ولا شك من نوادر العملة ونفائسها ، لمكان صور الأمراء المسلمين فيها منقوشة "بشعار الكفر" وهي شاهدة بتدليس المؤرخين فيما شرحوه لنا من أخبار الإسلام، وسيلي في مكانه من البحث تدليس الإمام البيهقي والآخر الكسائي.



والقرطاس عليه الصليب

وليس النقد الذي تداوله المسلمون في صدر الإسلام وتداوله معهم نبي الإسلام محمد عليه السلام وحده الذي كان يحمل رسم الصليب. بل القراطيس أيضا.

نعم أن محمدا نبي الإسلام براء من تعصب غالبية مؤرخيه ومن تبعهم. إن الأعمى الذي يحمل سراجا لا يمكن أن يهدي غيره ولا يمكن أن يهتدي ...وكثير من المؤرخين والفقهاء قد أعماهم التعصب فدلسوا وزوّروا وحرّفوا في الحقائق التاريخية. وحان لنا أن نلتفت إلى هذا التشويه ونعيد كتابة التراث، إنصافا للحقيقة وللرجل الذي قوّلوه ما لا يمكن أن يقول ونسبوا إليه كثيرا مما لا يمكن أن يفعل. ولو بحثنا عن ذكر الصليب عند الأوائل من المحدثين والرواة فسنجد أمثلة على التدليس الذي ارتكبوه. ودعونا نستعرض المتون قبل أن نكشف عن موضع الدلس فيها:

في صحيح البخاري نجد حديثا واحدا ورد في باب كسر الصليب وقتل الخنازير وهذا نصه:

"حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، حدثنا الزهري قال ، أخبرني سعيد بن المسيب سمع أبا هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلعم قال: لا تقوم الساعة حتى ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد" (٤).

وفي سنن أبي داود ، باب في الصليب والثوب جاء فيه: "حديث عمران بن حطان عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلعم كان لا يترك في بيته شيئا فيه تصليب إلا قضبه" (٥). أي أنه عليه السلام - كما في حديث لعائشة - كان إذا رأى الصليب في ثوب قطع موضع الصليب منه. وفي الحديث نهى عن الصلاة في الثوب المصلب. وفي حديث عائشة أيضا .. .. "فناولتها عطافا فرأت فيه تصليبا فقالت: نحّه عني". وفي حديث أم سلمة أنها كانت تكره الثياب المصلبة.

وكل هذا منقول عن "النهاية في غريب الحديث والأثر" لابن الأثير (جزء أول ص ٣٧ المطبعة الخيرية).

وفي حديث عدي بن حاتم: "قدمت على النبي وفي عنقي صليب من ذهب فقال لي: الق عنك هذا الوثن" (٦).

ولا يمكن أن تكون كل هذه الروايات صحيحة. فقد ثبت لدينا - كما في أول البحث - أن محمدا عليه السلام لم يمنع تداول النقد الرومي مع أنه كان يحمل شارة الصليب في أكثر من موضع.

ثم إنه في حديث جرير جاء قوله: "رأيت على الحسن ثوبا مصلبا" (٧). كذلك فان نبي الإسلام قبل ساعات من وفاته في منزل أصغر زوجاته عائشة وبحضور عدد من صحابته خاطبهم بالقول: "أعطوني قرطاسا وقلما لأكتب لكم كتابا لا تضل بعده أمتي" (٨).

القراطيس كانت إذا موجودة في حياة نبي أمة الإسلام. وقد كتب رسالته إلى المقوقس على قرطاس ، ويراد بالقراطيس أوراق البردي التي كانت تصنع في مصر وترسل إلى كل البلاد بما فيها الجزيرة العربية ، وكان صناعها بمصر من مسيحيي الروم والأقباط ، وكانوا يرسمون عليها في الطراز قبل صقلها البسملة المسيحية وشارة الصليب بل إن الكسائي يعترف بذلك فيقول نقلا عن الرشيد :"كانت القراطيس للروم ، وكان أكثر من بمصر نصرانيا على دين الملك ملك الروم ، وكانت تطرز بالرومية وكان طرازها أبا وابنا وروح قديسا"(٩).

والواقع أن الذين نسبوا أحاديث إلى نبي الإسلام عليه السلام أو زوجته عائشة رضي الله عنها سبق لهم أن أساءوا للإثنين معا وبأحاديث من نمط آخر...

فأبو هريرة نقل عن نبي العرب قوله: "الكلب والمرأة والحمار تقطع الصلاة إذا مرت أمام المؤمن فاصلة بينه وبين القبلة" (١٠) ولقد استنكرت عائشة رضي الله عنها هذا التدليس وردت عليه بالقول: "تقارنوننا الآن بالحمير والكلاب...." (١١) .(تقصد النساء).

وإذا كان أبو هريرة رضي الله قد نسب إلى نبي العرب قولا يحشر المرأة المسلمة بين حيوانين داجنين ويضعها في مستوى الكلب والحمار. فان البيهقي ينسب إلى عائشة في اشتدراكها على أبي هريرة حديثا لا يقل خطورة عن الحديث السالف فقد أورد في سننه: "من حديث عائشة أنها قالت: كنت أنام بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجلاي في قبلته فإذا سجد غمزني فقبضت رجلي فإذا قام بسطتها ... قالت والبيوت يومئذ ليس فيها مصابيح" (١٢).

البيوت يومئذ ليس فيها مصابيح لكن عائشة ترى النبي يغمزها لترفع قدمها. هل يعقل أن تكون عائشة قد ذكرت ذلك ؟!! ومع ذلك فان البيهقي يورد استدراكها هذا على أبي هريرة.

أبو هريرة ينسب إلى نبي العرب أنه حطّ من مكانة المرأة فجعلها بين حيوانين داجنين وقارنها بالكلب والحمار ، والبيهقي في سننه نسب إلى نبي العرب أنه صلى فيما قدما زوجته عائشة في قبلته.

أبو هريرة والبيهقي ذاتهما هما اللذان نسبا إلى نبي الأمة موقفا من الصليب فيما أن الوقائع الثابتة تكذبهما من خلال تداول محمد عليه السلام نفسه للنقود الرومية التي تحمل الصليب وللقراطيس الرومية المطرزة بالتثليث والصليب وحتى الحديث القوي الوارد في صحيح البخاري لم يسلم من الجهل والتخلف ، ففي هذا الصحيح نقرأ مثلا الحديث التالي: "سوء الحظ يوجد في أشياء ثلاثة: البيت، المرأة، الفرس"(١٣).

والبخاري بهذا لا يختلف عن أبي هريرة والبيهقي. لقد استنكف حتى عن إيراد تصويب عائشة على أبي هريرة، بل أورد حديثا آخر ينسب إلى الإسلام موقفا مخزيا من المرأة فهو يروي عن نبي العرب قوله: "لم أترك بعدي أي سبب للفوضى أكثر شؤما للرجل سوى المرأة" (١٤).

والكسائي الذي يروي عن البيهقي لم يكن بعيدا عن التدليس ، ولا سيما في مسألة القراطيس.

يروي الكسائي عن البيهقي أنه ذكر ما يلي:

دخلت على الرشيد ذات يوم وهو في إيوانه وبين يديه مال كثير قد شق عنه البدر شقا، وأمر بتفريقه في خدم الخاصة، وبيده درهم تلوح كتابته. وهو يتأمله. وكان كثيرا ما يحدثني. فقال: هل علمت من أول من سنّ هذه الكتابة في الذهب ؟ قلت يا سيدي هذا عبد الملك بن مروان. قال فما كان السبب في ذلك ؟ قلت لا علم لي غير أنه أول من أحدث هذه الكتابة. فقال سأخبرك:

كانت القراطيس للروم ، وكان أكثر من بمصر نصرانيا على دين الملك ملك الروم. وكانت تطرز بالرومية. وكان طرازها: أبا وابنا وروحا قديسا. فلم يزل كذلك صدر الإسلام كله على ما كان عليه إلى أن ملك عبد الملك فتنبه عليه وكان فطنا. فبينا هو ذات يوم إذ مرّ به قرطاس ، فنظر إلى طرازه فأمر أن يترجم بالعربية ، ففعل ذلك فأنكره وقال: ما أغلظ هذا في أمر الدين والإسلام أن يكون طراز القراطيس وهي تحمل في الأواني والثياب وهما يعملان بمصر ، وغير ذلك مما يطرز من ستور وغيرها من عمل هذا البلد على سعته وكثرة ماله وأهله تخرج منه هذه القراطيس فتدور في الآفاق والبلاد وقد طرّزت بشرك وبنيت عليه، فأمر بالكتاب إلى عبد العزيز بن مروان وكان عامله بمصر ، بإبطال ذلك الطراز على ما كان يطرز به من ثوب وقرطاس وستر وغير ذلك. وأن يأخذ صناع القراطيس بتطريزها بسورة التوحيد (وشهد الله أنه لا اله إلا هو). وهذا طراز القراطيس خاصة إلى هذا الوقت ، لم ينقص ولم يزد ولم يتغيّر. وكتب إلى عمال الآفاق جميعا بإبطال ما في أعمالهم من القراطيس المطرزة بطراز الروم ، ومعاقبة من وجد عنده بعد هذا النهي شيء منها بالضرب الوجيع والحبس الطويل. فلما انبثت القراطيس بالطراز المحدث بالتوحيد ، وحمل إلى بلاد الروم منها وانتشر خبرها، ووصل إلى ملكهم فلما ترجم له ذلك الطراز أنكره وغلظ عليه فاستشاط غضبا وكتب إلى عبد الملك: "إن عمل القراطيس بمصر وسائر ما يطرز هناك للروم لم يزل يطرز بطراز الروم إلى أن أبطلته فان كان تقدمك من الخلفاء قد أصابوا فقد أخطأت. وان كنت أصبت فقد أخطأوا. فاختر من هاتين الخلتين أيهما شئت وأحببت. وقد بعثت لك بهدية تشبه محلك. وأحببت أن تجعل رد ذلك الطراز إلى ما كان عليه في جميع ما كان يطرز من أصناف الأعلاق حاجة أتشكرك عليها. وتأمر بقبض الهدية. وكانت عظيمة القدر. فلما قرأ عبد الملك كتابه رد الرسول وأعلمه أن لا جواب له ولم يقبل الهدية فانصرف بها إلى صاحبه. فلما وافاه اضعف الهدية (ضاعفها) ورد الرسول إلى عبد الملك ، وقال: إني ظننتك استقللت الهدية فلم تقبلها، ولم تجبني على كتابي ، فأضعفت لك الهدية ، وأنا أرغب إليك في مثل ما رغبت فيه من رد هذا الطراز إلى ما كان عليه أولا. فقرأ عبد الملك الكتاب ولم يجبه ورد الهدية. فكتب إليه ملك الروم يقتضي أجوبة كتبه. ويقول: إنك قد استخففت بجوابي وهديتي ولم تسعفني بحاجتي. فتوهمتك استقللت الهدية فأضعفتها ، فجريت على سبيلك الأول ، وقد ضعفتها ثالثة. وأنا أحلف بالمسيح لتأمرن برد الطراز إلى ما كان عليه ، أو لآمرن بنقش الدنانير والدراهم ، فانك تعلم أنه لا ينقش شيء منها إلا ما ينقش في بلادي - ولم تكن الدراهم والدنانير قد نقشت في الإسلام - فينقش عليها من شتم نبيك ما إذا قرأته ارفض جبينك له عرقا ، فأحب أن تقبل هديتي ، وترد الطراز إلى ما كان عليه ، وتجعل ذلك هدية تبررني بها ، وتبقي على الحال بيني وبينك. فلما قرأ عبد الملك الكتاب غلظ عليه وضاقت به الأرض. وقال: أحسبني أشأم مولود ولد في الإسلام لأني جنيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم من شتم هذا الكافر غابر الدهر. ولا يمكنني محوه من جميع مملكة العرب. إذ كانت

المعاملات تدور بين الناس بدنانير الروم ودراهمهم. وجمع أهل الإسلام واستشارهم فلم يجد عند أحد منهم رأيا يعمل به. فقال له روح بن زنباع :انك لتعلم الرأي والمخرج من هذا الأمر. فقال ويحك! ... ... من ؟ قال: الباقر من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم. قال: صدقت. فكتب إلى عامله بالمدينة أن أشخص إلى محمد بن علي بن الحسين مكرما ، ومتعه بمائتي ألف درهم لجهازه، وبثلاثمائة ألف درهم لنفقته. وأزح علقه في جهازه وجهاز من يخرج معه من أصحابه ، واحتبس الرسول قبله إلى موافاته عليه. فلما وافى أخبره الخبر ـ فقال له الباقر :لا يعظمن هذا عليك فانه ليس بشيء من جهتين :إحداهما أن الله جل وعز لم يكن ليطلق ما يهددك به صاحب الروم في رسول الله صلى الله عليه وسلم. والأخرى وجود الحيلة فيه. قال: وما هي؟ ... قال تدعو في هذه الساعة بصناع يضربون بين يديك سككا للدراهم والدنانير وتجعل النقش عليها سورة التوحيد وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أحدهما في وجه الدرهم والدينار ، والآخر في الوجه الثاني ، وتجعل في مدار الدرهم والدينار ذكر البلد الذي يضرب فيه والسنة التي ضربت فيها تلك الدراهم والدنانير. ففعل عبد الملك ذلك ، وورد رسول ملك الروم إليه يعلمه بذلك ويقول:: إن الله جل وعز مانعك مما قدّرت أن تفعله ، وقد تقدمت إلى عمالي في أقطار الأرض بكذا وكذا وبإبطال السكك والطراز الرومية. فقيل لملك الروم: أفعل ما كنت تهددت به ملك العرب. فقال: إنما أردت أن أغيظه بما كتبت به إليه لأني كنت قادرا عليه ، والمال وغيره برسوم الروم ، فأما الآن فلا أفعل ، لأن ذلك لا يتعامل به أهل الإسلام ، وامتنع من الذي قال"(١٥).

من أعمل النظر في هذه الرواية تتبين له مساويء التحريف والتصنيع ، ولا يستبعد أن يكون الكسائي قد أعمل فيها خياله القصصي بعد أن تناولتها ألسنة السمار والندماء قبله ، وتوسعوا فيها ما شاءت قرائحهم في التملق للعباسيين وأهل البيت. والغضّ من ملوك الروم والحط من شأن رجال الأمويين.

وقلّ أن يروي راو في الاسلام خبرا للخلفاء مع القياصرة البيزنطيين دون أن يشوه وجه الحقيقة.

أولا: لا حاجة الى فطنة لإدراك ما في قصته تكرار الهدية ثلاثا من السخف والتلفيق لاسقاط شأن ملك الروم وهو الذي كان عبد الملك بن مروان نفسه يدفع له الجزية قبلا ألف دينار في كل جمعة (١٦).

ثانيا: هذا الجزع على رسول الله وعلى أن لا يساء لذكره والمنسوب الى عبد الملك بن مروان لا يستقيم وسيرة الخليفة الأموي الذي كان بطاشا غادرا ويكفي أن الحجاج الذي استعمله على العراق أراق دماء نحو مائة ألف من المسلمين.

ثالثا: لم ترد هذه القصة في تاريخ الروم.

رابعا: لم ترد في رواية عربية أخرى ولم يشر اليها البلاذري بحرف .واليكم فضيحة البيهقي والكسائي: "إن القول المنسوب الى صاحب القسطنطينية لعبد الملك بن مروان: "إن كان من تقدمك من الخلفاء قد أصابوا فقد أخطأت، وان كنت أصبت فقد أخطأوا" ... هذا القول نفسه وضعه مؤرخو الاسلام في فم ملك الروم حين بلغه اغتصاب الوليد بن عبد الملك لكنيسة دمشق الكبرى فقد ذكر سعيد بن العاص: لما هدم الوليد كنيسة دمشق كتب له ملك الروم: "إنك قد هدمت الكنيسة التي رأى أبوك تركها. فان كان حقا فقد خالفت أباك ، وان كان باطلا فقد أخطأ أبوك"(١٧).

خامسا: من بينات الوضع في حكاية الكسائي ، والتي تدل على رغبته في التقرب من العباسيين دعواه أن عبد الملك لم يجد في بطانته ورجال دولته في دمشق من يشير عليه برأي يرتضيه للخروج من مأزقه، فالتجأ الى أكبر اعداء دولته وهو سبط الحسين. فاستدعاه مع أصحابه بنفقات باهظة للاستعانة بمشورته في حين كان لديه في حاضرة الشام أحزم رجالات بني أمية رأيا وأوسعهم علما وخبرة وهو خالد بن يزيد بن معاوية.

ومما يثبت نهجهم هذا ما عزموه من جواب خطاب ملك الروم في شأن الكنيسة حسبما تقدم. قالوا: "فلم يدر الوليد ما يجيبه فكتب الى الكوفة والبصرة وسائر البلدان أن يجيبوه ، فلم يجيبه أحد ، وجلس عقلاء الرجال في حظيرة المسجد يفكرون في ذلك فدخل عليهم الفرزدق فقال: ما بال الناس أراهم مجتمعين حلقا حلقا، فقيل له السبب كيت وكيت. فقال: أنا أجيبه من كتاب الله ، قال الله تعالى: ففهّمناها سليمان. وكلاً آتينا حكما وعلما. فسرى عنهم"(١٨).

ولا يخفى على المرء ما في هذه الحكاية من التسخيف للوليد وبطانته حتى ضاقوا ذرعا بالجواب على كلمة لملك الروم .واحتاجوا إلى النداء واستجاد الجواب في الآفاق والبلدان الى أن قيّض الله لهم الفرزدق ، وأرسله فقيها حافظا للقرآن .وناهيك بفقهه فقد كان مؤرخو الإسلام في العصر العباسي يدونون التاريخ بما صنع ويحطّ من قدر الأمويين، ووصم زمانهم ورجالهم بالغفلة وقلة الفهم.

والفضيحة في ما رواه الكسائي عن البيهقي هو وجود بعض النقود في المتاحف العربية وعليها اسم خالد بن يزيد بالرومية وهو ما يؤكد تدخله في ضربها بعد استشارة عبد الملك إياه ..فمن أين جاء الكسائي والبيهقي بمشورة الباقر؟ ومن أين جاء بمجمل الحكاية ؟ !! ثم إنه يستدل من روايتهما أن طراز الصليب في مصر كان أيضا في الأواني والثياب والستور وغيرها .ولم نجد إشارة إلى ذلك في موضع آخر من الأصول التي راجعناها.

ومن الفطنة أن نشير الى أن خالد بن يزيد بن معاوية هذا الذي حمل النقد العربي إسمه بالرومية كان ميّالا الى المسيحية ويحترم أتباعها ورموزها .. فخالد كان قد قال في امرأته إبنة الزبير بن العوام أبياتا منها:

أحب بني العوام طرّا لحبها ومن حبّها أحببت أخوالها كلبا



الصليب ليس وثنا

ولم يكن الصليب في عهد من العهود وثنا يعبد، وحتى أصحاب البدع النصرانية التي كانت سائدة في صدر الإسلام وقبيل إعلان الإسلام ، لم يعتبروا الصليب غير رمز لتذكير المسيحي بآلام الذي افتدى البشر. لكن بعض مؤرخّي ٱلإسلام فهموا خطأ بأن هذا الرمز يعبده "النصراني" كوثن لذلك أنفوا منه ، اضافة إلى أنه رمز قياصرة وملوك الروم والفرنجة. والغريب أن غالبية المؤرخين لم يراعوا مشاعر النصارى العرب من الغساسنة وكانوا على بدعة المشيئة الواحدة والطبيعة الواحدة مع أن هؤلاء النصارى العرب قد مكنوا المسلمين من فتح بلاد الشام، وكذلك فعل الأقباط في مصر.

لقد كان "النصارى" عندهم من أتباع الصلبان. وكأنّ هؤلاء النصارى كانوا يعبدون الخشبة التي صلب عليها المسيح ويتنكرون لمن حمل عنهم خطاياهم ، فالصليب عند كتاب الانشاء الشريف هو عين النصرانية وشعارها. ولذلك قلما أشاروا إلى الدين المسيحي إلا بلفظ "دين الصليب" كما في نص الهدنة التي استقرت عام ٦٨٢ للهجرة (١٢٨٣ م) بين السلطان الملك المنصور قلاوون وبين افرنج عكا وصيدا وعثليث وغيرها. قالوا:

"كذلك يعتمد مولانا السلطان ...على أن تكون الناصرة وأربع بيوت من أقرب البيوت لزيارة الحجاج وغيرهم من دين الصليب"(١٩).

وللقيسراني يمدح السلطان نور الدين بعد قتل الأمير وصاحب أنطاكية وهدم أربع بيوت يقول:

ضربت كبشهم فيها بقاصمة   أودي بها الصليب وانحطت بها الصلب

ولابن منير في مثل ذلك:

صدم الصليب على صلابة عودة   فتفرقت أيدي سبا خشباته

وفي هذا أيضا قول تقي الدين اسماعيل ابن أبي اليسر في قصيدته المشهورة لما اكتسح التتار بغداد:

علا الصليب على أعلى منابرها

وقام بالأمر من يحويه زنار

واذا ، فالنصارى عندهم "أتباع الصلبان" و "عباد الصليب" و "عبدة الصلبان" ومن ذلك قول عماد الدين الكاتب الأصبهاني من رسالة أنشأها عن السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى ديوان الخلافة ببغداد مبشرا بفتح بيت المقدس سنة ٨٨٣ للهجرة (١١٨٧م).
"أسكنه الفقهاء والعلماء بعد الجهال والضلال من بطرك وقس وعبدة الصليب ومستقبلي الشمس" (٢٠).
وممن مدح بأنه "قامع عبدة الصلبان" السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وقد ورد ذلك في خطبة "إبن زكي الدين الدمشقي" بعد فتح القدس (٢١)، كما ورد في مقدمة كتاب "الأعلاق الخطيرة" لإبن شداد (٢٢).
وأطلق الصليب في الكلام على جيوش الروم (على عدد عشرة آلاف مقاتل) ومنه قول ابن حمدان لأهل حلب حين نزل عليهم أمير الجيوش والي دمشق من قبل العزيز بالله الفاطمي وضجروا من طول حصاره فقالوا لابن حمدان:
"اما أن تدبّر البلد والا سلمناه، فقال أصبروا عليّ ثلاثة أيام. فإن البرجي والي انطاكية (من قبل الروم) قد سار الى نصرتي في سبع صلبان" (٢٣).
ولكن يمكن أن نميز في التاريخ الإسلامي ثلاث ظواهر تتعلق بالصليب :
الظاهرة الاولى: أن التاريخ الإسلامي حافل بشخصيات احترمت الصليب عن إيمان.
الظاهرة الثانية: أن هذا التاريخ مليء بذكر شخصيات احترمت الصليب لغايات تفضح قذارة نفوس أصحابها.
والظاهرة الثالثة: أن العرب المسلمين في بعض فترات التاريخ كانوا إذا ثاروا في وجه الظلم لجأوا إلى رفع الصليب وتحقير الرموز الإسلامية. ونبدأ بالظاهرة الأولى:
يستفاد من رسالة عبد الله بن اسماعيل الهاشمي وجواب عبد المسيح بن اسحق الكندي عليها (٢٤) أن بعض المسلمين كانوا يستعيذون أحيانا بالصليب اما لحسن اعتقادهم في قدرة المسيح كلمة الله الذي هو ممثل له ، وإما على سبيل التجربة والامتحان للنعمة الحالة فيه والصادرة عنه ، وقد كان الهاشمي قد كتب للكندي في رسالته المذكورة ما يلي:
"دع ما أنت عليه من الكفر والشقاوة والبلاء ، وقولك بذلك التخليط الذي تعرفه ولا تنكره. وهو قولكم بالآب والإبن والروح القدس. وعبادة الصليب التي تضر ولا تنفع. فاني اربأ بك (٢٥) عنه، وأجلّ فيه علمك وشرف حسبك عن خساسته".
فأجابه الكندي بما يمكن إيجازه في ما يلي: لقد كنت أيها الهاشمي قد جربت قوة الصليب واستغثت به يوما حين وقعت من الدابة ، وهربت من بعض أعدائك ، ولقيت مرة الأسد في طريقك. ففزت بمعونة الصليب بالنجاة والسلام ، وقد أقررت بذلك بفمك في مجلس حضرته.
ويقول الكندي هنا بالحرف الواحد:
واما قولك "عبادة الصليب التي تضر ولا تنفع" لما رأيته من تعظيمنا إياه وتقبيلنا له وتبركنا به ، فنجيبك عنه قائلين: إننا نفعل ذلك للذي مثّل لنا فيه من أمر المسيح وما جرى تدبيره في خلاصنا ، واستنقاذنا من الهلكة باحتماله الصلب عنا والموت لأجلنا ، فإن النعمة عندنا في ذلك مما لا يبلغه منا وصف ، ولا يفي به شكر. والصليب ممثل هذه النعمة نصب أعيننا، يحثنا على شكر موليها والمنعم

بها ، وإليه نقصد بالتعظيم والتبجيل ، لا الى الخشب وغيره مما تصنع به الصلبان .ولو كنا نعظم الخشب كما توهمت لما اتخذنا الصليب من غيره ، ولكننا نتخذه من الخشب والذهب والفضة والحجارة وغيرها. ونخطه خطّا، ونرسمه بأيماننا ، وذلك دليل على أننا لا نقصد بالتعظيم الجواهر التي تتخذ منها الصلبان بل من هو ممثل بالصليب".

"لم أصلحك الله غلب عليك النسيان في هذا الموضع ، وحرّكتك العصبية الهاشمية ، فأزاغتك عن سبيل الحق ، وحادت بك إلى خلاف ذلك السبب الذي أنت أقررت به بفمك ، ولفظ به لسانك ، مما جربت من القوة الحالة في الصليب حين استعذت به عند سقوطك عن الدابة. وحين هربت ممن هربت منه ، وحين لقيت الذي لقيت في طريقك وأنت ماض الى عمر الأكيراح (٢٦). وحين لاقاك الأسد وقت قاربت ساباط المدائن. أفتراك أصلحك الله نسيت هذه المواقف؟ ......فان كنت نسيتها فنحن ذاكرون لها. فلم، أصلحك الله تكفر بالنعمة، وتكافىء بالشر، وتقلّ من الشكر ، وتتكر المعروف ؟ وليس هذا مذهب من هو مثلك من أهل التحرج والتمسك بالصدق ولم قلت أن عبادة الصليب تضر ولا تنفع ؟ فليت شعري أي ضرر نالك عند التعوذ بالصليب ؟ ! وأنت تعلم أنا ، معشر النصارى، لا نعبد الصليب وإنما نعبد القوة الحالّة في الصليب ، والتأييد الذي أيدنا به ، والخلاص الذي أوتينا بسببه. ألم يجر بيننا من الكلام والمحاجة بحضرة من جرى ما قد أقنعك ؟ ونعلم كيف كان الحكم عليك في ذلك المجلس. فلم رجعت عما كان صح عندك وأقررت بصوابه حتى ذكرت أنك امتحنت ذلك فوجدته صحيحا"؟!

ولا بد من الإشارة هنا الى أن المناظرة بين الهاشمي والكندي هي حقيقة ، وتختلف عن غيرها من المناظرات المروية. فقد شهد بصحتها الإمام البيروني في كتابه "الآثار الباقية" فالإستناد إليها والإستدلال بها حجة لا تدافع.

كذلك فإن أشهر من كان يميل الى النصارى في عهد العباسيين ، ويساعد على إظهار الصليب في الإعلام ، واتخاذه في الكنائس زبيدة بنت جعفر زوجة هارون الرشيد وأم ولده الأمين، فقد روي أنها "كانت تكرم تيموتاوس (جاثلين النساطرة) كثيرا ، وتميل إلى النصارى وتستخدمهم. وأخرجت توقيع الرشيد بإعادة المتهدم من دير مافنثيون وتوسيعه. وعملت أعلام الشعانين وصلبانا من ذهب وفضة، وعاونت سرجيس مطران البصرة على بناء البيع فيها وعضدت جبريل الطبيب في خطابه في ذلك" (٢٧).

وممن جارى المسيحيين في تعظيم الصليب ، وممن تم تكفيره بعض المسلمين من المترددين على الأديرة طلبا للنزهة وشرب الخمر ، ولا سيما بعض الشعراء ، كالشاعر الكندي المنبجي ، حين مر بدير مار ماعوث فقال:

ولقد سلكت مع النصارى كل ما سلكوه غير القول بالثالوث بتناول القربان والتكفير للصلبان والتمسيح بالطيبوث (٢٨).

ومثله قول عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع:

أقمت بالدير حتى صار لي وطنا من أجله ولبست المسح والصلبا وصار شماسه لي صاحبا وأخا وصار قسيسه لي والدا وأبا (٢٩).

وحتى الذين أسلموا من النصارى ما كانوا يتركون تكريم الصليب والتبرك به في خلواتهم. ومن هؤلاء آل سليمان بن وهب الذين اشتهروا بالوزارة في الخلافة العباسية. وروى أن احدهم وهو الحسين بن القاسم بن عبد الله كان يتقرب الى النصارى الكتاب بأن يقول لهم: "إن أهلي منكم وأجدادي من كباركم. وإن صليبا سقط من يد عبد الله بن سليمان جده أيام المعتضد ، فلما رآه الناس قال هذا شيء تتبرك به عجائزنا فتجعله في ثيابنا من حيث لا نعلم" (٣٠).

ولما كانت تقع الهدنة بين الروم والمسلمين ، كان ملك الروم ينفذ الى من جاوره من ولاة المسلمين صليبا من الذهب وفاء بالعهد. قال ابن العديم:

"في سنة اثنين وعشرين وأربعمائة (١٩٣٩م) طلب نصر بن مرداس (صاحب حلب) الهدنة من ملك الروم. فأطلق الملك رسول نصر ، مقلد بن كامل بن مرداس، وأعطاه صليبا من ذهب مرصعا، أمانا لنصر ووفاء بالشرط" (٣١).

وممن اختار "الركوب تحت الصليب" على أن يرضي بالذل في ولايته خوفا من العزل ، وجيه الدولة بن حمدان التغلبي، وهو القائل:

من كان يرضى بذل في ولايته خوف الزوال فاني لست بالراضي

قالوا فتركب أحيانا فقلت لهم تحت الصليب ولا في موقف القاضي (٣٢)

وأما الظاهرة الثانية. فإنها إشارة إلى شخصيات وشعراء من المسلمين رفعوا من شأن الصليب لخبث في نفوسهم كما أسلفنا.

فالوليد بن يزيد أحب حسناء نصرانية اسمها سفرى فقال فيها:

اضحى فؤادك يا وليد عميدا صبا قديما للحسان صيودا

من حب واضحة العوارض طفلة برزت لنا نحو الكنيسه عيدا

ما زالت أرمقها بعيني وامق حتى بصرت بها تقبل عودا

عود الصليب فويح نفسي من رأى منكم صليبا مثله معبودا

فسألت ربي أن أكون مكانه وأكون في لهب الجحيم وقودا (٣٣)

وقال أبو نواس:

إني هويت حبيبا لست أذكره الا تبادر ماء العين ينسكب

مزنّر يتمشى نحو بيعتــه الهه الابن فيما قال والصلب (٣٤)

وللحسن بن هانيء يخاطب أحد غلمان النصارى:

قد رضينا بسلام أو كلام من قريب

فبروح القدس عيسى وبتعظيم الصليب

قف إذا جئت إلينا ثم سلّم يا حبيبي

وقال الفتح بن خاقان في مطمح الأنفس في ترجمة أبي عمرو يوسف بن هرون الكندي المعروف بالروماني (توفي ٤٠٣ للهجرة- ١٠٢١م):

"وكان كلفا بفتى نصراني استسهل لباس زناره والخلوة معه في ناره ، وخلع بروده ، وتسوغ دين مسيحه وجعله معبوده ، وراح في بيعته ، وغدا من شيعته ولم يشرب نصيبه حتى خط عليه صليبه ، فقال:

أدرها مثل ريقك ثم صلب   عادتكم على وجهي ورأسي (٣٥)
وأما الظاهرة الثالثة فهي أن الجموع الإسلامية كانت في فترات معينة من التاريخ ، ولا سيما في العصر العباسي ، ترفع الصلبان وتعظم المسيح في وجه ظالمها. فمن أغرب مظاهر الفتن والثورات في عهد العباسيين رفع الصليب أحيانا ، والانتماء لملوك الروم. ولعل أول من أظهرها على الرايات من قواد المسلمين ، يعقوب بن الليث المشهور بالصقار سنة ٢٦٢ للهجرة (٨٧٥م):
قال ابن شاكر الكتبي في أخبار السنة السالفة الذكر:
"قدم يعقوب بن الليث في جحافل فدخل واسط قهرا فانتدب له أبو أحمد الموفق أخو الخليفة في جيش عظيم فاقتتلوا إلى رجب من هذه السنة قتالا عظيما هائلا. ثم كانت الغلبة على يعقوب وأصحابه ، فقتل منهم خلق كثيرون ، وغنم منهم أبو أحمد شيئا كثيرا من الذهب والفضة والمسك والدواب ، ويقال أنهم وجدوا في جيش يعقوب هذا رايات عليها صلبان"(٣٦).
وفي سنة ٤١٦ للهجرة (١٠٢٥م) أرسل المغاربة الذين في قلعة حلب يسألون الصلح من سالم بن مستفاد والي حلب من قبل صالح بن مرداس ، والتمسوا منه أشياء. فلم ير إجابتهم إليها ، فلما كان نهار ذلك اليوم ، نصبوا الصلبان على سور القلعة وصاحوا: باسيل يا منصور (أي باسم ملك الروم) وحطوا الصلبان بعد اشهارها وبقوا يصيحون ليلتهم تلك إلى الغداة ، وأعادوا نصب الصلبان في صباح يومهم. ولعنوا الظاهر (الخليفة الفاطمي بمصر) ودعوا لباسيل الملك. وبقيت الصلبان منصوبة على حالها الى يوم الجمعة ثالث يوم أشهروها فيه، وأضافوا اليها صليبا آخر كبيرا" (٣٧).
وذكر إبن العديم هذه الواقعة في أخبار سنة ٤١٥ للهجرة، وأضاف أنهم بعد أن نصبوا الصلبان ثلاثة أيام نقروا الناقوس أيضا (٣٨).
"وسرت هذه العادة أيضا الى بغداد مقر الخلافة العباسية. ففي سنة ٤٢١ للهجرة (١٠٣٠م) كان الخراب قد شمل بغداد لضعف الهيبة وتتابع المجاعة. فاجتمع الهاشميون في شوال بجامع المنصور ، ورفعوا المصاحف واستنفروا الناس ، فاجتمع اليهم الفقهاء ، وخلق من الإمامية الرافضة ، وضجوا أن يعفوا من الترك فعمدت الترك ....ورفعوا صليبا على رمح ، وترامى الفريقان بالنشاب والآجر ثم تحاجزوا" (٣٩).
"وفي سنة ٣٨٢ للهجرة (١٠٨٩م) في جمادي الأولى كثرت الفتن ببغداد بين أهل الكرخ وغيرها من المحال. وثار أهل الكرخ ، وقصدوا شارع ابن أبي عوف ونهبوه. وفي جملة ما نهبوا دار أبي الفضل بين خيرون المعدل. فقصد الديوان مستنفرا ومعه الناس. ورفع العامة الصلبان وهجموا على الوزير في حجرته ، وأكثروا من الكلام الشنيع" (٤٠).
ونقل سبط ابن الجوزي هذا الخبر باسهاب مهم فقال:
"في صفر سنة ٤٨٢ للهجرة (١٠٨٩م) كانت فتنة عظيمة ببغداد بين السنّة والشيعة فغلقت أسواق الكرخ ، ورفع أهلها المصاحف وقتل بينهم خلق كثير. ورفع العامة الصلبان على القصب ونادوا: المستنصر يا منصور (أي باسم الخليفة الفاطمي بمصر) ونادت الطائفة الأخرى: المسيح يا منصور. وتفاقم أمر الفتن. وقتل من الفريقين نحو مائتين. وسب أهل الكرخ (الشيعة) أصحاب رسول الله وزوجاتهم رضي الله عنهم. وتعدوا إلى سب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكتب

الخليفة الى صدقة بن مزيد بإنفاذ جيش قوي فبعث إليه بالعرب ، واتفقوا مع الشحنة. فنقضوا الدور ، وأحرقوا المحال ، وحلقوا الشعور ، ونهبوا أماكن المفسدين من الفريقين فسكتت الفتنة" (٤١).

ومن أغرب الخوارق أن يتفق فريقان متخالفان متناظران على انتحال شعائر المسيحية في حالة الشغب والقتال والنداء بالنصر للمسيح. ورفع الصليب وهو "شعار الكفر" بحسب ما يسمسه المقريزي. وهذه النزعة العجيبة في مثل حاضرة الخلافة العباسية جديرة باسترعاء انتباه الناظر في تاريخ ماضي الإسلام.

ويدخل في هذا الباب إنحياز المسلمين إلى خيمة الصليب ووقوفهم تحته في الحروب التي كانت بينهم وبين الروم. وانتحالهم النصرانية. ففي سنة ٣٢٢ للهجرة (٩٢٢م) "سار الدمستق فوقاس في خمسين ألف من الروم. فنازل ملطية (مالطا) وحاصرها مدة طويلة ، فهلك أهلها بالجوع. وضرب خيمتين، على أحديهما صليب ، وعلى الآخر مصحف. وقال: من أراد النصرانية انحاز إلى خيمة الصليب ليرد عليه أهله وماله. ومن أراد الإسلام انحاز إلى الخيمة الأخرى وله الأمان على نفسه حتى يبلغ مأمنه. فانحاز أكثر المسلمين إلى الخيمة التي عليها الصليب طمعا في أهليهم وأموالهم. وسيّر مع الباقين بطريقا ليبلغهم مأمنهم وفتحها بالأمان في مستهل جمادى الآخرة"(٤٢).

وفي سنة ٣٥٤ للهجرة (٩٦٥م) فتح نقفور طرسوس ونصب رمحين جعل على أحدهما مصحفا وعلى الآخر صليبا. ثم قال لهم من اختار بلد الإسلام فليقف تحت المصحف. ومن اختار بلد النصرانية فليقف تحت الصليب. فخرج المسلمون ، فحزروا بمائة ألف ما بين رجل وامرأة وصبي. وانحازوا إلى انطاكية (أي الى بلد النصرانية).

إذا ، حبذا لو يقال للذي يدعو المسلمين في خطبة الجمعة إلى نبذ الصليب من لباسهم وأدواتهم وزينتهم أنه أخطأ أكثر من مرة. وحبذا لو يكون الحوار معه حوار محبة فلا تؤذى مشاعره.

ليقل له أنه أصاب في الرجوع إلى حديث نبي العرب عليه السلام فقد ورد في باب كسر الصليب وقتل الخنزير ما يلي:

"حدثنا علي بن عبد الله. حدثنا سفيان. حدثنا الزهري قال: أخبرني سعيد بن المسيب سمع أبا هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا تقوم الساعة حتى ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد" (٤٣).

نعم لقد أصاب في الرجوع الى هذا الحديث ولكنه أخطأ في تدبر معناه. فقد انتبه عقله إلى أن المسيح سيكسر الصليب ولم يتنبه الى أن ذلك سيتم في آخر الزمان حيث الدينونة ، وحيث لا حاجة بعدها إلى الصليب. كما أنه غفل أن يقول لنا في الوقت ذاته أن المسيح سيعود ليتولى الدينونة.

وبكل الأحوال ومن باب أولى أن يرفض عقله مثل هذه الأحاديث المروية، وان كان تفسيرها على الغالب لا يسيء إلى الصليب. ذلك أن كل "الأحاديث الشريفة" في مسألة الصليب تصل في اسنادها إلى أبي هريرة أو إلى عائشة أصغر زوجات نبي الإسلام عليه السلام.

فعن الأول (أبي هريرة) كتب الدكتور محمد التيجاني السماوي وهو أحد أبرز قادة الفكر الإسلامي الشيعي المعاصرين فأورد في كتابه "فاسألوا أهل الذكر" ما يلي:

"وعقيدة الشيعة الذين ينزهون الله عن المشاكلة والمجانسة والتجسيم ويقولون باستحالة رؤيته في الدنيا وفي الآخرة. واعتقد شخصيا بأن الروايات التي يحتج بها أهل السنة والجماعة كلها من دس اليهود في زمن الصحابة لأن كعب الأحبار اليهودي الذي أسلم في عهد عمر بن الخطاب هو الذي أدخل هذه المعتقدات التي يقول بها اليهود عن طريق البسطاء من الصحابة أمثال أبي هريرة ووهب بن منبه. فأغلب هذه الروايات مروية في البخاري ومسلم عن أبي هريرة ، وهذا الأخير ثبت أنه لا يفرق بين أحاديث النبي وأحاديث كعب الأحبار حتى ضربه عمر بن الخطاب ومنعه من الرواية في قضية خلق الله السموات والأرض في سبعة أيام" (٤٤).

ولا بد من التذكير والإيضاح بأن الحديث دوّن في عهد الأمويين وأن المؤرخين (٤٥) حدثوا أنه بعد وقعه الحرة حيث قتل عشرة آلاف من خيرة المسلمين سوى النساء والصبيان ، وافتضّ بها نحو ألف بكر ، وحبلت ألف امرأة في تلك الأيام من غير زوج ، ثم بايع من بقي من الناس على أنهم عبيد ليزيد بن معاوية. هذا ما جاء في كتاب أنساب الأشراف للبلاذري وتاريخ ابن كثير والإصابة، ولسان الميزان وغيرها...

ويجمع هؤلاء المؤرخون أنه لما بلغ يزيد خبر تلك الجرائم والمآسي التي يندى لها الجبين ولم يشهد لها التاريخ مثيلا حتى عند المغول والتتار فرح بذلك وأظهر الشماتة بنبي الإسلام وتمثل بقول ابن الزبعّري الذي أنشده بعد موقعه أحد قائلا:

ليت أسياخي ببدر شهدوا

جزع الخزرج من وقع الأسل لأهلّوا واستهلوا فرحا

ثم قالوا: يا يزيد لا تسل

قد قتلنا القرم من ساداتهم

لست من خندف ان لم انتقم

لعبت هاشم بالملك فلا

والأب معاوية يقول صراحة بحسب هؤلاء المؤرخين أنفسهم عندما يسمع المؤذن يشهد أن محمدا رسول الله: "أي عمل وأي ذكر يبقى مع هذا ، لا امّ لك والله إلا دفنا دفنا".

أو مثل هؤلاء الخلفاء كان يحارب الصلبان؟ ؟!! .... إن الخلفاء الثلاثة أبو بكر وعثمان وعمر منعوا كتابة حديث نبي الإسلام بل وحتى التحدث به. فهذا أبو بكر يجمع الناس في خلافته ويقول لهم: "إنكم تحدثون عن رسول الله أحاديث تختلفون فيها والناس بعدكم أشد اختلافا فلا تحدثوا عن رسول الله شيئا. فمن سألكم فقولوا بيننا وبينكم كتاب الله فاستحلوا حلاله وحرموا حرامه"(٤٦).

كما أن عمر بن الخطاب هو الآخر منع أن يتحدث الناس بحديث نبي العرب. "قال قرظة بن كعب: لما سيرنا عمر بن الخطاب الى العراق مشى معنا وقال: أتدرون لم شيعتكم ؟ قالوا تكرمة لنا ، قال: ومع ذلك انكم تأتون أهل قرية لهم دوي بالقرآن كدوي النحل فلا تصدوهم بالأحاديث لتشغلوهم. جودوا القرآن وأقلّوا الرواية عن رسول الله وأنا شريككم..."

ويضيف هذا الراوي: "فلم أنقل حديثا قط بعد كلام عمر. ولما قدم العراق هرع الناس اليه يسألونه عن الحديث فقال لهم قرظة: نهانا عن ذلك عمر" (٤٧).

كما أن عمر أمر الصحابة أن يحضروا ما في أيديهم من كتب الحديث فظنوا أنه يريد أن يقومها على أمر لا يكون فيه اختلاف ، فأتوه بكتبهم فأحرقها كلها في النار (٤٨).
ثم أتى بعده عثمان بن عفان فواصل المشوار وأعلن للناس كافة أنه لا يحل لأحد أن يروي حديثا لم يسمع به على عهد أبي بكر ولا عهد عمر (٤٩).
فلا بد أن هناك سرّا لمنع الأحاديث التي رويت عن نبي الإسلام عليه السلام ، والا لماذا يبقى حديثه ممنوعا طوال تلك المدة الطويلة ؟!



هوامش البحث

١- من كتاب" السلوك لمعرفة الدول والملوك "جزء ٢ رقم الحفظ في باريس ١٧٢٧ ، صفحة ٢٩٠.
٢- الثاني من عقد الجمان. رقم ١٥٤٤ -باريس ص ٩٤.
٣- من كتاب "السلوك" (المصدر السابق) جزء ٢ ص ٣٧١.
٤- صحيح البخاري جزء ٢ ص ٤٩ طبعة المطبعة الحسينية ١٣٢٨ هـ.
٥- سنن أبي داود جزء ٢ ص ١٢٢.
٦- لسان العرب جزء ١٧ ص ٣٣٤.
٧- "النهاية في غريب الحديث والأثر" لابن الأثير - الجزء الأول ص ٧٣.
٨- الطبري.
٩- لا يخفى أن نص التثليث هذا جاء بالسريانية ، ويبدو أن النص نقل للرشيد بترجمته السريانية.
١٠- صحيح البخاري - الجزء الأول ص ٩٩.
١١- صحيح البخاري - الجزء الأول ص ١٣٧.
١٢- راجع "عين الإصابة في استدراك عائشة على الصحابة تأليف العلامة جلال الدين السيوطي ص ٣٠ (منشورات دار الايمان-دمشق
١٣- صحيح البخاري جزء ٣ ص ٢٤٣.
١٤- صحيح البخاري جزء ٣ ص ٢٤٣.
١٥- المحاسن والمساويء لابراهيم بن محمد البيهقي - مصر ١٩٠٦ - الجزء الثاني ص ١٢٦ - ١٢٩.
١٦- مجلد من"مرآة الزمان" لسبط ابن الجوزي خزانة اوكسفورد - مارش.189 .

١٧- تهذيب تاريخ إبن عساكر - طبعة بدران جزء أول ص ٢٠٢.
١٨- تهذيب تاريخ إبن عسكر - طبعة بدران جزء أول ص ٢٠٢ - ٢٠٣.
١٩- من صورة عن مخطوطة عنوانها: تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور والمخطوطة الأصل محفوظة في باريس تحت رقم ١٧٠٤ص ٨٤.
٢٠- إرشاد الأديب لياقوت الرومي جزء ٧ ص ٨٧. (وسمي النصارى مستقبلي الشمس لأنهم يتجهون في كنائسهم وصلواتهم جهة المشرق).
٢١- وفيات الأعيان لإبن خلكان جزء أول ص ٥٩٣.
٢٢- محفوظ في خزانة الفاتيكان رقم ٧٣٠ ص ٢.
٢٣- زبدة الحلب لإبن العديم ص ٢١١.
٢٤- رسالة عبد الله بن اسماعيل الهاشمي الى عبد المسيح بن اسحق الكندي - طبعة لندن ١٨٨٥ ص ١١و ١٢.
٢٥- وردت في الأصل المطبوع: "ارتابك" واعتقد أن المقصود الحقيقي هو:"أربابك".
٢٦- دير معروف في العراق.
٢٧- أخبار بطاركة كرسي الشرق - طبعة روما - ص ٧٣.
٢٨- معجم البلدان لياقوت الحموي - جزء ٢ ص ٧٠١. والطيبوت لفظة سريانية معناها في الأصل النعمة ولكن يراد بها ههنا الزيت السائل من بعض الأيقونات.
٢٩- كتاب "الديارات" (الأديرة) للشايشتي - طبعة برلين ص ٢٥.
٣٠- صلة الطبري لعريب ص ١٦٤.
٣١- زبدة الحلب (مرجع سابق) ص ٦٦.
٣٢- معجم الأدباء لياقوت الحموي - الجزء الرابع - ص ٢٠٢. وقد نسب هذين البيتين في الجزء الثاني من معجمه للأمير أبي الحسن بن علي بن
٣٣- عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي - الجزء الخامس - رقم ٤٥ في الخزانة الظاهرية بدمشق.
٣٤- ديوان أبو نواس - رواية الأصبهاني - المجلد الثالث - في خزانة باريس رقم ٤٨٣١.
٣٥- ديوان أبو نواس ص ٩٥ محفوظ في الفاتيكان تحت رقم ٤٥٦.
٣٦- عيون التاريخ لإبن شاكر الكتبي - الجزء الثاني- ص ٤٩.
٣٧- تاريخ الذيل ليحيى بن سعيد الأنطاكي ص ٢٤٧.
٣٨- زبدة الحلب (مرجع سابق) ص ٦١.
٣٩- الإعلام بتاريخ الإسلام لمحمد بن الجزري - خزانة الاسكندرية - رقم ٢٠٧٢ - ص ٣٨٥.
٤٠- الكامل في التاريخ لابن الأثير - الجزء العاشر ص ٦١.
٤١- من مجلدات مرآة الزمان - خزانة اوكسفورد - مارش ٦٥٨ اف: ٩.
٤٢- الأعلاق الخطيرة لإبن شداد الحلبي - الجزء الأول. موجود في الفاتيكان تحت رقم ٧٣٠. راجع ص ٣٧ - ٣٨.
٤٣- زبدة الحلب (مصدر سابق) لابن العديم ص ٣٧ - ٣٨.
٤٤- كتاب "فاسألوا أهل الذكر" مؤسسة الفجر لندن - الطبعة الأولى

٤٥- راجع كتاب أنساب الأشراف للبلاذري جزء ٥ ص ٤٢. وراجع
٤٦_ تذكرة الحفاظ للذهبي - الجزء الأول ص ٢ و ٣.
٤٧- سنن إبن ماجه - جزء أول ص ١٢ وسنن الدارمي جزء أول ص ٨٥ وكذلك الذهبي في تذكرة الحفاظ.
٤٨- الطبقات الكبرى لإبن سعد جزء ٥ ص ٢٣٩.
٤٩- منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد جزء ٤ ص ٦٤.



الآثار النصرانية في العبادات الإسلامية

لست أزعم أنني استطعت ، أو سأستطيع تحديد كل الآثار النصرانية في الإسلام ، فذلك يتطلب عملا تقوم به مؤسسات كبرى ، وإنما هي خطوة سبقتها خطوات ، وأرجو أن تعقبها خطوات أخرى.

وأود أن أشير بادىء ذي بدء إلى ما ذكرته في مقدمة هذا الجزء من الكتاب من أن الإسلام بقي موروثا شفاهيا لنحو قرنين من الزمن أعقبا وفاة نبي المسلمين. وإن تحول قسم كبير منه إلى مأثور مكتوب ، فإن بعضا منه ما زال مستمرا في الذاكرة الجمعية. ولكن كيف يمكن لنا تفسير ظاهرة الكمون في المأثور الاسلامي ؟ فنحن نرى الكثير من الوقائع والتقاليد النصرانية ظلت ماثلة حية في صدور المسلمين ، برغم أن النصوص والمتون تسعى إلى نفيها قصدا وعمدا.

إن كثيرا من القرى الإسلامية ، ولا سيما في شمال سورية ، ما تزال تحتفل بعيد الصليب. وقد لاحظت أن أهل القرى الإسلامية الذي يواصلون صنع خبز يومهم بأنفسهم يتعمدون رسم شارة الصليب فوق العجين قبل تخميره. كذلك في

المدن الاسلامية ما يزال الورع يدفع الأغلبية ، ان رأوا كسرة من الخبز على الأرض ، لرفعها ، وتقبيلها وركنها في مكان مرتفع. إنه لا يرفع عن الأرض أي شيء آخر غير كسرة الخبز .ولو سألته عن السر في ذلك لأجابك ببساطة متناهية. إنها نعمة الله ولا يجوز الإستهانة بها. ولكنه لا يدرك بوعيه الكامل لماذا كسرة الخبز نعمة وبقية الأطعمة ليست كذلك ، بل انه لا يدرك بوعيه ما الذي يجعل من كسرة الخبز نعمة.

ولو شئنا توضيح ذلك ينبغي أن نشير إلى عادة إسلامية ما زالت مستمرة إلى يومنا هذا ، فان شاء مسلم أن يدلل على عمق الروابط بينه وبين صديق له ، فانه يقول: "بيني وبينه خبز وملح". وظاهر العبارة يدل على أنهما تناولا طعاما مشتركا. بينما باطن العبارة يدل على شيء آخر. لماذا ؟ ...لأن الطعام المشترك لا يقتصر على الخبز في الغالب ، وربما لم يكن فيه خبز على الإطلاق وإنما

الإشارة الضمنية ـ كما هي في المأثور ـ تدل على القربان ، الذي يفترض أنه يوحد بين الجموع الذي تتناوله فيحولها الى أعضاء في جسد واحد.

إن الشريعة كامنة في الطبيعة المادية كما هي كامنة في بنية الإنسان العقلية والأدبية ، مكتوبة في نسيج كيانه وخلاياه وأعصابه ، ومجرى دمه. وربما هي داخلة في هندسته الوراثية. وهذا ما قرره يسوع بقوله: "ملكوت الله في داخلكم" (١) وقد عبر بولس الرسول عن ذلك بقوله: "إن الأمم الذين ليس عندهم الناموس ، متى فعلوا بالطبيعة ما هو من الناموس ، فهؤلاء اذ ليس لهم الناموس ، هم ناموس لأنفسهم ، يظهرون عمل الناموس مكتوبا في قلوبهم ، وضميرهم يشهد وأفكارهم أيضا مشتكية ومحتجة" (٢). ولقد تعلم الناس أن "ملكوت الله ليس أكلا ولا شربا بل هو بر وسلام وفرح في الروح القدس" (٣).

إن امكانية التجسد التي تحدث عنها السيد المسيح باقتضاب عندما قال "ملكوت الله في داخلكم "أشار اليها الخطاب القرآني صراحة رغم أن فقهاء المسلمين يثورون ويغضبون إذا ما قيل لهم أن الله تجسد. وأشير قبل ذلك في هذا الصدد الى مسألة "معية الله" التي جرت مناقشتها رسميا في "الأزهر" عام ١٩٥٠. فقد ذكر الشيخ بدر الدين العلائي الحنفي خلال النقاش: "إن الله معنا باسمائه وصفاته لا بذاته". ورد عليه الشيخ ابراهيم المواهبي الشاذي: "بل هو معنا بذاته وصفاته"، فلما سئل عن دليله استشهد بما ورد في القرآن: "والله معكم"، وأوضح ذلك بقوله: "إن مدلول الاسم الكريم (أي الله) إنما هو الذات اللازمة لها الصفات المتعينة لتعلقها بجميع الممكنات".

كذلك ذكر الإمام الغزنوي (٤) إن قول المعتزلة وجمهور النجارية أن الحق تعالى في كل مكان بعلمه وقدرته وتدبيره دون ذاته باطل لأنه لا يلزم أن من علم مكانا أن يكون في ذلك المكان بالعلم فقط إلا إن كانت صفاته تنفك عن ذاته". وعندما سئل الشيخ ابراهيم في نقاش الأزهر ان كان وافقه أحد غير الغزنوي في ذلك ، استشهد بما ذكره شيخ الإسلام إبن اللبان الذي رأى أن في قوله تعالى في الخطاب القرآني "ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون" دليلا على قرب الله من عبده قربا حقيقيا. وقال انه "لو كان المراد بقربه تعالى من عبده بالعلم أو القدرة أو بالتدبير فقط لقال" ولكن لا تعلمون أما وأنه قال (ولكن لا تبصرون) فانه دل على أن المراد به القرب الحقيقي المدرك بالبصر".

هنا أعود الى ما قاله السيد المسيح "ملكوت الله في داخلكم" فقد عبر عنها الخطاب القرآني بقوله: "ونحن أقرب اليه من حبل الوريد" (٥). إن قرب الصفات معنوي ، فيما قرب "حبل الوريد" حسّي. أي أن قرب الله من الإنسان حقيقي بالذات وليس بالصفات وحدها. وعندما يقول "أقرب من حبل الوريد" فذلك يعني أنه في داخل الانسان ، وأنه موجود وجودا حسيا. ولا معنى إذ ذاك لنكران الحلول والتجسد.

والآن ، دعونا نتقصى عن آثار النصرانية في العبادات الاسلامية:



الصلاة الربانية

وردت الصلاة الربانية على الشكل التالي: "أبانا ... لا تعرضنا للتجربة، أعف مما علينا، كما أعفينا نحن غيرنا مما لنا عليه" (٦).

كذلك أوردها البشير لوقا على الشكل التالي: "...... أغفر لنا خطايانا لأننا نغفر لمن أساء الينا ، ولا تعرضنا للتجربة" (٧).

ونجد في الخطاب القرآني أنه ورد ما يوافق هذه الصلاة وذلك في قوله:

"ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، (أي اغفر لنا ولا تجعل علينا اثما). ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به (أي لا تعرضنا للتجربة). واعف عنا واغفر لنا" (٨).

كذلك أورد السيوطي حديثا رفعه إلى نبي المسلمين قال: "صلوا أيها الناس في بيوتكم فأفضل صلاة المرء في بيته ، إلا المكتوبة" (٩).

كذلك روى الشعراني ما يلي: إن الله أوحى لموسى هذه الآية كما روى كتاب الأحبار: "اللهم لا تولج الشيطان في قلوبنا ، وخلصنا منه ومن كل شر ، من أجل أن لك الملكوت والأبد والسلطان والملك والحمد والأرض والسماء أبدا أبدا" (١٠).



الصلوات الخمس

من الثابت أن القبائل العربية المتنصّرة كانت قد ألفت الصلاة والدعاء إلى الله، ويتأكد ذلك من عدد الكنائس التي أقامها النصارى في جهات العرب. وقد فرض القرآن على المسلمين خمس صلوات في اليوم ، فجاء ذلك موافقا لما كان شائعا بين الرهبان ، إذ كان هؤلاء يقيمون صلواتهم السبع في خمس قومات من النهار والليل. وجاء في "نقائض جرير والفرزدق" (ص ٥٢٥) عن صلوات

النصارى ما يلي: "وكانت أخص صلواتهم خمسا. قال الفرزدق يذكر عجوزا من بني جعفر عاذت بأبيه غالب:

عجوز تصلي الخمس عاذت بغالب فلا والذي عاذت به لا أضيرها"

وجعل البيان القرآني صلوات المسلمين في طرفي النهار: "فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون" (١١). وكذلك قوله: "وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل..."(١٢).

وهكذا كان رهبان جزيرة العرب يبكرون إلى الصلاة، ويقومون ليلهم لأدائها. وفي ذلك قول مجنون ليلى:

كأنه راهب في رأس صومعهيتلو الزبور ونجم الصبح ما طلعا وقد أمر الخطاب القرآني المسلم بالاغتسال والوضوء قبل الصلاة. وهذه عادة نجدها في القوانين القديمة لنصارى الشرق.

يذكر "الأب لويس شيخو (١٣) نصا عن طهارة الجسد استنبطه من كتاب "الايثيقون" أي "الآداب" لأبي الفرج ابن العبري. وأوضح أنه جاء في باب الطهارة (هو الثالث من مقالته الثالثة قسمه الى عشرة فصول بحث فيها عن طهارة الجسد وأحكامها وشروطها كما كانت في ساحات الكنائس لاتمام فريضة الوضوء.

ويضيف الأب لويس شيخو (المصدر نفسه): "وقد وصف حضرة الخوري ابراهيم حرفوش (راجع المشرق) - ١٩٠٣/٦ - ص ١١٦ الى ١٢٣): أحد مخططات دير مار شليطا القديمة وفيه قوانين جارية في الأعصار السالفة في ٥١ بابا، وقد أورد في احدى صفحاته (ص١٠٨) شروط الصلاة وحدودها على هذه الصورة".

أما النص الذي أشار إليه الأب لويس شيخو فهو التالي:

"فأما حدودها (أي الصلاة) وشروطها فانها تحتاج في أول شيء الى الطهارة، وهو الاغتسال بالماء في أثر الحدث. فإن لم يجد الماء فليتحجر بثلاثة حجار وما زاد عليها حتى ينفي أثر النجوى. ثم غسل اليدين بالتسمية، وغسل الوجه برسم الصليب المحيي، ويستحب أيضا غسل الرجلين في كل غداة. فأما من لم يحدث فلا يحتاج إلى الإستنجاء بل يستحب منه غسل اليدين والوجه. وغاية الغسل أن يعم الماء العضو الذي يغسله وعوما كاملا ...... الخ. (ثم يليه فصل في الاغتسال من الجنابة غسلا تاما ..مع الاعتراف الى الكاهن وقبول صلاة الاستغفار)".

كذلك يتجه قدماء النصارى في صلواتهم إلى الشرق، لأن الشمس ترمز عندهم إلى السيد المسيح المعروف بشمس العدل والموصوف بالشرق. وفي ذلك يقول "صرمة ابن أنس" قبل الإسلام يصف صلاة النصارى الى مطلع الشمس:

"وله شمس النصارى وقاموا

ومعروف أن نبي المسلمين والمسلمين الأوائل كانوا يولّون وجوهم قبلة القدس (أورشليم) ثم ولاه الخطاب القرآن قبله يرضاها وهي الكعبة في مكة" وسيلي ذكر ذلك عند البحث في "الحج".



الجامع والمسجد

وكان يقال له "المسجد" بحسب تعريف الزجاج _ وقد أطلقوا التسمية على هيكل أورشليم كقول الطبري عن يوسف ، خطيب العذراء مريم: "تولى يوسف خدمة المسجد" (١٤).

وذكر ابن خلدون في تاريخه عن العذراء مريم أن حنّة أمها جاءت إلى المسجد فدفعتها الى عباده (١٥).

وأما أن المسجد الذي ابتناه عمر بن الخطاب ليس هو المسجد الأقصى الوارد ذكره في الخطاب القرآني فدليله أن قصة الإسراء التي تشير إلى المسجد قد وردت في القرآن قبل بناء المسجد القائم حاليا. ولا يعقل أن يرد في الخطاب القرآني قوله: "سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله" فيما المسجد المعروف حاليا بهذا الإسم لم يكن قد بني بعد مما يؤكد أن المسجد المقصود هو "هيكل أورشليم".

ومن المعروف أن ألفاظ: "المسجد" و "المصلى" و "المعبد" و "المنسك" وقد سبقت الإسلام واستخدمها أهل الجاهلية ولا سيما قدماء النصارى في الجزيرة العربية للدلالة على دينهم. بل ان كلمة "مسجد" ترادف كلمة "صومعة". ومما رواه سيبويه عن بعض الشيوخ في "تاج العروس ٥:٤١٩" قوله: (١٦)

أوصاك ربك بالتقى

فاختر لنفسك مسجدا

وقال: "الصومعة بيت النصارى. فذكر المسجد معها اشارة الى أنها في معناها شائعة أيضا عند النصارى".

و"المحراب" كان يراد به مطلق المسجد. وذكر صاحب "تاج العروس" (١:٢٠٧): محاريب بني إسرائيل مساجدهم التي كانوا يصلون فيها ، وكذلك النصارى قد سموا صدر كنائسهم المحراب

كما دل بها المسلمون بعد ذلك على صدور مساجدهم". وأنبأ البيان القرآني عن زكريا أنه كان يدخل المحراب على العذراء مريم. "كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا..."(١٨)
والمحراب شأنه شأن القبلة التي هي وجهة المسجد وقد وردت في الشعر الجاهلي - كما روي عن عبد المطلب قوله: (١٩)
عذت بما عاذ به أبراهيم
ومما يلحق بالمساجد "المنارة" وقد اشتقها العلماء من السريانية ، والمسلمون يريدون بها المئذنة. وقد سبقت عهد الإسلام فذكرها امرؤ القيس في معلقته بمعنى المصباح حيث كان الرهبان يوقدونه لمناسكهم في قمم الجبال ليلا. قال:
تضيء الظلام بالعشاء كأنها
وقد اكتشف الأثريون في كنائس ما بين النهرين وشمالي سورية عدة كنائس كانوا شيدوا في أعلاها أبراجا مستديرة أو مربعة يؤذنون فيها بمناسكهم ، فلما جاء الإسلام اتخذوا المآذن على مثال تلك البروج.
وكان المسلمون في أول عهدهم يجتمعون لصلاتهم دون أذان .ويقول ابن هشام في السيرة: "وقد كان رسول الله حين قدموا انما يجتمع الناس للصلاة بغير دعوة".
كذلك قال القسطلاني: "كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيحيون الصلاة ليس ينادى لها" ثم "ذكروا أن يعلموا وقت الصلاة بشيء يعرفونه فذكروا أن ينوروا نارا أو يضربوا ناقوسا. وأمر بلال (المؤذن) أن يشفع الأذان" (٢٠).
وفي الصلاة الإسلامية قيام وركوع وسجود ورفع الأيدى ويتوافق ذلك مع طقوس قدماء النصارى فقد قال البعيث يذكر صلاة الرهبان وهم قيام:
على ظهر عاديّ كأنه أرومه
كذلك قول المضرّس الأسدي: (٢٢)
وسخال ساجية العيون خواذل
وأما "الركوع" فهو عند قدماء النصارى أخفاض المصلي لرأسه وانكبابه لوجهه. وقد ورد في شعر أمية بن أبي الصلت عن الملائكة قوله:
ملائكة لا يفترون عبـــادة
مساجدهم لا يرفع الدهر رأسه
وراكعهم يحنو له الدهر خاشعا
وكان الراهب لكثرة صلاته يدعى راكعا. وذكر سيبوية ما يلي: "وكانت العرب في الجاهلية تسمي الحنيف راكعا إذا لم يعبد الأوثان ويقولون ركع إلى الله. قال الزمخشري أي اطمأن. قال النابغة الذبياني:
سيبلغ عذرا أو نجاحا من امرىء
أما ورقة بن نوفل فقد ورد قوله في "الأغاني" (٢٤):
أدين لرب يستجيب ولا أرى
أقول إذا صليت في كل بيعه



صوم رمضان و الفصح

و أما أن صوم رمضان عند المسلمين لا يتجاوز الثلاثين يوما ، فإن صوم الفصح كان لا يزيد على ذلك في بعض الكنائس. و اتفقت عادة الافطار عند الفريقين بعد غروب الشمس ، إلا أن النصارى ما كانوا يأكلون إلا مرة واحدة في حين أن المسلمين أحلّ لهم الطعام طوال الليل. و إذا فقد كان صوم النصارى في الشرق غاية في الشدة يمتد إلى النهار و الليل معا، فخفف الإسلام هذه العبادة وحصرها في النهار دون الليل مع إشارة قرآنية إلى هذا التخفيف حيث ورد في الخطاب القرآني "يريد الله بكم اليسر و لا يريد بكم العسر" (٢٥).

اما "الخيط الأبيض" و "الخيط الأسود" اللذان ورد ذكرها في القرآن عند قوله: "وكلوا و اشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر" (البقرة ـ ١٨٧) فقد ذكرها أحد شعراء النصرانية قبل الإسلام ، وهو أمية بن أبي الصلت اذ قال: (٢٦)

الخيط الأبيض ضوء الصبح منفلق



الزكاة ووفاء العشر

وكان من وصايا الكنيسة إلى قرون النصرانية الأولى وصية بوفاء العشر. و الزكاة في الإسلام توافق ما فرض على اليهود

و المسيحيين ، فإن موسى في "التثنية" و "الاشتراع" قد فرض على بني اسرائيل تعشير ما لهم لخدمة المهنة و الهيكل.



الحج

الحج: خامس ركن من أركان الدين الإسلامي. وهو فرض على المستطيع مرة في العمر ، ويكفره منكره لقول نبي الإسلام "تعجلوا إلى الحج فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له ، (٢٧) ولقوله كذلك: "من ملك زادا أو راحلة تبلغه إلى بيت الله تعالى ولم يحج فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا"(٢٨).

و أما معناه في اللغة فهو القصد إلى معظّم ، فيما معناه في الفقه الاسلامي، زيادة مكان مخصوص في زمن مخصوص وبفعل مخصوص. و أما المكان المخصوص فهو كعبة مكة.

ويقينا يمكن العودة بالحج في أساسه إلى عادة وثنية ما لبثت أن انقلبت إلى نصرانية. إذ يذكر كتبة العرب أن "اللات صخرة بيضاء مربعة تعبدها ثقيف في الطائف ، وكانوا اتخذوا له (المقصود هنا الههم المعبود) بيتا فطافوا به وجعلوا له سدنة"(٢٩).

ويذكر الكتبة العرب كذلك أنهم كانوا يكرمون حجارة بيضاء أو سوداء ، وكانوا يوقعونها موقع التجلي للقوات العلوية. وكانت تكرّم في بعض جهات اليمن و الحجاز وبلاد النبط"(٣٠).

فمن المقامات الدينية للنبط ال "كعبات" وهي بيوت مربعة مرتفعة على شكل الكعاب ، منها:

- ذو الكعبات في شمالي الجزيرة لبني اياد
- كعبة نجران
- الكعبة اليمانية حيث كان بنو خثعم يعبدون صنمهم المدعو "ذا الخلصة".
- الكعبة الحجازية في مكة. وأول من ذكرها في التاريخ ديودوروس الصقلي في القرن الأول قبل ميلاد المسيح إذ قال: "إن من جهات العرب المجاورة لبحر القلزم هيكل يبالغ في إكرامه كل العرب" (٣١). وربما سموا كعباتهم بالبيوت

ولقد كثر عدد الهياكل في بعض الأمكنة من الجزيرة حتى أن بلينيوس (في القرن الثاني للمسيح) عدّ منها ستين في مدينة سبأ حاضرة اليمن و ٦٥ في تمنة مدينة غطفان(٣٢).

ويذكر كثير من المؤرخين أن العرب كانوا يتخذون لهذه المقامات (حرما) فيجعلوا لها دائرة ، تحفظ حرمتها ، ولا يجوز لأحد انتهاكها. وكان حرم مكة أشهرها. وثمة رجال يخدمون هذه المقامات. كانوا كهنة أو عرافين أو ربما سدنة.

وفي مطلع دعاء المسلم أثناء طوافه حول الكعبة خلال الحج عبارة تقول :"لبيك اللهم لبيك" ونجد مأثور ذلك في ما رواه بعض الكتبة العرب ، اذ ذكروا أن العرب كانوا يكرمون تلك الأصنام بمناسك مختلفة منها (حجّهم) إليها أفرادا أو زرافات. وكانوا إذا اغتسلوا أو توضأوا يطوفون حول الصنم دفعات معدودة ويستلمون الصنم أو يقبلونه ويتقربون منه (لاحظ بالمقارنة هنا استلام المسلم للحجر الأسود وتقبيله له). وقد دون هؤلاء الكتبة بعضها كتلبية "ذي الكفين" وهو صنم دوس. وروى ابن حبيب أنهم كانوا يقولون أثناء الطواف: "لبيك اللهم لبيك. ان جرهما عبادك، الناس طرف وهم تلادك. ونحن أولى منهم بولائك"(٣٣). كذلك روى تلبية نسر: "لبيك اللهم لبيك لأننا عبيد. وكلنا ميسرة وأنت ربنا الحميد"(٣٤). ثم كذلك تلبية صنم تميم: "لبيك لبيك ما نهارنا نجرّه. أزلامه وحرّه وقرّه. لا نتقي شيئا ولا نضرّه. حجا لرب مستقيم برّه"(٣٥).

وروى العماد الركن مصطفى طلاس وزير الدفاع في سورية (أثناء طبع هذا الكتاب - نقلا عن كثير من المؤرخين العرب أن الوثنيين العرب كانوا يذكرون أثناء طوافهم حول كعبة مكة عبارة "تلك الغرانيق العلى. وإن شفاعتهن لترتجى"(٣٦). ويذكر أن نبي المسلمين كان قد أوردها. في ما تلاه من "سورة الطارق" ثم ذكر المؤرخون ومنهم الطبري أنها نسخت تلاوة".

والحاج المسلم يطلب منه قص شعره ورمي الجمرات وهي الحصى وذلك إتماما لمناسك حجه. وقد أثبت المؤرخ "شوفين" الفرنسي ، كانوا يفعلون مثل ذلك تماما ، اضافة الى أنهم كانوا يقصون نواصي أولادهم .(٣٧)

والحج في صيغته النصرانية يتطلب ذكر شواهد تاريخية عديدة، فهو قد تلا الحج الوثني ، وسبق الحج الإسلامي. ويمكن أن نشير في هذا الصدد إلى أن نجران كانت قبلة النصارى ، منذ أن اصطبغت بدماء النجرانيين ، فأقام النصارى فيها مزارا كان العرب يقصدونه من كل صوب. وقد شاع ذكر هذا المزار فأسموه "كعبة نجران" أو "الكعبة اليمانية". وأشار إليه الأعشى في بعض أبياته ، ومن ذلك قوله:

وكعبة نجران حتم عليك حتى تناخي بأبوابـها

تزور يزيدا وعبد المسيح وقيسا هم خير أربابها
إذ الحبرات تلوّت بهم وجرّوا أساقل هدّابها (٣٨)

وكما غلبت النصرانية على يثرب في الجاهلية، كذلك نالت مكة نصيبا كبيرا من هذه العقيدة. وأقدم ما رواه كتبة العرب صريحا عن النصرانية ورد أثناء تاريخ "جرهم" الثانية. فجرهم استولوا بعد بني اسماعيل على الحجاز وانتهت إليهم سدانة "بيت الحرام" في مكة، وصارت اليهم مفاتيح الكعبة. وبجمع المؤرخين على أن جرهم الثانية قامت قبل تاريخ ميلاد المسيح بقليل. ويؤكد ابن الأثير وابن خلدون وأبي الفداء بأن سادس ملوك جرهم يدعى بإسم "عبد المسيح بن باقية بن جرهم". مما يستلزم التأكيد بأن النصرانية دخلت مكة بعد ارتفاع السيد المسيح بزمن قليل، أي قبل دخول بني الأزد، وتغلب بني خزاعة.

وبحسب أبي الفرج الأصفهاني، فإن "بيت الحرام" كان له في عهد بني جرهم "خزانة، وهي بئر في بطنه، يلقى فيه الحلي والمتاع الذي يهدى له، وهو يومئذ لأسقف عليه"(٣٩). وهذا إثبات لنصرانية "بيت الحرام".

وفي أقدم تواريخ مكة أنه كانت في دعائم الكعبة "صور الأنبياء وصور الشجر، وصور الملائكة، وصورة ابراهيم خليل الرحمن وصورة عيسى بن مريم"(٤٠).

وقال الأزرقي ما حرفه: (٤١).

"فلمّا كان يوم فتح مكة دخل رسول الله صلعم البيت فأرسل الفضل بن العبّاس ابن عبد المطلب فجاء بماء زمزم ثمّ أمر بثوب فبلّ بالماء وأمر بطمس تلك الصور فطمست. قال ووضع كفيّه على صورة عيسى بن مريم وأمه عليهما السلام وقال: إمحوا جميع الصور إلاّ ما تحت يدي فرفع يديه عن عيسى بن مريم وأمه ....وحدّثني جدي قال حدّثنا داود بن عبد الرحمان عن ابن جريج قال :سأل سليمان بن موسى الشامي عطاء بن أبي رباح وأنا أسمع: أدركت في البيت تمثال مريم وعيسى ؟ قال: نعم ادركت فيها (كذا) تمثال مريم مزوّقا في حجرها عيسى ابنها قاعدا مزوّقا. وكانت في البيت أعمدة، ستّ سواري، وصفها كما نقطت في هذا التربيع:

قال وكان تمثال عيسى بن مريم، ومريم عليهما السلام في العمود الذي يلي الباب: قال إبن جريج فقلت لعطاء: متى هلك ؟ قال: في الحريق في عصر ابن الزبير .. قال إبن جريج: ثمّ عاودت عطاء بعد حين فخطّ لي ستّ سواري كما خططت ثم قال: تمثال عيسى وأمه عليهما السلام في الوسطى من اللاتي تلين الباب الذي يلينا إذا دخلنا(٤٢). أخبرني محمد ابن يحيى عن الثقة عنده عن ابن اسحاق عن حكيم بن عباد بن حنيف وغيره من أهل العلم إن قريشا كانت قد جعلت في الكعبة صورا فيها عيسى ابن مريم ومريم عليهما السلام. قال إبن شهاب قالت أسماء بنت شقر: إن امرأة من غسّان حجّت في حج العرب فلما رأت صورة مريم في الكعبة قالت: بأبي أنت وأمي إنك لعربية. فأمر رسول الله صلعم أن يمحوا تلك الصور إلا ما كان من صورة عيسى ومريم"(٤٣).

وما رواه الأزرقي هنا ذكره آخرون كالبيهقي وابن العربي والهروي .وإضافة إلى ذلك نرى أن شعراء النصرانية في الجاهلية كانوا اذا أقسموا جمعوا بين الصليب والكعبة.

يقول عدي بن زيد: (٤٥).

سعى الأعداء يألون شرا عليك وربّ مكة والصليب

وأقسم الأعشى بقوله:
حلفت بثوبي راهب الدير والتي بناها قصي والمضاض بن جرهم ولعل ذلك أيضا ما حمل النصارى في الجاهلية على تعظيم الكعبة ، لما كانوا يرون فيها من الآثار النصرانية.
أحد تلك الآثار ما يسمى ب "موقف النصراني" الذي ورد ذكره في "تاج العروس" (٤٦).
وكذلك مقبرة النصارى. وذكر الأزرقي في أخبار مكة: (٤٧)
"مقبرة النصارى دبر المقلع على طريق بئر عنبسة بذي طوى". والمقلع هو "الجبل الذي بأسفل مكة على يمين الخارج الى المدينة".
ويعتقد أن "مسجد مريم" الذي ذكره المقدسي كان يقع بجوار مكة .(٤٨)
إذا ، الكعبة أصلها الغرفة المكعبة. وقد استخدمها النصارى للدلالة على كنائسهم كما سبق وأسلفنا - عند ذكر كعبة نجران والكعبة اليمانية -.



بئر زمزم

ولا يخفى القارىء قيمة بئر زمزم عند الحاج المسلم. وغالبا ما يعود الحاج من الحجاز بشيء من مياه "زمزم" في قارورة يستخدمها للتبرك بها أو أنها تكون هديته لمستقبليه.
وفي المأثور الاسلامي ، أن هاجر أم اسماعيل استعطفت ربها لتسقي ابنها الطفل عندما طردتها سارة ، فكان هذا البئر هبة الله وعطفا منه ، وأن المياه تدفقت حتى زمزمتها بيدها فأطلق عليها بئر زمزم. بينما نجد أن الأصل في التسمية مأخوذ من طقوس نصرانية ، وبالتحديد من تقديس الخمر قبل تقديم القربان. ونجد تأكيد ذلك في ما روي عن الأعشى من شعر في خمر جرجان اذ قال: (٤٩)

وينبغي أن نشير إلى أن "الحج" في الأساس هو عند اليهود "عيد العنصرة". واللفظ في الأصل يراد به مطلق النسك. وهو مشتق من العبرانية. وتكررت في أسفار العهد القديم بمعنى العيد والإحتشاد. وقد استخدمها المقريزي لليهود ، إذ ذكر حول أعيادهم في أيار: "وفيه عيد الموقف وهو حج الأسابيع. ويقال لهذا العيد في زماننا عيد العنصرة" (٥٠).
أما نصارى العرب. فإنهم استعاروا اللفظة من السريانية واتخذوها بمعنى زيارة الأماكن المقدسة. فقد وردت عند ذكرهم للكعبة اليمنية. وعند زيارة بيت المقدس. وقد ذكر ياقوت الحموي أن "بني عبد المدان بنوه (بناء الكعبة) مربعا فكانوا يحجونه هم وطوائف من العرب ممن يحلّ الأشهر الحرم ولا يحج الكعبة ، ويحجه خثعم قاطية.." (٥١).
ولقد كان نصارى العرب يحجون إلى مكة نفسها كما روى ذلك ياقوت الحموي في "معجم البلدان" لأنهم ، وبعض اليهود ، كانوا يرون في الكعبة تذكارا لما ورد في سفر التكوين (٥٢) عن هاجر

وإسماعيل، متفقين في ذلك مع تقليد عرب الحجاز. وقد ذكر في الأغاني (٥٣) خروج هدبة بن خشرم الى الحج وكان نصرانيا كما ذكر التبريزي (٥٤). وقد أسلفنا أن النصارى كانوا يدعون بعض بيعهم ب "الكعبات" مثل كعبة نجران.
وكان لكعبة مكة منذ عهد الجاهلية حرم أي حدود تحيط بها ولا يجوز انتهاكها. وإنما الحرم اتخذه النصارى لبعض كنائسهم الكبرى لامتيازها.
وفي هذا الصدد يروي الأزرقي ثانية عن ابن عباس (٥٥) ما يشير إلى أسبقية الحج النصراني على الحج الإسلامي فقال: "حج الحواريون، فلما دخلوا الحرم مشوا تعظيما للحرم".
وفي التاريخ المذكور أنه "لما هدموا الكعبة وجدوا في ركنها كتابة سريانية فسألوا عنها رجلا من أهل اليمن، وآخر من الرهبان. ثم روي مضمونها بروايات مختلفة ما هو حرفه: من يزرع خيرا يحصد غبطة، ومن يزرع شرا يحصد ندامة. تعملون السيئات فلا تجزون الحسنات، أجل كما لا يجتنى من الشوك العنب"(٥٦). وهذا ما نرى مأخوذ من كلام الإنجيل. وقد ورد أن هذه الكتابة وجدت أربعين عاما قبل مبعث النبي في عام الفيل.
والحجر الأسود: هو من الأحجار النيزكية أو البركانية، إذ يغلب عليه اللون الأسود نتيجة عوامل الإحتراق، وأعتقد أن هذا التقديس نجم عن عاملين اثنين: أولهما عامل قديم، فبالإضافة إلى أن الحجر مقذوف ناري صيغت حوله أساطير شتى، واعتبر عالما لأرواح السالفين المقدسين. بل كان أكثر جلالا لكونه يصل الأرض من السماء وسط مظاهرة إحتفالية تخلب لب البدوي المبهور، ذلك أنه يهبط بسرعة فائقة محتكا بغلاف الأرض الغازي، فيشتعل مضيئا ومخلفا وراءه ذيلا هائلا، ولذلك كان هول رؤيته في التصور الجاهلي دافعا لحسبانه ساقطا من عرش الآلهة في السماء، حاملا معه ضياء ذلك المكان النوراني.
وفي وقت تهيأت مكة لإفراز عناصر قيادية عربية، قدرت أحداث الجدل الدائر حول الكعبة المكية أن تكون الكعبة الأولى، والمحج الأقدس، وكان لا بد، إذ ذاك، من اضفاء هالة قدسية أكبر على الحجر الأسود.
وعندما أعيد تجديد بناء الكعبة في الجاهلية، إختلف أتباع البدع النصرانية حول من يضع الحجر في المكان المخصص له. وهنا نرى أن المكان الذي اختير للحجر هو زواية البناء. (وان اختلف مكانه بعد آخر تجديد لبناء الكعبة)، فكان في اعتبار نصارى الجاهلية رمزا للمسيح، أي "حجر الزاوية الذي رذله البناؤون" ويذكر المؤرخون المسلمون أن محمدا قبل مبعثه، أشار على الذين اختلفوا في حمله أن يوضع الحجر على عباءة فيمسك الجميع بأطرافها ويسيرون بالحجر إلى مكانه المخصص وعندما، امتثلوا لمشورته وانتقلوا بالحجر تناوله بيديه ووضعه في مكانه بزاوية البناء. ولا نزال نرى تأكيدات على ذلك في طريقة الإستلام واتجاه الطواف حول الكعبة، والدعاء الذي وصلنا من المأثور، رغم أن عوامل الإنقلاب على النصرانية، بعدما ترسخت دولة الإسلام قد آلت إلى تسميته ب "الحجر الأسود".
والواقع أن التفسير السابق ينسجم مع الآثار المسيحية التي وجدت في بطن بئر داخل الكعبة، وهي التي أشار اليها الكثير من المؤرخين العرب - كما أسلفنا - بما في ذلك صورة العذراء مريم وابنها

المسيح. ولو دققنا في الطواف لوجدنا أن نقطة ابتداء وانتهاء الشوط الواحد تحدّ الحجر الأسود ، أو حجر الزاوية. وأن الإتجاه يبدأ شمالا فغربا ، باتجاه القدس. (لاحظ الرسم).
وأما الدعاء الذي يقرأ عند الدخول من باب السلام لإستلام الحجر الأسود، فيستلزم الحاج المسلم أن يقول: "اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يرجع السلام فحينا ربنا بالسلام ، وأدخلنا الجنة دارك ، دارك دار السلام تباركت ربنا وتعاليت ..ومعروف أن المسيح هو السلام ومنه السلام.



الاسراء والمعراج والمصدر البولسي

كتب البشير بولس في رسالة الى أهل كورنثوس ما يلي: إنني أعرف انسانا في المسيح (يقصد نفسه) قد اختطف منذ أربعة عشر سنة الى السماء الثالثة. أفي الجسد ؟لست أعلم ...أم خارج الجسد ؟ ....لست أعلم ... الله أعلم. وأعرف أن هذا الانسان - أفي جسده أم بدون جسده ؟لست أعلم. الله أعلم قد اختطف الى الفردوس" (٥٧). ونرى القصة نفسها ، بل التشكك نفسه (إن كان الإسراء والمعراج بالجسد والروح أم بالروح فقط) في الموروث الإسلامي.
وقبل أن أدخل في تفاصيل هذا "الإختطاف" باللغة المسيحية ، وكيف تحول إلى "اسراء ومعراج" باللغة الإسلامية ، أود أن أستبق ذلك بانتحال المؤرخين والفقهاء المسلمين لصفة الرسول بولس وإسقاطها على نبي الإسلام محمد. فقد أطلق على الرسول بولس أثر ظهور السيد المسيح له على طريق دمشق (في ضاحية داريّا - دير الرؤى) لقب "الإناء المصطفى"، وهذا ما أخبره عن نفسه في رسالته الى أهل غلاطية. وربما بعض مقاطع الرسالة تفسر كيف وصل هذا اللقب الى المأثور الإسلامي الشفهي والمكتوب معا ، فقد ذكر الرسول بولس أنه بعد اهتدائه إلى الإيمان بظهور السيد المسيح له على طريق دمشق واعتماده على يد حنانيا التلميذ ، هرب من دسائس اليهود الى جزيرة العرب حيث أقام مدة. ومن البديهي أنه باشر منذ ذاك بالتبشير ، فدعا إلى النصرانية من اجتمع به من العرب بصفته "الاناء المصطفى".
إلا أن المأثور الذي انتقل إلى نبي الإسلام من الرسول بولس أكثر من ذلك بكثير. وإننا سنجد بعضا من ذلك في البحث المقبل حين نذكر ما تسلل من الإنجيل إلى أحاديث نبي الإسلام ، فضلا عما تسلل

من ذلك إلى حكم وأمثال علي بن أبي طالب. وإنما سنكتفي هنا ، بايراد تفاصيل اختطاف الرسول بولس الذي تحول إلى إسراء ومعراج اختص به "المصطفى ـ محمد" نبي الاإسلام. ولا أدري في الواقع ان كان نبي المسلمين نفسه قد أحيا فصول الاختطاف ونسبه إلى نفسه أم أن أصحابه هم الذين فعلوا وانتحلوا له بعد ذلك).

والواقع أنه كثر المحدثون الذين رووا تفاصيل الإسراء والمعراج ، فمنهم عائشة ، أصغر زوجات نبي المسلمين ، ومنهم عبد الله ابن مسعود ، ومنهم معاوية بن أبي سفيان والحسن بن أبي الحسن ، وقتادة ، وأم هانىء بنت أبي طالب ، وشهاب الزهري. ويتلخص الجامع المشترك بين هذه الروايات في أن محمدا أصبح ذات يوم، فدعا أهل قريش وقال لهم:

"بينا أنا نائم في الحجر - إذ جائني في جبريل، فهمزني بقدمه "فجلست فلم أر شيئا فعدت إلى مضجعي - فهمزني ثانية فجلست. فلم أر شيئا فعدت إلى مضجعي. فهمزني ثالثة فجلست. فأخذ بعضدي. فقمت معه. فخرج بي إلى باب المسجد حيث البراق (٥٨) فحملني عليه ، ثم خرج معي لا يفوتني ولا أفوته. حتى انتهينا إلى بيت المقدس، فوجدت فيه ابراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء، فصليت فيهم إماما ، ثم حملت ثانية وعدت إلى مكة قبل الفجر" (٥٩).

وسمع أهل قريش القصة فاستضحكوا وتغامزوا ثم انطلقوا يلهجون بها حتى أتوا أبا بكر وقد ارتد منهم الكثير ...وفوجىء أبو بكر بقصة صديقه ، وظن (أنهم يكذبون) (٦٠). فأصروا وقالوا: "ها هو ذاك في المسجد يحدث به الناس" ووقع في يد الرجل: لن يصدق الناس محمدا بعد اليوم ..ففكر قليلا ثم قال: "والله لئن كان قاله لقد صدق. فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه".

ولكي يمحو الشك من قلوبهم. قام معهم فقصد المسجد حيث محمد وسأله: "يا نبي الله ، أحدثت هؤلاء القوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة (٦١). قال: نعم. قال: يا نبي الله ، فصفه لي (أي بيت المقدس) فإني قد جئته ، فجعل محمد يصفه لأبي بكر. وكان كلما وصف منه شيئا ، يصرخ أبو بكر: صدقت ، صدقت ، أشهد أنك رسول الله. حتى انتهى، قال أبو بكر :صدقت ، صدقت ، فقال محمد: وأنت يا أبا بكر ....الصديق ..ولذلك دعي بالصديق . (٦٢)

وإذ أن السامعين يخشون أبا بكر ومن يمثل هذا (الصدّيق) فقد صدقوا ورووا ....والكل كان يشهد ويجزم بصحتها.

وبعد ذلك ، أورد الخطاب القرآن قوله: "سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى" (٦٣).

ولم يعد بعد ذلك من يحاجج رسول الله.

وبدأت عملية التشكيك ، في أن ذلك تم بالروح أم بالجسد والروح معا ، عندما قالت هند بنت أبي طالب (أم هانيء): إن محمدا كان نائما عندي تلك الليلة في بيتي ، فصلى العشاء الآخرة ، ثم نام ونمنا ، فلما كان قبيل الفجر ، أهبنا (أيقظنا) رسول الله صلعم. فلما صلى الصبح وصلينا معه قال: يا أم هانىء ، لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي ، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه ، ثم صليت الغداة معكم الآن كما ترين ..ثم قام ليخرج ، فأخذت بطرف ردائه، فتكشف عن بطنه

كأنه قبطية (٦٤)مطوية ؟ فقلت له: يا نبى الله ، لا تحدث الناس بهذا فيكذبوك ويؤذوك ، قال: والله لأحدّثنهموه ، ثم خرج وأخبر الناس وكان ما كان" (٦٥).
أم هانىء إبنة عمه لم تذكر لنا كيف نام عندها نبي الإسلام مع أنه طلبها للزواج فاعتذرت منه، وقد أورد الخطاب القرآني آية في ذلك إذ قال: "يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللآتي أتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك...(٦٦).
والإسراء هو السير ليلا وبالجسد - بحسب تفسير الجلالين - وأم هانىء تؤكد أن (رسول الله) نام في بيتها ولم يفارقه تلك الليلة. وكان اللغط في ذلك سببا في ورود آية جديدة في الخطاب القرآني تقول: "وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس" (٦٧). ولا ندري أي مصلحة لله في أن يفتن المؤمنين به!
وانبرت بعد ذلك عائشة ، أصغر زوجاته لتقول: "ما فقد جسد رسول الله (صلعم) ولكن الله أسرى بروحه". وصادق على رؤيتها معاوية ابن أبي سفيان - وكان كاتبا للوحي - فقال: "إنما كانت رؤيا من الله تعالى صادقة".
واختلف الرواة في أن المعراج تم في اليوم نفسه للإسراء. إنما من الثابت أنه إذا كان الإسراء في أصله مأثورا عن اختطاف الرسول بولس ، فإن المعراج مأثور عن رؤيا يوحنا اللاهوتي. ذلك أن أمل لقاء الله وجها لوجه كانت مطمحا لكل نبي.
وبالإسناد عن أبي إسحق عن أبي الخدري عن رسول الله قال: لما فرغت مما كان في بيت المقدس أتى بالمعراج (٦٨). ولم أر شيئا قط أحسن منه ، فأصعدني صاحبي (أي جبريل) فيه حتى انتهى بي إلى باب من أبواب السماء ، يقال له باب الحفظة. فتلقتني الملائكة ، وكل ضاحكا مستبشرا إلا واحدا ، فقلت لجبرائيل :من هذا الملك ولم لا يضحك ؟ فقال: هذا مالك صاحب النار. فقلت: ألا تأمره فأراها ؟ فأمره فكشف عنها غطاءها، ففارت وارتفعت حتى ظننت لتأخذن ما أرى. فقلت: مره فليردها. فأمره ، ثم أدخلني السماء الدنيا فرأيت رجلا جالسا تعرض عليه الأرواح فيقول لبعضها :روح طيبة، والأخرى: روح خبيثة.
فقلت لجبرائيل: من هذا ؟ قال: هذا أبوك آدم. ثم رأيت رجالا لهم مشافر كمشافر الابل ، في أيديهم قطع من نار يقذفونها في أفواههم ، فتخرج من أدبارهم. فقلت: من هؤلاء ؟ قال: هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلما.
وبعد أن يصف عذاب آل فرعون في النار وعذاب الرجال الذين تركوا حلالهم إلى (ما حرّم الله عليهم) والنساء المعلقات بأثدائهن (لأنهن أدخلن على رجالهن من ليس من أولادهم) يتابع رحلته إلى السماء الثانية:
فإذا فيها أبناء الخالة ، عيسى بن مريم ويحين بن زكريا ، ثم في السماء الثالثة:
فإذا رجل ، صورته كالبدر. وكان يوسف بن يعقوب. ويصعده جبريل إلى السماء الرابعة ويعرفه على إدريس ثم الى السماء الخامسة فإذا فيها كهل:
لم أر كهلا أجمل منه. سألت جبريل عنه فقال: هو هارون بن عمران. ثم أصعدني الى السماء السادسة فاذا فيها رجل آدم (أسود) ، طويل ، اقنى (المرتفع قصبة الأنف) كأنه من رجال شنوءة

(اسم لقبيلة) فقلت لجبرائيل: من هذا ؟ قال: هذا أخوك موسى بن عمران. ثم أصعدني الى السماء السابعة ، فإذا فيها كهل لم أر رجلا أشبه به. قلت: ومن هذا ؟ قال: هذا أبوك ابراهيم.
وكان جالسا على كرسي ، الى باب البيت المعمور (٦٩) يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ...ثم دخل بي الجنة ، فرأيت فيها جارية لعساء (٧٠).
فسألتها: لمن أنت ؟، وقد أعجبتني حين رأيتها ، فقالت: لزيد بن حارثة (فبشر بها، رسول الله ، زيدا حين عاد من السماء الى الأرض) (٧١).
ويتابع النبي سرد القصة:
ووصلنا إلى سدرة المنتهى (٧٢) فتراجع جبرائيل ودخلت (فكان قاب قوسين أو أدنى) (٧٣) فسجدت وسلمت. ثم ان الله فرض علي وعلى أمتي خمسين صلاة في اليوم. فأقبلت راجعا ، فمررت بموسى بن عمران فسألني: كم فرض عليك من الصلاة ؟ قلت خمسين صلاة كل يوم. فقال: إن الصلاة ثقيلة أمتك ضعيفة ، فارجع الى ربك فاسأله أن يخفف عنك وعن أمتك. فرجعت فسألته، فوضع عني عشرا. فعدت. فقال لي موسى مثل ذلك فرجعت فسألت ربي فوضع عني عشرا ...... وهكذا حتى انتهيت الى خمس صلوات في كل يوم وليلة. ثم رجعت إلى موسى ، فقال لي أن أرجع. فقلت قد راجعت ربي وسألته كثيرا حتى استحييت منه فما أنا بفاعل"(٧٤).
موسى ونبي الإسلام - في هذه الرواية - أرحم من الله بعباده ، كل هذا من أجل تخريج الرحلة الفضائية بمكوك إسمه البراق ، وبصكوك وعهود ونواميس ممهورة بتوقيع الله. بل إن الرواية نسبت لنبي الإسلام أنه أفاض في تصوير الأنبياء بشكلهم وملبسهم وألوان بشرتهم - ربما ليطمئن الصدّيق أبو بكر. فقد ذكر في وصف المسيح أنه "رجل أحمر ، بين القصير والطويل ، سبط الشعر ، كثير خيلان (الشامات السوداء) الوجه ، كأنه خرج من ديماس (أي الحمام) تخال رأسه يقطر ماءا وليس به ماء . أشبه رجالكم به: عروة بن مسعود الثقفي" (٧٥).
ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن "الصخرة المشرفة"، في القدس ، التي يعتقد المسلمون أن نبيهم عرج من فوقها الى السماء فارتفعت معه قليلا عن الأرض بارتفاعه وارتقائه هي في المأثور المسيحي تلك الصخرة التي صعد المسيح من فوقها إلى السماء في جبل الزيتون.



هوامش البحث

١- الأناجيل الأربعة
٢- رو ٢ : ١٤و ١٥
٣- رو ١٤ :١٧
٤- "شرح عقائد النسغي"
٥- سورة ق - آية ١٦
٦- متى ٦ : ١٢_ ١٣
٧- لوقا ١١ :٤
٨- سورة البقرة الآية ٨٢٦
٩- الجامع الصغير للسيوطي - مصدر سابق - ص ٦٦
١٠- كشف العمة عن جمع الأمة - ل "الشعراني"- ص ٤٠٢
١١- سورة الروم - آية ١٧١
١٢- سورة هود - آية ١١٤
١٣- النصرانية وآدابها - مصدر سابق
١٤- تاريخ الطبري (ج ١ :٧٢٩)
١٥- تاريخ ابن خلدون (ج ٢ :١٤٤)

١٦- "تاج العروس" -سيبويه- (ج ٥:٤١٩)
١٧- مصدر سابق (ج ١:٢٠٧)
١٨- سورة آل عمران - آية ٣٧
١٩- لسان العرب (ج ٤:٣١٤)
٢٠- ارشاد الساري (ج ٢:٣)
٢١- النصرانية وآدابها - مصدر سابق ص ١٧٧
٢٢- المصدر السابق (الصفحة نفسها)
٢٣- تاج العروس -سيبوية - (ج ٥:٣٦٣)
٢٤- الأغاني - لأبي الفرج الأصفهاني (ج ٣:١٦)
٢٥- سورة البقرة - الآية ١٨٥
٢٦- تاج العروس - مصدر سابق (ج ٥:٤٢٠)
٢٧- رواه أحمد
٢٨- رواه الترمذي
٢٩- أطلب معجم البلدان لياقوت الحموي (ج ٤:٣٣٦ - ٣٣٧)
٣٠- راجع المصدر السابق
٣١- النصرانية وآدابها (مصدر سابق) نقلا عن Diod III (ص ٢١١)
٣٢- المصدر السابق (ص ١٤)
٣٣- المصدر السابق (ص ١٥)
٣٤- المصدر السابق (ص ١٥)
٣٥- المصدر السابق (ص١٥)
٣٦- في كتابه "عبقرية خالد بن الوليد"
٣٧- Chauvin: Dela Mecque, Anvers, 1902
٣٨- شعراء النصرانية (الأب لويس شيخو -ص ٢١١ - ٢١٢)
٣٩- الأغاني (مصدر سابق) ج ١٣ ص ١٠٩
٤٠- راجع كتاب "تاريخ مكة شرفها الله تعالى وما جاء فيها من الآثار" تأليف ابن الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي (مصدر سابق) طبعة ليبزيغ ص ١١٠ - ١١٢
٤١- راجع المصدر السابق ص ١١١
٤٢- المصدر السابق ص ١١٣
٤٣- المصدر السابق ص ١١٢
٤٤- تاريخ اليعقوبي (طبعة ليدن) ج ا ص ٢٩٨
٤٥- الأغاني - مصدر سابق - ج ٢ ص ٢٤
٤٦- مصدر سابق
٤٧- تاريخ مكة ...للأزرقي (مصدر سابق) ص ٥٠١

٤٨- جغرافية المقدسي (ص٧٧)
٤٩- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (صدر سابق) ج ١٦ص ٤٥
٥٠- الخطط - للمقريزي ج ٢ - ص٤٧٤
٥١- معجم البلدان (مصدر سابق) ج٢ - ص ٧٠٣
٥٢- راجع الأصحاح ٢١ من سفر التكوين
٥٣- الأغاني (مصدر سابق) ج ٢١ -ص ١٦٤
٥٤- شرح الحماسة - التبريزي - ص ٢٣٥
٥٥- تاريخ مكة .. للأزرقي - مصدر سابق - ص ٣٦٦
٥٦- المصدر السابق - ص ٤٢ - ٤٣
٥٧- ٢كو/ ١٢: ٢ - ٤
٥٨- هي دابة بيضاء بين النغل والحمار ، وتستعمل في مواصلات الأنبياء (هكذا ورد)
٥٩- ابن هشام في "السيرة" ج ٢ - ص ٣٤ - ٣٥
٦٠- المصدر السابق نفسه
٦١- كأنه حتى تلك اللحظة لم يكن يصدق رواية نبيه
٦٢- السيرة لإبن هشام (مصدر سابق) ج ٢ - ص٣٣
٦٣- سورة الإسراء - الآية الأولى
٦٤- القبطية هي الثياب الداخلية التي نسجت في مصر من الكتان
٦٥- السيرة لإبن هشام (مصدر سابق) ج٢ - ص ٣٦
٦٦- سورة الأحزاب - الآية ٥٠
٦٧- سورة الاسراء - الآية ٦٠
٦٨- لم يفسر الرواة ما هو "المعراج"!
٦٩- المقصود باب الجنة
٧٠- النعساء .. امرأة تضرب حمرة شفتيها إلى السواد
٧١- زيد ، شاب أهدته له خديجة أولى زوجاته فتبناه
٧٢- قيل عنها شجرة نبق عن يمين العرش لا يتجاوزها أحد من الملائكة
٧٣- سورة النجم - الآية ١٠
٧٤- السيرة لإبن هشام - ج٢ - ص ٣٦ - ٣٩
٧٥- المصدر السابق ج ٢ ص ٣٥

الانجيل في الحديث والأمثال والحكم

ذكرنا، عند تظهير صورة الفكر الموسوي قبيل وإبّان ظهور الإسلام ، كيف تسللت أسفار العهد القديم ، ولا سيما الحكمية منها الى الحديث النبوي المنسوب إلى نبي الإسلام وإلى الحكم والأمثال المنسوبة إلى إبن عمه ووصيّه علي ابن أبي طالب.

ولست أزعم - كذلك هنا - أنني سأذكر حصرا كل ما تسرب من الإنجيل إلى حديث نبي الإسلام وإلى حكم وأمثال ابن عمه ، وإنما ستكون المقارنات التالية بمثابة مثال :

- لا تدينوا لئلا تدانوا، فانكم بالدينونة التي بها تدينون تدانون، وبالكيل الذي به تكيلون يكال لكم) .متى ٧:١ - ٢(

في الحديث: مكتوب في الإنجيل كما تدين تدان . وبالكيل الذي تكيل تكال. (الجامع الصغير - ص ١٠٤) ومثله: البرّ لا يبلى ، والذنب لا ينسى ، والديان لا يموت ، أعمل كما شئت ، كما تدين تدان (الجامع الصغير ص ١٦٦)

- طوبى للرحماء فانهم يرحمون (متى ٥:٧) ومثله: كونوا رحماء كما أن أباكم هو رحيم (لوقا ٦:٣٦) .

في الحديث: من يرحم الناس يرحمه الله. ومن لا يرحم الناس لا يرحمه الله (الجامع الصغير - ص ١٦٢). وكذلك قوله :كونوا رحماء فان الله رحيم يحب كل رحيم. (المناوي - ص ١١٥) .

قال يسوع: يا أبت إغفر لهم لأنهم لا يدرون ما يعملون (لوقا ٢٣:٢٤).
في الحديث: اللهم إغفر لقومي فانهم لا يعلمون (المناوي - ص ٢٥) وكذلك قوله: إرحم يا رب أمتي لأنهم لا يعلمون ما يصنعون (أحياء علوم الدين - الغزالي).
-كل ما ترون أن يفعل الناس بكم فافعلوه بهم (متى ٧:١٢) و (لوقا ٦:٣١).

في الحديث: أحبب للناس ما تحبه لنفسك (الجامع الصغير - ص ١٦) وقوله: لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه (المناوي - ص ١٨٦)
- إن إبن البشر لم يأت ليهلك نفوس الناس بل ليخلصها (لوقا ٨:٥٦)

في الحديث: إنما بعثت رحمة ولم أبعث عذابا (الجامع الصغير - ص ١٣٥)
- ما بالك تنظر القذى الذي في عين أخيك ولا تفطن للخشبة التي في عينك. يا مرائي أخرج أولا الخشبة من عينك (متى ٧:٣) و (لوقا ٦:٤٢)

الحديث: إذا أردت أن تذكر عيوب غيرك فاذكر عيوب نفسك (الجامع الصغير - ص ٢٦)
- أنتم جميعا أخوة (متى ٢٣:٨) وكذلك من رسالة بولس الى أهل غلاطية (٣:٢٨): ليس عبد ولا حرّ لأنكم جميعكم واحد في المسيح

الحديث: المسلم أخو المسلم (الجامع الصغير - ص ٤٤٠) وكذلك قوله :العبيد اخوانكم فأطعموهم مما تأكلون (البخاري ج ٣:١١٣)
- أحبوا أعداءكم ، وأحسنوا إلى من يبغضكم (متى ٥:٤٤)

الحديث: صل من قطعك وأحسن إلى من أساء إليك (الجامع الصغير - ص ٢٥٦) وكذلك قوله: الفضل في أن تصل من قطعك وتعفو عمن ظلمك (الجامع الصغير - ص ٦٦) وكذلك: أفضل الفضل أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتصفح عمن ظلمك (الجامع الصغير - ص ٣٠٣)
- أعداء الإنسان أهل بيته (متى ١٠:٣٦)

في الحديث: أعدى عدوك زوجتك وما ملكت يدك (الجامع الصغير - ص ٦٠) وورد مثل هذا المعنى في الخطاب القرآني (انظر مصادر الوحي في القرآن - للمؤلف)
- كم مره يخطأ الى أخي فأغفر له الى سبع مرات ؟ قال له يسوع: بل إلى سبعين مرة سبع مرات (متى ١٨:٢١ - ٢٢)

الحديث: أعف عن الخادم كل يوم سبعين مرة (المناوي - ص ١٩)
- ملكوت السموات يغضب. والغاصبون يختطفونه (متى ١١:١٢)

الحديث: إن أبواب الجنة تحت أظلال السيوف (البخاري ج ٣ ص ١٩١)
- من أحبّ أبا أو أما أكثر مني فلا يستحقني. ومن أهلك نفسه من أجلي يجدها (متى ١٠:٣٧)

الحديث: لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من ولده ووالده والناس أجمعين (البخاري ١:٩) ومثل ذلك قوله: لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من نفسه (المناوي - ص ١٨٦).
- طوبى لعيونكم لأنها تنظر. ولآذانكم لأنها تسمع. إن كثيرا من الأنبياء والصديقين اشتهوا أن يروا ما أنتم راؤون ولم يروا ، وأن يسمعوا ما أنتم سامعون ولم يسمعوا (متى ١٣:١٦- ١٧)

الحديث: إن أناسا من أمتي يأتون من بعدي يود أحدهم لو اشترى رؤيتي بأهله وماله (الجامع الصغير - ص ١١٥)
قال يسوع: لأنك رأيتني يا توما آمنت. فطوبى للذين لم يروني وآمنوا (يوحنا ٢٠:٢٩)

الحديث: طوبى لمن رآني وآمن بي. وطوبى لمن آمن بي ولم يرني (الجامع الصغير - ص ٢٧١). ومثل ذلك قوله :طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني (المصدر السابق نفسه) وكذلك قوله: رحم الله اخواني الذين آمنوا بي ولم يروني (المناوي - ص ٨٨)
- من سمع منكم فقد سمع مني .ومن احتقركم فقد احتقرني. ومن احتقرني فقد احتقر الذي أرسلني

الحديث: تسمعون ويسمع منكم (الجامع الصغير - ص ١٧١)
- إن الكتبة والفرسيين جالسون على كرسي موسى فمهما قالوا لكم فاحفظوه واعملوا به وأما بمثل أعمالهم فلا تعملوا (متى ٢٣:٢-٣)

الحديث: أنظروا قريشا فخذوا من قولهم وذروا فعلهم (الجامع الصغير - ص ١٤٣)
- أوفوا ما لقيصر ، وما لله لله (متى ٢٢:٢٠)

الحديث: أدوا للأمراء حقهم واسألوا الله حقكم (احياء علوم الدين -الغزالي)
- الرب معك ... مباركة أنت بين النساء (لوقا ١:٢)

الحديث: كلّ بني آدم يمسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها (الجامع الصغير - ص ٣١٩)
- امتلأت اليصابات من روح القدس. وارتكض الجنين في بطنها

الحديث :خلق الله يحيى ابن زكريا في بطن أمه مؤمنا (الجامع الصغير - ص ٢٠٥)
- كان قد أوحي إليه (أي الى سمعان الشيخ) إنه لا يرى الموت حتى يعاين الرب (لوقا ٢:٢٦)

الحديث: إن روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها (الجامع الصغير - ص ١١٨)

- ليس أمر غير ممكن لدى الله (لوقا ١:٣٧)

الحديث: إذا أراد الله خلق شيء لم يمنعه شيء (الجامع الصغير -ص ٢٥)

- الذي يعمل ويعلّم فهذا يدعى عظيما في ملكوت السموات (متى ٥:١٩)

الحديث: كل علم وبال على صاحبه إلا ما عمل به (الجامع الصغير -ص ١١٤)

- الويل لكم أيها الأغنياء (لوقا ٦:٢٤)

الحديث: ويل للأغنياء من الفقراء (الجامع الصغير - ص ٤٥٥)

- أنتم ملح الأرض فإذا فسد الملح فبماذا يملّح (متى ٥:١٣)

الحديث: مثل أصحابي كالملح لا يصلح الطعام إلا به (الجامع الصغير - ص ٤٠٢) ومثله في الايجاز والاعجاز للثعالبي - ص ٦

- كونوا ودعاء كالحمام (متى ١٠:١٦)

الحديث :كونوا بلها كالحمام (احياء علوم الدين _ الغزالي)

- حينئذ يضيء الصديقون مثل الشمس في ملكوت أبيهم (متى ١٣:٤٣)

الحديث: إن أهل عليين يشرف أحدهم على أهل الجنة فيضيء وجهه لأهل الجنة كما يضيء القمر ليلة البدر لأهل الدنيا (الجامع الصغير- ص ١١٦)

- إحذروا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بلباس الحملان ، وهم في الباطن ذئاب خطفة......... (متى ٧:١٠)

الحديث: إن بين يدي الساعة كذابين فاحذروهم (صحيح مسلم ج ٦:٤)

- صلوا في كل حين (لوقا ٢١:٣٦)

الحديث: الصلاة خير موضوع فمن استطاع أن يستكثر فليستكثر (الجامع الصغير - ص ٣٦٥)

- الحق أقول لكم ان كل ما تسألون الآب باسمي يعطيكموه (يوحنا ١٦:٢٣)

الحديث: ما أذن الله لعبد حتى أذن له في الإجابة (الجامع الصغير - ص ٣٨٦)

- إذا صليت فادخل مخدعك و أغلق بابك، وصلّ إلى أبيك في الخفية (متى ٦:٦)

الحديث: صلوا أيها الناس في بيوتكم، فأفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة (الجامع الصغير -ص ٦٦)

- إسألوا فتعطوا، أطلبوا فتجدوا ، أقرعوا فيفتح لكم (متى ٧:٧)

الحديث: من طلب شيئا وجدّ وجد. من قرع الباب ولجّ ولج (المناوي - ص ١٣٠). وكذلك الحديث بحسب الجامع الصغير - :سل تعط (ص ٨٥)
- أنظروا الى طيور السماء فانها لا تزرع ولا تحصد ، ولا تخزّن في الأهراء وأبوكم السماوي يقوتها (متى ٣٦:٦)

الحديث: لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما ترزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا (الجامع الصغير - ص ٣٦٨)
- وأنتم فصلّوا هكذا: أبانا الذي في السموات فليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك ، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض (متى ٩:٦- ١٠)

الحديث: إذا تألم أحد أو تألم أخوه فليقل: ربنا أنت في السماء ، ليتقدس إسمك ، ليكن ملكوتك في السماء والأرض. (حديث أبي داود - ج ١٠١:١)
- حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فأنا أكون هناك بينهم (متى ٢٠:١٨)

الحديث: يد الله مع الجماعة (الإعجاز والإيجاز - للثعالبي - ص ٦)
- اذا صنعت صدقة لا تعلم شمالك ما تصنع يمينك لتكون صدقتك في خفية وأبوكم الذي يرى في الخفية هو يجازيك (متى ٤:٦ - ٥)

الحديث: يمدّ الله يوم الدين من عمل الصدقة سرا بحيث لا تعلم يده الشمال ما فعلته يمينه (صحيح البخاري - ج ٧١:١)
- أرملة فقيرة ألقت فلسين ...إن هذه قد ألقت أكثر من كل الذين ألقوا في الخزانة (مرقص ٤٣:١٢- ٤٤)

الحديث: أفضل الصدقة سر إلى فقير وجهد من مقلّ (الجامع الصغير - ص ٦٥)
- كل من ترك بيتا أو إخوة لأجل إسمي يأخذ مئة ضعف ويرث الحياة الأبدية (متى ٢٢:١٩)

الحديث: إن الله تعالى لا يظلم المؤمن حسنة ، يعطي عليها في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة (الجامع الصغير - ص ٩٦)
- من سقى أحد هؤلاء الصغار كأس ماء بارد فقط .فالحق أقول لكم إنه لا يضيع أجره (متى ٤٢:١٠)

الحديث: من سقى عطشانا فأرواه فتح له باب الجنة (المناوي - ص ١٠٤)

ـ كل من رفع نفسه اتضع ومن وضع نفسه ارتفع (لوقا ١٤ :١١)

الحديث: من تكبر وضعة الله (المناوي ـ ص ١٥١). وكذلك قوله: من تواضع رفعه الله ، ومن تجبّر قمعه (الجامع الصغير ـ ص ٤١٤)

ـ إذا دعيت فامض واتكىء في آخر موضع (لوقا ١٤ :٧)

الحديث: إن من التواضع الرضى بالدون من شرف المجالس (الجامع الصغير ـ ص ٤٢)

ـ من أراد أن يكون فيكم عظيما يكون لكم خادما ، ومن أراد أن يصير فيكم الأول يكون عبدا للجميع (مر ١٠ :٤٣-٤٤)

الحديث: سيد القوم خادمهم (الجامع الصغير ـ ص ٢٤٤) و (المناوي ـ ص ٨٦)

ـ إنه لأسهل أن يدخل الجمل في ثقب الإبرة من أن يدخل غني ملكوت السموات (متى ١٩ :٢٤)

الحديث: في أصحابي اثنا عشر منافقا منهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الإبرة (الجامع الصغير ـ ص ٣٠١) وفي سورة الأعراف: ٣٨ ورد قوله: "لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سمّ الخياط" .... (راجع الجزء المتعلق ب "مصادر الوحي في القرآن" وهو من هذا الكتاب)

ـ لا تعطوا القدس للكلاب ، ولا تلقوا جواهركم قدام الخنازير (متى ٧ :٦)

الحديث: لا تطرحوا الدرّ في أفواه الكلاب (الجامع الصغير ـ ص ٤٦١) ومثله: لا تطرحوا الدرّ تحت أرجل الخنازير (المناوي ـ ص ١٩٢) وتجد مثله في (التمثيل ـ للثعالبي)

ـ من أحب نفسه يهلكها ، ومن أحب نفسه في هذا العالم فإنه يحفظها للحياة الأبدية (يو ١٢ :٢٥)

الحديث: من أحب دنياه أضرّ بآخرته. ومن أحب آخرته أضرّ بدنياه ، فآثروا ما بقي على ما يفنى (الجامع الصغير ـ ص ٤٠٨)

ـ أكثروا لكم كنوزا في السموات (متى ٦ :٢)

الحديث: من يتزود في الدنيا ينفعه في الآخرة (الجامع الصغير ـ ص ٤٣٦)

ـ إنما يتكلم الفم من فضل ما في القلب (متى ١٢ :٣٤)

الحديث: من أحب شيئا أكثر من ذكره (الجامع الصغير ـ ص ٤٠٨)

ـ هكذا يكون في السماء فرح بخاطىء يتوب أكثر مما يكون بتسعة وتسعين صديقا لا يحتاجون إلى توبة (لو ١٥ :٤-١٠)

الحديث: الله أفرح بتوبة عبده من العقيم الوالد ومن الضال الواجد ومن الظمآن الوارد (الجامع الصغير ـ ص ٣٥٧)

ـ الويل لكم أيها الضاحكون الآن ، انكم ستنوحون وتبكون (لو ٦ :٢٥)

الحديث: من أذنب وهو يضحك دخل النار وهو يبكي (الجامع الصغير - ص ٤١٠)
- بصبركم تقتنون أنفسكم (لو ١٩:١٢) وكذلك: الذي يصبر إلى المنتهى فذلك يخلص (متى ٢٢:١٠)

الحديث: الرجل الصالح يأتي بالخبز الصالح والرجل السوء يأتي بالخبز السوء (الجامع الصغير - ص ٢٣٢)
- الرجل الصالح من كنزه الصالح يخرج الصالحات. والرجل الشرير من كنزه الشرير يخرج الشرور (متى ٣٥:١٢)

الحديث: الرجل الصالح يأتي بالخبز الصالح ، والرجل السوء يأتي بالخبز السوء (الجامع الصغير - ص ٢٣٢)
- قال لهم: إن موسى لأجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلقوا نساءكم (متى ١٩:٨)

الحديث: ما أحل الله شيئا أبغض اليه من الطلاق (الجامع الصغير - ص ٣٨٤) وكذلك (المناوي - ص ١٣٩)
- إن كل من نظر الى امرأة لكي يشتهيها فقد زنى بها في قلبه (متى ٥:٢٦)

الحديث: زنا العينين نظر (الجامع الصغير - ص ٢٣٤)
- الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون، انكم تشبهون القبور المجصصة التي ترى للناس من خارجها حسنة ، وهي من داخلها مملوءة عظام أموات وكل نجاسة (متى ٢٧:٢٣)

الحديث: مثل الفاجر كمثل القبر المشرّف المجصص يعجب من رآه وجوفه ممتلىء نتنا (الجامع الصغير - ص ٤٠١)
- الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون فإنكم تشيدون قبور الأنبياء، وتزينون مدافن الصديقين ..تشهدون على أنفسكم أنكم قتلة الأنبياء (متى ٢٩:٢٣)

الحديث: لعن الله اليهود ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد (صحيح البخاري - ج ٢ :٨٣)
- أكبّ يسوع يخط باصبعه على الأرض ..فلما سمعوا طفقوا يخرجون واحدا واحدا (يوحنا ٨:٦ - ٩)

الحديث: قد كان نبي يخط فمن وافق خطه ذلك الخط علم (المناوي - ص ١٠٨)
- إن في انطلاقي خيرا لكم (يو ١٦:٧)

الحديث: حياتي خير لكم. مماتي خير لكم (المناوي - ص ٦٩) وكذلك :حياتي خير لكم "فاذا أنا متّ كانت وفاتي خيرا لكم" (الجامع الصغير- ص ١٩٧)

- أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لإبراهيم (متى ٣:٨)

الحديث: لو أن الماء الذي يكوّن منه الوالد أهرقته على صخرة لأخرج الله منها ولدا (المناوي - ص ١٦٢) ومثله في (الجامع الصغير _ ص ٣٦٧)

- إن كنت تريد أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا (متى ١٩:١٧()

الحديث: من اشتاق إلى الجنة سابق إلى الخيرات (الجامع الصغير- ص ٣٦٧)

- كثيرون من الأولين يكونون آخرين. ومن الآخرين يكونون أولين (متى ١٩:٣٠)

الحديث: عن أبي هريرة قوله: نحن الآخرون السابقون يوم القيامة (صحيح البخاري - الجزء الأول ص ١٢٩)

- الفصل ٢٠ في متى (٢:١٦) يذكر الفعلة الذين أخذوا جميعهم دينارا مع اختلاف شغلهم.

الحديث: أوتي أهل التوراة فعملوا حتى نصف النهار فأعطوا قيراطا قيراطا ثم أوتي أهل الانجيل فعملوا إلى صلاة العصر فأعطوا قيراطا قيراطا ، ثم أوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس فأعطينا قيراطين قيراطين ..الخ (صحيح البخاري ج ٣:٤٦ - ٤٧)

- وأخرج يسوع الذين يبيعون ويشترون في الهيكل (متى ٢١:١٢)

الحديث: نهي عن البيع والشراء في المسجد (الجامع الصغير - ص ٤٤٥)

- أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلمها أحد ولا الملائكة الذين في السماء ولا الإبن إلا الآب (مرقص ٣٢:١٣)

الحديث: أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس ، إن الله عنده علم الساعة (الجامع الصغير - ص ١٤٤) ومثل ذلك في القرآن (راجع مصادر الوحي في القرآن - الجزء المقبل من هذا الكتاب)

- إن الآب لايدين أحدا بل أعطى الحكم كله للإبن (يوحنا ٥:٢٢) وكذلك: وحينئذ يشاهدون إبن البشر أتيا على سحابة بقوة وجلال عظيمين ...

الخ (لوقا ٢١:٢٧) .... ومن ذلك أيضا: إننا جميعا سنقف أمام منبر المسيح (رؤيا يوحنا ١٤:١٠)

الحديث: ليهبطن إبن مريم حكما واماما مقسطا (الجامع الصغير- ص ٣٨٢). ومثل ذلك قوله: كيف أنتم إذا نزل إبن مريم فيكم وأمامكم منكم (الجامع الصغير - ص ٣٢٦) وكذلك قوله: ينزل عيسى بن مريم عند المنارة البيضاء شرقي دمشق (الجامع الصغير - ص ٤٦٨)

- ستقوم أمة على أمة ، ومملكة على مملكة. وتكون زلازل شديدة ...وأوبئة ومجاعات وتكون من السماء مخاوف وعلامات عظيمة.. الخ (لوقا ٢١:١٠-١١)

الحديث: لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم وتكثر الزلازل ويتقارب الزمان وتظهر الفتن ويكثر الهرج (صحيح البخاري - ج ٢:٢١)

- أجاب الرسل وبطرس وقالوا: إن الله أحق من الناس بأن يطاع (أعمال الرسل ٥:٢٩)

الحديث: طاعة الإمام حق ما لم يأمر بمعصية الله (الجامع الصغير- ص ٢٦٨) ومثله قوله: من أمركم من الولاة بمعصية الله فلا تطيعوه (الجامع الصغير - ص ٤١٦) وكذلك: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق (المناوي- ص ١٨٤)

- إعلموا وافهموا أنه ليس للزاني أو النجس أو البخيل الذي انما هو عابد وثن ميراث في ملكوت الله (١-كورنثوس ٦:٩)

الحديث: إن الجنة لا تحلّ لعاص (المناوي - ص ٣٦)

- إنه بالقلب يؤمن الإنسان للبر ويعترف للخلاص (رومية ١٠:١٠)

الحديث: الإيمان إقرار باللسان وتصديق بالقلب وعمل بالأركان (الجامع الصغير - ص ١٦٣)

- كل انسان كاذب (رومية ٣:٤)

الحديث: كل ابن آدم خطاء (الجامع الصغير - ص ١١٤)

- روّض نفسك على التقوى. إن التقوى تنفع في كل شيء ولها موعد الحياة الحاضرة والمستقبلة (تيم ٤:٧-٨)

الحديث: عليك بتقوى الله فانها جماع كل خير (الجامع الصغير- ص ٢٨٠)

- لتخضع كل نفس للسلاطين العالية ، فمن يقاوم السلطان يعاند ترتيب الله (رومية ١٣:٢)

الحديث: السلطان ظل الله في الأرض فمن أكرمه أكرمه الله ومن أهانه أهانه الله (الجامع الصغير - ص ٢٤٧)

- ما لم تره عين ولا سمعت به أذن ولا خطر على قلب بشر ما أعده الله للذين يحبونه (كورنثوس ٩:٢)

الحديث: إن في الجنة ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (الجامع الصغير - ص ١٢٠)

- ان بشرناكم نحن أو ملاك من السماء بخلاف ما بشرناكم به فليكن مبسلا (غلاطية ١:٨)

الحديث: لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم (الجامع الصغير- ص ٣٧١)

- ذكر في (١ كورنثوس ١١:٢٣-٣٠): إكرام الرب للخبز إذ كرّسه وجعله قربانا

الحديث: أكرموا الخبز فان الله أكرمه فمن أكرم الخبز أكرمه الله ...(ومثل ذلك): أكرموا الخبز فإن الله أنزله من بركات السماء وأخرجه من بركات الأرض (الجامع الصغير - ص ٧٢)
- الذي يأكل فللرب يأكل ، لأنه يشكر الله. والذي لا يأكل فللرب لا يأكل ويشكر الله (رومية ١٤:٦)

الحديث: الطعام الشاكر بمنزلة الصائم الصابر (الجامع الصغير- ص ٢٧١)
- اعرض عن الكلام العالمي الملتبس بالبدع ...الذي انتحله قوم فزاغوا عن الإيمان (١ تيم ٦:٢٠-٢١)

الحديث: إياكم ومحدثات الأمور ، فان كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة (ارشاد الطالبين - ص ٨)
- لا بد أن يظهر إنسان الخطيئة ابن الهلاك ويري من نفسه أنه هو الله ...فليهلكه الرب يسوع بنفس فمه (تسالوينكي ٢:٣- ٨)
الحديث: لم يسلط على الدجال إلا عيسى بن مريم (الجامع الصغير - ص ٣٦٥) وكذلك ليقتلن إبن مريم الدجّال بباب لدّ (الجامع الصغير - ص ٣٨١)
- الإيمان ان كان بغير أعمال فهو ميت في ذاته (يعقوب ٢:١٥-١٦)

الحديث: الإيمان قول وعمل (الجامع الصغير - ص ٥٦)
- اللسان نار وعالم من الإثم ...هو شر لا ينضبط مملوء سمّا مميتا (يعقوب ٣:٦-٨)

الحديث: أكثر خطايا بن آدم في لسانه (الجامع الصغير - ص ٧٠)
- إن محبة العالم عداوة لله فمن آثر أن يكون حبيبا للعالم فقد صار عدوا لله (يعقوب ٤:٤)
الحديث: حب الدنيا رأس كل خطيئة (الجامع الصغير - ص ١٩٢)
- صلاة الإيمان تخلص المريض والرب ينهضه (يعقوب ٥:١٥)

الحديث: قم فصلّ. إن في الصلاة شفاء (الجامع الصغير - ص ١١٠)
- في أيام نوح بني التابوت الذي خلص فيه نفر قليل (بطرس ٣:٢٠)

الحديث: إن مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك (الجامع الصغير - ص ٤٠٢)
- نحن أبناء الله ...نعلم اذا ظهر سنعاينه كما هو (١يوحنا ٣:٢)

الحديث: إنكم سترون ربكم يوم القيامة عيانا (المناوي - ص ٤٥)
- لا تكن محبتكم بالكلام ولا باللسان ، بل بالعمل والحق (١ يوحنا ٣:٨)

الحديث: من أحب الله حفظ وصيته. (ومثل ذلك): كل بني آدم يطعنه الشيطان في جنبيه باصبعه حين يولد غير عيسى بن مريم ذهب ليطعنه فطعن في الحجاب (الجامع الصغير - ص ٣١٩)

- إني كلّ من أحبه أوبخه و أؤدبه (رؤيا ٣:١٩)

الحديث: إذا أحب الله عبدا ابتلاه (الجامع الصغير _ ص ٢٣) وكذلك قولـه: إذا أراد الله بقوم خيرا ابتلاهم (المناوي - ص ٨)

- طوبى للأموات الذين يموتون في الرب ، لأن أعمالهم تابعة لهم (رؤيا ١٤:١٣)

الحديث: إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته من بعد موته علما نشره وولدا صالحا تركه وحياته تلحقه من بعد موته (الجامع الصغير - ص ٢١٥)

- لا يدخلها شيء نجس و لا فاعل رجس (أي السماء)...(رؤيا ٢١:٢٦)

الحديث: تنظفوا فانه لا يدخل الجنة إلا نظيف (الجامع الصغير- ص ١٠٢ و ١٦٣)

- أنا الأول و الآخر كنت ميتا و ها أنا حي ... ولي مفاتيح الموت و الجحيم (رؤيا ١:١٨)

الحديث: إنما بعثت فاتحا وخاتما (الجامع الصغير - ص ١٣٤) ومثل ذلك قوله: أعطيت فواتيح الكلام وجوامعه وخواتمه (الجامع الصغير - ص ٦١) ....وكذلك قولـه كنت أول النـاس في الخلق وآخرهم في البعث (المناوي - ص ١١٥) .. ثم قولـه: إنـي أعطيت مفـاتيح خزائن الأرض (صحيح البخاري _ج٢ ص ٨٦)



أمثال الامام علي والأناجيل الأربعة

من أمثال علي بن أبي طالب المنقولة عن الأناجيل الأربعة، نذكر ما يلي:

- مستجهل الله أحكم من الناس ومستصعف الله أقوى من الناس (بولس في ١
- كورنثوس ١:٢٥)

أمثال وحكم علي: ذليل الخلق عزيز عند الله (ص ١٤)

- من أراد أن يخلص نفسه يهلكها ومن أهلك نفسه من أجلي يخلصها (متى ١٦:٢٥)

في أمثال وحكم علي :من أضاع نفسه قتلها ومن عصى نفسه وصلها (ص ١٠٨)

- إن هذه الأرملة الفقيرة ألقت أكثر من كل الذين ألقوا في الخزانة (مرقس ١٢:٤٣)

وفي أمثال وحكم علي: درهم الفقير أزكى عند الله من دينار الغني (ص ٧٠).



الوثنية قبيل وإبان ظهور الإسلام

دأب دعاة المسلمين على نعت الفترة التي سبقت البعثة المحمدية بأبشع الأوصاف وأكرهها، حتى يرسخ في ذهن المسلم بأن تلك الحقبة التي سبقت الإسلام تطغى عليها الوثنية ، واستعاروا من القرآن لفظة "الجاهلية" وأطلقوها كمرداف ل "الوثنية" تارة، أو للدلالة على عدم معرفة القراءة والكتابة تارة أخرى.

وكان قد سبق للمسيحيين أن أطلقوا على الزمن الذي سبق ظهور المسيح إسم "الجاهلية" و "أيام الجاهلية" و "زمان الجاهلية"، وذلك استهجانا لأمر الإنسان ومصيره تحت حكم الناموس اليهودي (راجع أعمال الرسل ٢ الإصحاح ١٧ ـ الآية ٣٠)

ولقد تبينت لفظة الجاهلية في أربعة مواضع، وفي أربع سور من الخطاب القرآني. فقد وردت هذه اللفظة في سورة "آل عمران" (١٥٤)، وفي سورة "المائدة" (٥٠) ، وفي سورة "الأحزاب" (٣٣) ، ثم في سورة "الفتح" (٢٦). ويبدو أن الكثير من المفسرين حسب أن معناها هو "الجهل" (ضد العلم والمعرفة) ويتأتى عن ذلك عبادة الأوثان، جهلا بحقيقة الله الواحد، إضافة إلى عدم معرفة القراءة والكتابة. والواقع أن "الجاهلية" والجهل هما ، في اللغة العربية ، من جذور "جهل" أي "سفه" ومعناه نقيض "الحلم" و "الأناة" و "النخوة" و "المروءة" و "التسامح". ودليل ذلك ما ورد في الخطاب القرآني نفسه:

- ففي سورة الفرقان (٦٣) ورد قوله: "عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما"
- وفي سورة البقرة (٦٧) : "قالوا أتتخذنا هزؤا ...... قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين
- وفي سورة الأعراف (١٩٨): "خذ العفو وإأمره بالعروف واعرض عن الجاهلين"
- وفي سورة هود (٤٦): "إني أعظك أن تكون من الجاهلين"

وسنجد اللفظة ذاتها في كل مكان من سورة هود (٤٦) ، الفتح (٢٦) ، الأنعام (١١١)، الأعراف (١٣٧) ، الأحقاف (٢٣) النمل (٥٥) وكذلك في سور أخرى كثيرة. وفي الآيات جميعها تعني كلمة "جهل" ومشتقاتها ما هو نقيض الحلم والمحبة والروية، والنخوة والغفران والرحمة، ولا تعني في أي آية منها الوثنية، أو عدم معرفة القراءة والكتابة.

لقد ظن دعاة الإسلام أن وصف تلك الفترة ب "الجاهلية" سوف يخدم الإسلام ، لأنهم يرسخون في الإذهان فكرة أن الإسلام جاء ردا على وثنية غلبت على الحياة العربية. مع أن النصرانية واليهودية كانت هي الغالبة. وفي ذلك يتسائل عميد الأدب العربي، طه حسين بقوله: "أفتظن قوما يجادلون في هذه الأشياء جدالا يصفه القرآن بالقوة، ويشهد لأصحابه بالمهارة، أفتظن هؤلاء القوم من الجهل والغباوة والغلظة والخشونة" (١)؟

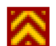
ويجيب طه حسين بقوله: "كلا لم يكونوا جهالا ولا أغبياء، ولا غلاظا، ولا أصحاب حياة خشنة جافية، وإنما كانوا أصحاب علم وذكاء ، وأصحاب عواطف رقيقة وعيش فيه لين ونعمة" (٢)

ثم إن القرآن قد تحدى عرب ما قبل الإسلام بقوله: "قل فأتوا بسورة مثله" (٣).

والتحدي لا يكون للضعيف بل للقرين الكفؤ ، وإلا لكان التحدي موضع سخرية.

هذا أمر.

والأمر الآخر، أن دعاة المسلمين يغفلون ذكر ما ورثه الإسلام من الوثنية، مع أن الوثنية كانت تقتصر على الأقلية وليس الأغلبية. وسيدهش القراء عندما يعرفون أن الإسلام أخذ الكثير من الوثنية ، مثل فريضة الحج ، والأشهر الحرم ، وحدود الزنا ، والسرقة ، وشرب الخمر ، فضلا عن بعض المسؤوليات الجزائية مثل القصاص ، الدية ، القسامة ، والعاقلة .... الخ.
ويبقى من المهم هنا ، أن نوضح الصورة الحقيقة للحالة الوثنية في المجتمع العربي قبيل وإبان ظهور الإسلام.



حقيقة الأوثان

ويقينا، ليس ثمة أغمض من تعريف أوثان بعض العرب قبيل الإسلام. ولو جمعنا كل ما كتبه المؤرخون المسلمون في تصانيفهم التي نجت من الحرق أو الضياع لما وجدنا أكثر من أسطر قليلة تضمنتها معاجم اللغة، ومنها "معجم البلدان" لياقوت الحموي، وما رواه الحاج خليفة في كشف الظنون.
والسؤال هنا: كيف يضيع كتاب مهم لإبن الكلبي عنوانه "أصنام العرب" وكتاب آخر للجاحظ عنوانه "الأصنام" برغم المنقولات عن هذين الكتابين في تصانيف المؤرخين العرب. إن المنقولات في الواقع لا تشفي غليلا لأنها قليلة من جهة، ولأنها كثيرا ما تكون مضطربة ومتناقضة من جهة ثانية. ومع ذلك، يمكن القول بأن ما كتبه الشهرستاني في "الملل والنحل" قد يكون أوسع ما جاء في ذلك ؛ يقول: (٤)
"وكانت أديان العرب مختلفة بالمجاورات لأهل الملل والإنتقال إلى البلدان والإنتجاعات فكانت قريش وعامّة ولد معد بن عدنان على بعض دين إبراهيم يحجّون البيت ويقسمون المناسك ويقرون الضيف ويعظّمون الأشهر الحرم وينكرون الفواحش والتقاطع والتظالم ويعاقبون على الجرائم فلم يزالوا على ذلك ما كانوا ولاة وكان آخر من قام بولاية البيت الحرام من ولد معد ثعلبة بن اياد بن نزار بن معد. فلمّا خرجت إياد وليت خزاعة حجابة البيت فغيّروا ما كان عليه الأمر في المناسك حتى كانوا يفيضون من عرفات قبل الغروب ومن منى بعد أن تطلع الشمس. وخرج عمرو بن لحيّ، وإسم لحيّ ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر، إلى أرض الشام وبها قوم من العمالقة يعبدون الأصنام فقال لهم: ما هذه الأوثان التي أراكم تعبدون. قالوا: هذه أصنام نعبدها ننتصرها فننصر ونستسقي بها فنسقى. فقال: ألا تعطوني منها صنما فأسير به إلى أرض العرب عند بيت الله الذي تفد إليه العرب.
فأعطوه صنما يقال له هبل فقدم به مكّة فوضعه عند الكعبة فكان أوّل صنم وضع بمكّة ثم وضعوا به إساف ونائلة كل واحد منهما على ركن من أركان البيت. فكان الطائف إذا طاف بدأ بإساف فقبّله وختم به ونصبوا على الصفا صنما يقال له "مجاور الريح" وعلى المروة صنما يقال له "مطعم الطير" فكانت العرب إذا حجّت البيت فرأت تلك الأصنام سألت قريشا وخزاعة فيقولون: نعبدها لتقر بنا إلى الله زلفى. فلمّا رأت العرب ذلك اتّخذت أصناما فجعلت كل قبيلة لها صنما له تقرّبا إلى الله فيما يقولون. فكان لكلب بن وبرة وأحياء قضاعة ودّ منصوبا بدومة الجندل بجرش.

وكان لحمير وهمدان نسر منصوبا بصنعاء وكان لكتابه سواع. وكان لغطفان العزّى وكان لهند ومجيلة وخثعم ذو الخلصة. وكان لطيء الفلس منصوبا بالحبس. وكان لربيعة وإياد ذو الكعبات بسنداد من أرض العراق. وكان لثقيف اللات منصوبا بالطائف. وكان للأوس والخزرج مناة منصوبا بفدك ممّا يلي ساحل البحر. وكان لدوس صنم يقال له سعد. وكان لقوم من عذرة صنم يقال له شمس. وكان للأزد صنم يقال له رئام".

أفترض أننا سنضيف إلى لائحة الأصنام التي ورد ذكرها آنفا أسماء آلهة أخرى ورد ذكرها في بعض التواريخ والشروح والمعاجم، مثل: رضا، مفاف، جلسد، سعير، والقصير. فإن العد لن يبلغ بالقارىء إلى أكثر من ثلاثين صنما. ومعظمها لم يعبد في جزيرة العرب، مثل "ود"، "سواع"، "يغوث"، "يعوق" و "نسر" الذين ذكر أنهم من آلهة قوم نوح، كما أورد الخطاب القرآني (٥). وإذا ذاك كيف يزعم إبن إسحق وابن هشام أن عدد الأصنام في الكعبة كان ٣٦٠ صنما على عدد أيام العام الواحد.

إن هذا يعيدنا إلى ما ذكرته آنفا من أن المبالغة في تضخيم صورة الحالة الوثنية كان دأب الدعاة المسلمين، للإيحاء بأن الإسلام جاء ردا على عبادة الأوثان. بل إن هؤلاء الدعاة انساقوا في إتجاه آخر للإيحاء بأن الوجود النصراني في الجزيرة العربية اقتصر على مجموعة من الرهبان الذين تباعدت صوامعهم على الطريق بين مكة والشام.

يذكر الأب شيخو (٦) إن الإكتشافات الحديثة جاءت كلها. لتدحض ما زعمه رينان من أن الشعوب السامية عموما والعربية خصوصا كانت تقول بالتوحيد، لا عن وحي

خاص، بل عن غريزة "لأن عقل الساميين على زعمه مطبوع من أصله على البساطة، وكانت غايته من ذلك أن ينكر الوحي بالإله الواحد إلى بني إسرائيل". ويضيف الأب شيخو (٧) أن العرب في الجاهلية عاشوا في الشرك مدة قرون عديدة "أما شركهم فكان تأليه قوى الطبيعة إجمالا والأنوار العلوية خصوصا".

والواقع أن الأب شيخو فاته في هذا المجال أن بعض الفراعنة سبق بني إسرائيل إلى التوحيد قبلهم أيضا. وليس هذا هو بيت القصيد. فقد فات الأب شيخو - رغم غزارة علمه ورجاحة عقله - أن مقياس الرسول الذي أقيم بدلا من يهوذا الأسخريوطي وسار إلى بلاد الشراة فبشر فيها بالمسيح، قد علّم القبائل العربية في الجزيرة بأن المسيح هو النور الحقيقي، نور الحياة، وأن العربي في ذلك الوقت لا يستطيع أن يؤمن بشيء لا يراه، فإن كان لا يرى إلهه فإن محتوم عليه أن يرمز إليه برمز، ومن ذلك تأليهه للأنوار العلوية والسيارات والشمس، وأنه لما كانت الشمس هي النور العظيم فإن عبادتها فاقت كل ما سواها. وكنت أود لو ألفت الأب شيخو في حياته إلى أن النبطيين الذي يعبدون ذي الشرى (أي الشمس) قد جعلوا يوم ٢٥ كانون الأول - يناير من كل عام عيدا للإله المنير. وهذا التاريخ يوافق عيد مولد المسيح الذي تحتفل به غالبية المسيحيين كل عام.

أعود هنا للتذكير بأن الكثير من شواهد كتبة اليونان والسريان والعرب تثبت كرازة رسل المسيح في أحياء العرب. ويذكرون منهم متى وبرتلماوس ومتيا وتدّارس وتوما. وقد نقل المؤرخون المسلمون بعض هذه الشواهد كالطبري (١٠)، وأبي الفداء (١١)، والمقريزي (١٢)، وابن

خلدون (١٣)، والمسعودي (١٤)، هذا فضلا عن بعض تلاميذ الرسل ممن تناقل الرواة خبر بشارتهم بين العرب مثل فيليبس الشماس، وتيمون تداى. ولكن عزلة بطون القبائل أحيانا، وانقطاع البشارة أحيانا أخرى كان يؤدي في الغالب إلى أن يشذ هذا البطن أو ذاك عن عبادة المرموز له إلى عبادة الرمز نفسه.

وإذا، إن كنت لا أنفي إن بعض القبائل العربية قد تحول تدريجيا عن عبادة المرموز إلى الرمز نفسه لإنقطاع في التبشير والتعليم. فإنما أؤكد في الآن ذاته، أن العرب من بين الساميين قد عرفوا التوحيد في فترات محددة ومتقطعة.

وبالإضافة إلى عبادة الأنوار العلوية والسيارات عرف العرب عبادة "اللاة" وهي صخرة بيضاء مربعة كانت تعبدها ثقيف في الطائف. واليوم أجمع الأثريون على أن "اللاة" هي الزهرة. والعرب يدعونها "أليتا" وقد أصلحوا إسمها فدعوها الإلات وهو اختصار "الإلاهات" كما اختصروا كلمة "الإله" فقالوا "الله"، كما اختصروا "الإلات" فقالوا "اللات".

والزهرة نفسها أسماها بعض العرب "العزّى" وقد تسمى بإسمها كثير من العرب، فكان الواحد منهم يدعى ب "عبد العزى".

ومن أسماء العزّى أيضا "مناة". وهي على ما يروي ياقوت الحموي (٨) _ كانت صنما أتى به عمرو بن لحي. وذكر في محل آخر (٩) أن اللات أخذت من مناة. وكان بعض عرب ما قبل الإسلام يجعلون الآلهه أزواجا، لكل ذكر أنثاة. فكان لآلهة الشمس زوجها "البعل" وهو من أصنام العرب ـ أما ذكر العزى فهو الإله "عزيز". وذكر "اللات" هو "اللاه".

ومما يلحق بعبادة الكواكب والنيرات عند بعض عرب ما قبل الإسلام إكرامهم لزحل والشعرى والجوزاء، أي الجبار ، والدبران ، والثريا ، وقزح الذي كان يكرم قرب مكة.

وكانوا ينعتون آلهتهم بأوصاف شتى، فقد وجدت في الكتابات الحميرية والنبطية ذكر تقادم للإله مالك وللإله رحمان، وللإله رحيم ، وللإله عزيز الذي سبق ذكره.

مواطن تأثر الإسلام بالوثنية

قد يدهش الكثير من القراء عند ما يعرف أن الإسلام قد أخذ من الجاهلية كثيرا من الشؤون الدينية الشعائرية من الحياة الوثنية.

ففي الخطاب القرآني ورد ذكر كثير من أصنام العرب في معرض التنديد غالبا. وأحيانا في معرض الإشارة كتلك الآية المنسوخة من سورة النجم والتي ورد فيها: "واللاة والعزى ومناة الثالثة الأخرى........ تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى". وهي الآية التي يذكر المفسرون أن الشيطان ألقاها في فم محمد عندما كان جبريل يلقنه الوحي. حتى أنه ورد في الخطاب القرآني ما يبرر نسخها بقوله: "وما أرسلنا قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته. فينسخ الله ما يلقي الشيطان، ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم" (١٥).

ومن ذلك ما ورد في الخطاب القرآني من تسمية زوج المرأة ب "البعل" تعظيما لمكانته وسطوته عليها. وجاء ذلك في أكثر من آية. ومثال ذلك قوله: "وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما ان يصلحا بينهما........ "، وقوله: "قا لت يا ويلتي أألد وأنا

عجوز وهذا بعلي شيخا" (١٧). وقوله: "وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا" (١٨). وقوله: "ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن...... "(١٩).
ولكن البيان القرآني الذي يسمى الرجل الزوج بعلا للتدليل على علو مكانته وتميزه عن زوجته، يندد ببعل الإله الصنم في آية أخرى فيتسائل مستنكرا: "أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين" (٢٠). والغريب في هذه الآية أنها تشير إلى تعدد الخا لقين. وإلى أن الله هو أحسنهم، وذلك عند تناولها التنديد ببعل.
أما الإله الصنم عزيز وهو ذكر "العزى" فقد تحول إسمه في الخطاب القرآني إلى "عزيز"، وربما كان سبب الإختلاف هو التنقيط الذي أدخل على حروف القرآن. بل إن الخطاب القرآني اشتق من "عزيز" فعل التعزير كقوله: "... لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم...... " (٢١). والمقصود ب "عزرتموهم" هو (قبلتم أن رسلي هم من عزير).
وتكرر الفعل المشتق من عزير في الآية القائلة: "فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور ... " (٢٢). وكذلك في قوله: "لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه ... " (٢٣).
وأنكر الخطاب القرآني في الآن ذاته على اليهود أن يزعموا بأن العزيز (عزير) هو إبن الله: "وقالت اليهود عزير ابن الله" (٢٤).
وإذ نكتفي من الخطاب القرآني بما أوردناه، ننتقل إلى الشعائر التعبدية الموروثة وفي طليعتها تعظيم البيت الحرام (الكعبة)



الحج قبل الإسلام

جاء الإسلام وأبقى على تقديس الكعبة ومكة وأطلق عليها البيان القرآني ما أطلق من ألقاب التشريف والتي لا نرى موجبا لذكرها نظرا لكثرتها. ومن الثابت أن العرب قبل الإسلام كانوا يحجون في شهر ذي الحجة من كل عام. وكانوا يقومون بذات المناسك التي يقوم بها المسلمون حتى اليوم.
فالتلبية في الحج هي نفسها (مع حذف بعض عبارات فيها شرك بالله). ولم يتبدل الإحرام ولا ارتداء ملابس الإحرام، ولا سوق الهدى وإشعاره، ولا الوقوف بعرفة أو الدفع إلى مزدلفة. كذلك لم يتبدل التوجه إلى منى لرمي الجمرات ولا النحر ولا الطواف حول الكعبة سبعة أشواط. فكل ذلك لم يزد أو ينقص في الإسلام. واستمرت عادة تقبيل الحجر تعظيما له. كما استمر السعي بين الصفا والمروة.
جاء الإسلام وورث من العرب قبله هذه الفريضة بذات المناسك واستخدم الألفا ظ نفسها في التلبية بعد أن طهرها من عبارات الشرك، وأضاف عليها عبارات التوحيد. ورغم ذلك فإن الطواف يستمر حول حجر أسود، والسعي بين الصفا والمروة يبقى سعيا بين الصنمين "أساف" و "نائله". لقد كان قدامى الوثنيين العرب إذا اغتسلوا وتوضأوا طافوا حول الصنم دفعات معدودة ويستلمون الصنم فيقبلونه، أو يتقربون منه بتلبية معلومة، ومنها تلبية ذو الكفين وهو صنم دوس وقد رواها ابن حبيب على الشكل التالي:

"لبيك اللهم لبيك. إن جرهما عبادك. الناس طرف وهم تلادك ونحن أولى منهم بولائك".
وروى تلبية الصنم "نسر" كذلك فذكر أنهم كانوا يقولون في طوافهم: "لبيك اللهم لبيك لأننا عبيد. وكلنا ميسرة وأنت ربنا الحميد".
كذلك روى تلبية شمس، صنم بني تميم كما يلي:
لبيك اللهم لبيك، ما نهارنا نجرّه. أزلامه وحرّه وقرّه. لا نتقي شيئا ولا نضره، حجا لرب مستقيم برّه".
واستبدل المسلم في حجه الصنم بالله، وعبارات الشرك بعبارات التوحيد، وأبقى التمجيد في التلبية لإله واحد لا شريك له. وفي ما عدا ذلك بقيت الشعائر والمناسك نفسها من قص النواصي وحلق الشعور، ورمي الجمرات أو الحصى. إنما ألغى الإسلام طواف العذارى عاريات حول أصنام الكعبة، فقد كن يرقصن مسبلات ذيولهن كما روى امرؤ القيس:
فعنّ لنا سرب كأن نعاجه عذارى دوار في ملاء مذيل.
والواقع أن نساء بعض العرب كنّ يفعلن ذلك لا من باب الإنحلال الخلقي، كما يحاول أن يوهم بعض الدعاة، وإنما لشدة تقديسهن للكعبة، خشية أن يطفن بها، ويقبّلن الحجر الأسود، بالثياب التي كنّ قارفن فيها ذنوبا وآثاما.
وسيتبادر لذهن القارىء هنا أنني أتحدث عن أصول وثنية للحج فيما كنت تحدثت عن أصول نصرانية للكعبة، والواقع أن الجذور الوثنية سبقت وعاصرت الأصول المسيحية. وهذه الأصول لم تتوحد، بل أظهرت تناقضا ملموسا، وكان هذا من جملة أسباب ظهور الحمس المتحنفين ثيابا يطوفون بها حول الكعبة، باعتبار أن المتحنفين متشددون ومتطهرون.



الأشهر الحرم والوثنية

وأبقى الإسلام كذلك على عادة الوثنيين في تحريم الأشهر الحرم. والواقع أن العرب قاطبة، يهودا ونصارى ووثنيين كانوا يعتبرون أشهر ذي القعدة، وذي الحجة، ومحرم، ورجب أشهرا حرما. أما شهر رجب قبل الإسلام فهو شهر العمرة. وما زلنا حتى الآن نسمع عن "الرجبية" وهي العمرة التي تتم في شهر رجب. وكان العرب يسمونه الفرد فيقولون: "ثلاثة سرد وواحد فرد".



يوم الجمعة

ولم يكن هناك في الإسلام ما يقال له يوم الجمعة حتى استحدثها كعب بن لؤي. فقد كان يقال ليوم الجمعة "يوم العروبة" (٢٥). وكان يوم اجتماع عام تناقش فيه القبائل أوضاعها السياسية والإجتماعية، وكان بمثابة مؤتمر عام. وقد حافظ المسلمون الأوائل على هذه الصفة إلى أن تحول "الجمعة" إلى يوم عبادة يستسلم فيه المسلم لمواعظ وفتاوى الفقيه، الذي سبق واتعظ قبل ذلك من الحاكم أو الوالي.



الرقى والتعاويذ

ويلتقى الإسلام مع الوثنية، كذلك، في الرقى والتعاويذ. فلقد كان العرب قبل الإسلام يتلون العزائم لأصنامهم ويرقون لإخراج الشياطين والجان. وأكثر ما استعمل العرب الرقى قبل الإسلام، كان في الشفاء من لدغ الثعبان والعقرب والنملة. وكانت "الشقاء بنت عبد الله ترقى قبل مبعث محمد من لدغ النملة، وهي ممن بايعن محمدا بن عبد
الله وهاجرت معه إلى المدينة. وقد طلب منها نبي الإسلام أن تعلم رقية النملة إلى زوجه حفصة بنت عمر، فإنه لم يجد شركا في كلمات الرقية (٢٦). وكان آل حزم
كذلك ممن يرقون من لدغ الأفعى، وقد طلب نبي المسلمين من عمارة بن حزم أن يرقى بعض أصحابه بعد أن راجع نص الرقية فلم يجد به شركا (٢٧).



الحسد

وانتقلت من الوثنية إلى الإسلام عادة الإيمان بالحسد وتأثير الحاسد. وأقر بذلك الخطاب القرآني في قوله: "قل أعوذ برب الفلق ومن شر
ما خلق. ومن شر غاسق إذا وقب. ومن شر النفاثات في العقد. ومن شر حاسد إذا حسد" (٢٨).



العين

وانتقل إلى الإسلام من الوثنية الإعتقاد بتأثير العين، وهي بخلاف الحسد. ويقول "ابن قيم الجوزية أن "كل عائن حاسد وليس كل حاسد عائن" (٢٩). وفي حديث عن نبي الإسلام روي عن أبي هريرة في الصحيحين قوله: "العين حق". كما ورد في الصحيحين عن عائشة قولها: "أمرني النبي صلعم أن نسترقي من العين". كما أخرج البزار بسند حسن رفعه عن جابر قول نبي الإسلام: "إن العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر".



النفث

ومن الوثنية انتقل إلى الإسلام الإعتقاد بتأثير "النفث في العقد" وهو من ضروب السحر ويقال عنه أنه "أشد من النفخ وأقل من القفل" فقد قال قبل الإسلام متمم بن نويرة:

نفثت في الخيط شبيه الرقى		من خشية الجنة والحاسد

وقال عنترة بن شداد:

فإن يبرأ فلم أنفث عليه		وإن يفقد فحق له المفقود

وأقر الخطاب القرآني بذلك في سورة "الفلق" التي ورد ذكرها آنفا. بل إن المعوذتين وهما سورة "الفلق" و "سورة الناس" قد أنزلتا بوحي إلى نبي المسلمين لترقيه بهما أصغر زوجاته عائشة فقد كان ـ حسب ما روته ـ "يشعر بأنه يأتي النساء ولا يأتيهن" (٣٠).



المرأة وتعدد الزوجات

لا بد من الإشارة قبل كل شيء إلى أن سيادة الرجل على المرأة انتقلت من الوثنية إلى الإسلام. وصحيح أن الإسلام قونن هذه السيادة وأخضعها لنظم وسنن إلا أنه أبقى على السلطة والسيادة الواسعتين اللتين كان يتمتع بهما الرجل في الأسرة قبيل ظهور الإسلام.

وقد أسمى الخطاب القرآني الزوج بعلا. والبعل قبل الإسلام هو الرب المالك والسيد. ونذكر في هذا الصدد ما قاله حاتم الطائي:

وما تشتكيني جارتي غير أنها

سيبلغها خيري ويرجع بعلها

وما من شك أن إطلاق البيان القرآني على الزوج اسم "البعل" هو من آثار الزواج عن طريق التملك. وتقابل "البعل" كلمة "المبعولة" وهي تعني هنا الزوجة التي هي بمثابة مملوكة ومسودة ومربوبة لبعلها. وهذه التسمية في الذاكرة الجماعية أورثت الزوجة شعورا بالإستكانة والإستسلام والطاعة والتبعية المطلقة والقبول بالمهام التي حددها لها زوجها (البعل) وهي المتعة الجسدية والإنسال وخدمة البيت وتربية الأطفال. ولا بد من الإقرار هنا بأن الإسلام ألغى العرف القاضي بامتلاك الإبن لزوجة أبيه من بعد وفاة الأب.

ولقد أقر الإسلام تعدد الزوجات. وقد ورد في الخطاب القرآني قوله: "وانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع........" (٣١). ويختلف المفسرون في معنى هذه الآية، فمنهم من يرى أن الآية لا تعني الوقوف عند أربع زوجات، ولكن أجمعت الأمة على خلاف ذلك وهو الإكتفاء بأربع. وقد رأينا أن التحديد بأربع كان من تأثير تعليم الحبر اليهودي هليّل الذي حرص على تكاثر اليهود في الجزيرة العربية في أعقاب هروبهم من فلسطين في القرن الأول للميلاد.

لكن المسلمين الذين ورثوا من أسلافهم عدم استساغة تحديد عدد الزوجات رأوا أن الطلاق هو السبيل إلى الإفلات من التحديد. فمن حق المسلم أن يطلق زوجته ويتزوج بغيرها، شريطة أن لا تجتمع لديه في وقت واحد أكثر من أربع زوجات، بخلاف ملك اليمين، وهن الإماء والسراري.

وإن نظرة إلى سجل زواج الصحابة، ومنهم الخلفاء الراشدون، ومنهم المبشرون بالجنة وكتبة الوحي. لكفيلة بأن تفتح عيوننا على حقائق جديدة غير مسألة تعدد الزوجات:

- **أبو بكر الصديق: تزوج أربعا.**

اثنتين قبل الإسلام وهما:

١- قتيلة بنت عبد العزى
٢- أم رومان والدة عائشة واثنتين بعد الإسلام وهم:
١- اسماء بنت عميس
٢- حبيبة بنت خارجة (توفي عنها وهي حامل)

- **عمر بن الخطاب: تزوج تسعا (٣٢)**

١- زينب بنت فطعون بن حبيب
٢- أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب
٣- أم كلثوم بنت جرول بن مالك
٤- جميلة بنت ثابت بنت أبي الأفلح
٥- أم ولد سرية تسمى لهية (وانجبت له أبا المجبر)
٦- أم ولد سرية (وأنجبت له عبد الرحمن الأصغر)
٧- أم حكيم بنت الحارث بن هشام
٨- أم ولد وتسمى فكيهة (وأنجبت له زينب)
٩- عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل (ابنة عمه)

- **عثمان بن عفان تزوج تسعا أيضا**

١- رقية بنت محمد رسول الإسلام
٢- أم كلثوم بنت محمد رسول الإسلام
٣- فاطمة بنت غزوان
٤- أم عمرو بنت جندب
٥- فاطمة بنت الوليد
٦- أم البنين عيينة
٧- رملة بنت شيبة بن ربيعة
٨- نائلة بنت الفرافصة
٩- أم ولد (وأنجبت له أم البنين)

- **علي ابن أبي طالب**

١- فاطمة بنت محمد رسول الإسلام
٢- خولة بنت جعفر بن قيس
٣- أم البنين بنت حزام
٤- ليلى بنت مسعود بن خالد
٥- أسماء بنت عميس
٦- الصهباء أم حبيب
٧- أمامة بنت أبي العاص. (أمها زينب بنت محمد رسول الإسلام)
٨- أم سعد بنت عروة بن مسعود الثقفي
٩- محياة بنت امرؤ القيس بن عدي

في خارطة الزواج هذه، يلفتنا ما يلي:
أولا – أن بعض النساء تزوجن ثلاثة أو أربعة أو خمسة

- عاتكة بنت زيد بن عمر بن نفيل تزوجت خمسة

١- عبد الله بن أبي بكر
٢- عمر بن الخطاب
٣- طلحة بن عبيد الله (أحد المبشرين بالجنة)
٤- محمد بن أبي بكر (شقيق عبد الله بن أبي بكر)
٥- عمرو بن العاص

- أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط تزوجت بأربعة

١- زيد بن حارثة
٢- الزبير بن العوام (أحد المبشرين بالجنة)
٣- عبد الرحمن بن عوف (أحد المبشرين بالجنة)
٤- عمر بن العاص

- عائشة بنت طلحة بن عبيد الله تزوجت بثلاثة:

١- عبد الرحمن بن أبي بكر
٢- مصعب بن الزبير بن العوام
٣- عمر بن عبيد الله

- أم كلثوم بنت علي تزوجت بثلاثة:

١- عمر بن الخطاب
٢- عون بن جعفر الطيار بن أبي طالب
٣- وتزوجت من أخيه محمد

- أم اسحق بن طلحة تزوجت بثلاثة

١- الحسن بن علي بن أبي طالب

٢- الحسين بن علي بن أبي طالب

٣- محمد بن عبيد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر

- أسماء بنت عميس تزوجت بثلاثة

١- جعفر الطيار بن أبي طالب

٢- أبي بكر الصديق

٣- علي بن أبي طالب

ثانيا: يلفتنا هنا أيضا أن عليا بن أبي طالب لم يكتف بفاطمة "ابنة رسول الله" و "سيدة نساء العالمين" بل تزوج بإبنة أختها أمامة بنت أبي العاص وهي حفيدة رسول الإسلام. وتزوج من أسماء بنت عميس بعد أن توفي عنها زوجها أبو بكر الصديق. ومن جهته أعطى عمر بن الخطاب ابنته أم كلثوم زوجة له. وكل هذا لم يمنع اطلاق تهمة النفاق على عمر بن الخطاب، وسلفه أبي بكر الصديق، من قبل أبناء وأحفاد علي والمتشيعين له. كما أن ذلك لم يمنع عمرا من استبعاد علي عن الخلافة.

ثم إن عمرا تزوج من عاتكة بنت زيد بعد أن طلقها حليفة أبو بكر. ولا ندري كيف قونن صحابة "رسول الله" عملية تبادل الزوجات هذه. وإذا كانت الغاية هي تشديد الأواصر بين الأقطاب، كما سبق وذكر أسباب تعدد زوجات الرسول، فإن سؤالا يعترض القائلين بذلك إن كان ذلك قد أسهم في رأب الصدع بين علي من جهة وأبي بكر وعمر من جهة ثانية!!!

لقد تزوج رسول الإسلام بحفصة إبنة عمر بن الخطاب، ولكن ذلك لم يمنع الفاروق من الإنقلاب والتمرد عليه قبل يوم من وفاته عندما طلب محمد فقرطاسا وقلما ليكتب للمؤمنين كتابا لا يضلون بعده، فكان ردّه: دعوه إنه يهجر (أي يهذي) فقد غلبه الوجع ... حسبنا كتاب الله" (٣٣). لقد اتهمه بالهجر والهذيان مع أن الخطاب القرآني نزّهه عن ذلك بقوله: "إن هو إلا وحي يوحى". فأين تلك الذريعة القائلة بأن تعدد زوجات "رسول الله" كان غرضه توحيد كلمة العرب ! ... ... لقد كان نبي الإسلام يضمن ولاء أبي بكر له منذ البداية وحتى النهاية، ومع ذلك تزوج من ابنته عائشة وهي لا تتجاوز التاسعة (وفي رواية أخرى سبعة أعوام فقط).

أروي هنا ملابسات محاضرة ألقاها الدكتور التيجاني السماوي في جامعة السوربون الفرنسية وكما دوّنها هو نفسه في كتابه: "فاسألوا أهل الذكر":

كنت يوما في جامعة السربون بباريس أتحدّث عن أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وخلقه العظيم الذي تحدث عنه القرآن وعرف به النبي (ص) حتى قبل البعثة فسمّوه الصّادق الأمين ودامت المحاضرة ساعة تقريبا أوضحت خلالها بأنه صلّى الله عليه وسلم لم يكن محاربا ولا غاصبا لحقوق الإنسان في تقرير مصيره، وفرض دينه بالقوة والقهر كما يدّعي بعض المستشرقين.

وخلال المناقشة التي شارك فيها نخبة من الأساتذة والدكاترة المختصّين بالإسلام وتاريخ المسلمين وجلّهم مستشرقون. وانتصرت نوعا ما على المناوئين الذين أثاروا بعض الشبهات،

ولكن أحدهم وهو عربي مسيحي طاعن في السن (أعتقد أنه لبناني) اعترض عليّ بأسلوب فيه خبث ودهاء فكاد يقلب انتصاري إلى هزيمة نكراء.
قال هذا الدكتور بلسان عربي فصيح، بأنّ ما ذكرته في المحاضرة فيه كثير من المبالغة وبالخصوص فيما يتعلق بعصمة النبي إذ أنّ المسلمين أنفسهم لا يوافقونك على ذلك، وحتى محمد نفسه لا يوافق على ذلك، فقد قال عديد المرات، بأنه بشر يجوز عليه الخطأ وقد سجّل له المسلمون أخطاء عديدة نحن في غنى عن التعريف بها وكتب المسلمين الصحيحة والمعتمدة عندهم تشهد على ذلك، ثم قال: وأمّا بخصوص الحروب فما على حضرة المحاضر إلا مراجعة التاريخ ويكفي أن نقرأ فقط كتب الغزوات التي قام بها محمد في حياته، ثم واصلها الخلفاء الراشدون بعد وفاته حتى وصلوا إلى (Poitier) مدينة
بواتييه بغرب فرنسا وفي كلها كانوا يفرضون دينهم الجديد على الشعوب بالقهر وقوة السيف.
وقابل الحاضرون كلامه بالتصفيق مؤيدين مقالته وحاولت بدوري إقناعهم بأن ما ذكره الدكتور المسيحي غير صحيح وإن أخرجه المسلمون في كتبهم، وارتفعت ضجة من الضحك في القاعة استهزاء وسخرية مني.
وتدخّل الدكتور المسيحي من جديد ليقول لي بأنّ ما ذكره ليس من الكتب المطعون فيها وإنما هو في صحيح البخاري ومسلم.
وقلت بأن هذه الكتب صحيحة عند أهل السنّة أمّا عند الشيعة فلا يقيمون لها وزنا، وأنا مع هؤلاء.
فقال: نحن لا يهمنا رأي الشيعة الذين يكفّرهم أغلب المسلمين، والمسلمون السنّة وهم أكثر من الشيعة عشر مرات لا يقيمون لآراء الشيعة وزنا، ثم أضاف قائلا: إذا تفاهمتم أنتم المسلمون مع بعضكم البعض وأقنعتم أنفسكم بعصمة نبيّكم، عند ذلك يمكن أن تقنعونا نحن (قال ذلك ضاحكا متهكما).
ثم التفت إليّ من جديد قائلا: وأمّا بخصوص الأخلاق الحميدة فأنا أسألك أن تقنع الحاضرين كيف تزوّج محمّد الذي بلغ من العمر أربعا وخمسين بعائشة وعمرها ست سنين؟
وارتفعت من جديد ضجة الضحك واشرأبت الأعناق تنتظر ردّي وحاولت جهدي إقناعهم بأنّ الزواج عند العرب يتم على مرحلتين... المرحلة الأولى وهو العقد وكتب النكاح ... والمرحلة الثانية وهو البناء والدخول، وقد تزوج النبي عائشة وعمرها ست سنوات ولكن لم يدخل بها إلا بعد أن بلغت تسع سنوات، واستطردت بأنّ هذا ما يقوله البخاري إن كان مناقشي يحتج عليّ بما فيه. وأنا شخصيا أشك في صحة الرواية لأنّ الناس في ذلك الزمان لم يكن لهم حالة مدنية ولا تسجيل تاريخ الميلاد ولا تاريخ الوفاة، وعلى فرض صحة الرواية فإن عائشة بلغت سن الرشد في التاسعة من عمرها فكم رأينا اليوم على شاشة التلفزيون بعض الفتيات الروسيات والرومانيات لاعبات "الجمباز" اللاتي عندما تراهن وترى كمال أجسامهن تستغرب عندما يعلنون عن عمرها وأنها لم تتجاوز إحدى عشر عاما. فلا شك بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يدخل بها إلا بعدما رشدت وأصبحت تحيض، والإسلام ، لا يقول بالرشد لمن بلغ ثمانية عشر عاما كما هو معروف عندكم في فرنسا. بل الإسلام يعتبر الرشد بالحيض للنساء وبخروج المني للرجال.

وكلنا يعلم حتى اليوم بأن من الذكور من يمنون في سن العاشرة ومن الإناث من يحضن في سن مبكرة قد لا تتجاوز العشرة.

وهنا قامت سيدة وتدخّلت لتقول: نعم وعلى فرض أنّ ما أوردته قد يكون صحيحا وهو صحيح علميا، ولكن كيف نقبل بزواج شيخ كبير أوشك عمره على نهايته بفتاة صغيرة ما زالت في العقد الأول من عمرها؟

قلت: إنّ محمدا نبي الله ولا يفعل شيئا إلا بوحي منه، ولا شك أنّ لله في كل شيء حكمة، وإن كنت شخصيا أجهل الحكمة في ذلك.

قال الدكتور المسيحي: لكن المسلمين اتخذوا ذلك سنة، فكم من فتاة صغيرة زوجها أبوها غصبا عنها برجل يوازيه في السن ومع الأسف فإن هذه الظاهرة بقيت حتى اليوم موجودة. انتهزت هذه الفرصة لأقول: ولذلك أنا تركت المذهب السنّي واتبعت المذهب الشيعي، لأنه يعطي حق المرأه في أن تزوج نفسها بمن شاءت هي لا بما يفرضه عليها الولي.

قال: دعنا من السنّة والشيعة ولنعد إلى زواج محمد بعائشة والتفت إلى الحاضرين ليقول بكل سخرية: إن محمدا النبي والبالغ من العمر أكثر من الخمسين يتزوج بنيّة صغيرة لا تفهم من الزواج قليلا ولا كثيرا ، والبخاري يحدثنا بأنها كانت في بيت زوجها تلعب بالدّمى وهذا يؤكد على براءة الطفولة، فهل هذه هي الأخلاق العالية التي يمتاز بها النبي؟

وحاولت من جديد إقناع الحاضرين بأن البخاري ليس حجة على النبي (ص) ولكن بدون جدوى، فقد لعب هذا المسيحي اللبناني بأفكارهم كما أراد، وما كان لي

لا أن أوقفت النقاش متذرعا بأننا لا نتكلم نفس اللغة لأنهم يحتجون علي بالبخاري في حين أنني لا أؤمن بكل ما ورد فيه.

وخرجت ناقما على المسلمين الذين أعطوا لهؤلاء، ولأعداء الإسلام وأعداء محمد (ص) السّلاح النافذ الذي يحاربوننا به وعلى رأس هؤلاء البخاري ! ورجعت للبيت يومها مهموما وأخذت أتصفح صحيح البخاري وما ذكره في فضائل عائشة وأحوالها فإذا بي أقول الحمد لله الذي فتح بصيرتي، وإلا بقيت متحيرا في شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وربما داخلني الشك فيه العياذ بالله.

ولا بد من إظهار بعض الروايات التي أثيرت خلال المناقشة حتى يتبين للقاريء بأن هؤلاء المنتقدين لم يفتروا علينا وإنما وجدوا بغيتهم في صحاحنا فاستعانوا بها علينا.

فقد أخرج البخاري في صحيحه من كتاب بدء الخلق باب تزويج النبي صلى الله عليه وسلم عائشة وقدومه المدينة وبنائه بها.

- عن عائشة رضي الله عنها قال: تزوجني النبي صلى الله عليه وسلم وأنا بنت ست سنين فقدمنا المدينة فنزلنا في بني الحرث بن خزرج فوعكت فتمزق شعري فوفى جميمة، فأتتني أمي أم رومان وإني لفي أرجوحة ومعي صواحب لي، فصرخت بي فأتيتها لا أدري ما تريد بي، فأخذت بيدي حتى أوقفتني على باب الدار وإني لألهج حتى سكن بعض نفسي ثم أخذت شيئا من ماء فمسحت به وجهي ورأسي ثم أدخلتني الدار فإذا نسوة من الأنصار في البيت فقلن على الخير

والبركة وعلى خير طائر. فأسلمتني إليهن فأصلحن من شأني، فلم يرعني إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحى فأسلمنني إليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين.

وأترك لك أيها القارىء لتعلق بنفسك على أمثال هذه الروايات.

كما أخرج البخاري في صحيحه من كتاب الأدب باب الإنبساط إلى الناس.

- عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت ألعب بالبنات عند النبي صلى الله عليه وسلم وكان لي صواحب يلعبن معي، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل يتقمّعن منه فسربهنّ إليّ فيلعبن معي.

يقول الشارح: ألعب بالبنات، يعني التماثيل المسماة بلعب البنات - ويسربهن إليّ: أي يبعثهن ويرسلهن إلي وأنت تقرأ مثل هذه الروايات في صحيح البخاري أيبقى عندك اعتراض بعدها على نقد بعض المستشرقين إن كنت منصفا؟

قل بربّك ! عندما تقرأ قول عائشة لرسول الله صلى الله عليه وسلم "ما أرى ربك إلا يسارع في هواك" (٣٤).

ماذا يبقى في نفسك من احترام وتقدير لإمرأة كهذه التي تشكك في نزاهته صلى الله عليه وسلم، وهل لا يبعث ذلك في نفسك أنها تصرفات مراهقة لم يكتمل عقلها.

وهل يلام بعد ذلك أعداء الإسلام الذين كثيرا ما يثيرون حبّ محمد للنساء وأنه كان شهوانيا إذا قرأوا في البخاري بأن الله يسارع في هواه، ويقرأون في البخاري بأنه كان يجامع إحدى عشر زوجة في ساعة واحدة وقد أعطي قوة ثلاثين.

من هذا المدخل نستطيع التعرف على موقف الإسلام من المرأة على وجه العموم - لا كزوجة فقط - لقد حاول الكثيرون أن يشرفوا موقف الإسلام من المرأة، ولجأوا في سبيل ذلك إلى ليّ أعناق الآيات القرآنية لتتجسم مع ادعاءاتهم، وهو موقف ليس فيه ذرة من الأمانة العلمية. فيما الحقيقة العلمية تؤكد أن نظرة الإسلام إلى المرأة لم تكن أكثر من تهذيب لموقف الوثنيين العرب. ومن يشك في أن الإسلام تبنى بقليل من التهذيب الموقف الوثني، فليفسر لنا تفسيرا موضوعيا (النصوص المقدسة) مثل: "لن يفلح قوم ولوّا إمرأة عليهم" (٣٥). والحديث: "النساء ناقصات عقل ودين". وكذلك البيان القرآني: "فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء"

(٣٦).

فشهادة المرأة هنا تعادل نصف شهادة الرجل"، وكذلك وصية القرآن: "يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين" (٣٧). والأمثلة القرآنية أكثر من أن تحصى في هذا المجال. لقد أقرّ الإسلام قوامة الرجل على المرأة. فالله في الإسلام وافق الوثنية السابقة على الإسلام في تفضيل الرجل في الميراث والشهادة والقوامة، وأعطى الزوج حق تأديب الزوجة، بالتوبيخ والتأنيب، ثم هجر المبعولة في المضجع، وضربها لقوله: "فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن" (٣٨). الغريب في الأمر، أن نبي الإسلام عندما جاءه زيد بن حارثة يشكو اليه ضد زوجته زينب وما يعانيه من سوء معاملتها له لم ينصحه بهجرها وضربها في المضجع كما أمر الخطاب القرآني بل قبل منه أن يطلقها ليتزوج منها هو نفسه. مع أنه في حادثة أخرى

ضرب رجل من الأنصار زوجته فأسرعت المرأة الجريحة إلى نبي الإسلام، وطلبت إليه، بصفته حكما، تطبيق الشريعة، والتمست القصاص، ووافق الرسول فورا، وأعد العدة لتنفيذ قراره وعندما أوحى له بالآية القائلة "واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن ......"(٣٩). وأدرك نبي الإسلام أن قراره يخالف حكم الله استدعى الزوج وتلا عليه الآية المذكورة آنفا. وقال له: أردت شيئا وأراد الله شيئا آخر" (٤٠). ونجد أن هذا التفاوت بين الله ونبيه لم يقم عندما شكا زيد بن حارث زوجته زينب بنت جحش إلى محمد. والمبرر نجده في الخطاب القرآني لقوله: "ولما قضى منها زيد وطرا زوجناكها..." (٤١).

تمييز العربي عن غيره

من المؤكد أن عرب ما قبل الإسلام كانوا متعالين جدا ويسمون غير العرب ب "العجم". وكان العرب قبل الإسلام يسمون كل من لا يتكلم بكلامهم "أعجميا" واستعلاء العرب يتضح في إطلاقهم صفة العجم أيضا على البهائم. فالمرأة العربية عجماء.
والبهيمة أيضا عجماء، والفرس (أهل فارس) هم من العجم عند العرب، ومصدر احتقار. ومعروف أن أحد أسباب نشوب الحرب بين الفرس والعرب المشهورة بيوم "ذي قار" هو رفض النعمان الإصهار إلى كسرى. وانتقلت عدوى احتقار الأعجمية إلى الخطاب القرآني فتبرأ من الأعجمية بقوله: "لسان الذي يلحدون إليه أعجمي" (٤٢).
وبقوله: "أأعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء" (٤٣). وبقوله: "ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصّلت آياته" (٤٤). وكذلك قوله: "ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين" (٤٥).
ومناسبة الآيات الواردة في الخطاب القرآني أن "كفار قريش" كانوا يعيّرون محمدا بأن أعجميا كان يعلمه القرآن. وبعضهم ذكر أنه "جبر" وهو عبد لبني الحضرم. والبعض ذكر أنه بلعام القين الذي كان يقرأ التوراة. والبعض ادعى أنه سلمان الفارسي. مع أن سلمان لم يلتق نبي العرب إلا في يثرب (٤٦).
ويروى أن عمر بن الخطاب قد قال مرة: "والله لو كان مولى سالم بن حذيفة حيا لوليته عليكم". وإن صح هذا الذي نسب إليه، فلا يعتقد أنه كان جادا فيه، فقد سبق له وأن رفض تزويج ابنته من سلمان الفارسي رغم فضله ومكانته عند رسول الإسلام. والسبب في ذلك واضح لأن (الأثر

الشريف) يقول: "إن الموالي ليسوا أكفاء للعرب" وفي الحديث النبوي ورد قوله: "جرح العجماء جبار" (يعني جرح البهيمة).

كذلك انتقلت إلى الإسلام من الوثنية السابقة عليه عدوى كراهية الأعراب، وواقع الأمر أن التفرقة بين "العرب" و "الأعراب" كانت مستقرة في المجتمع العربي السابق على ظهور الإسلام، لا سيما في مكة حيث ظهر الإسلام وفي يثرب التي استقام فيها عوده.

وكما انتقلت عدوى كراهية الأعجمية إلى الخطاب القرآني كذلك انتقلت إليه عدوى احتقار الأعراب ومن ذلك قوله:

"الأعراب أشد كفرا ونفاقا" (٤٧)

وقوله: "ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما" (٤٨)

وقوله: "ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله" (٤٩).

وقوله: "سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا" (٥٠).

وقوله: "قل للمخلفين من الأعراب" (٥١).

وكذلك قوله: "إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون" (٥٢). وقد نزلت هذه الآية في أعراب بني تميم، أولئك الذين يسميهم محمد بن اسحق ب " حفاة بني تميم" (٥٣).

ولقد أسقط المسلمون فيما بعد وفاة رسولهم شهادة الأعراب عن الحاضرة ومنعوا إمامتهم في الصلاة (٥٤).

ورغم أن رسول الإسلام قال بأن يقوم بإمامة الصلاة أقرأ القوم للقرآن (أي أحفظهم له) فإن مالكا صاحب المذهب المعروف بإسمه إلى اليوم، قد تجاوز هذا الحديث وأفتى بعدم جواز إمامة الأعرابي حتى ولو كان الأقرأ (٥٥).



مسألة الرق

كانت الغزوات في الجزيرة العربية قبيل وبعد ظهور الإسلام هي المصدر الأول للرق. المنتصر يستعبد المهزوم، يأخذ الرجال أسرى ويحمل النساء سبايا. وأما المصدر الثاني فكان الفقر، فالمعوز من العامة يقترض من الأشراف، حتى إذا ما عجز عن سداد الدين استرقه الدائن. وظهر النخاسة وكان أبرزهم عبد الله بن جدعان زعيم قريش (٥٦). وظلت الجارية - إلى ما بعد استقرار دولة الإسلام بقرون طويلة - تنفذ كل ما يوكل إليها من أعمال، وتعاون في جمع الطعام ويصنع بها سيدها ما يشاء، يتخذها أمة لنفسه، أو يكرهها على البغاء ويقبض ما قدره من دخل.

وروى لنا الطبري: (٥٧)

أنه كان لعبد الله بن سلول جارية تسمى مسيكة يجبرها على الزنا فتأتي له في آخر اليوم بدينار أو برد، فيقول لها في اليوم التالي: إرجعي فازني. وقد يعتق السيد جاريته ويتزوجها بغير مهر، كما فعل عروة بن الورد مع امرأة سباها أثناء السطو فهربت منه عند أول فرصة (٥٨).

ويسهر العبد على خدمة سيده يلازمه كالظل، ويحارب عنه في الغالب، أو يبقى في المخيم لحماية المتاع. هذا فضلا عن تشغيل العبيد في الإنتاج، في التجارة والحرف وأعمال البناء والرعي.

والعبد ملك يصلح محلا للبيع والهبة والميراث. ذاك كان هو المجتمع العربي قبيل وإبان ظهور الإسلام مجتمع يعبد بعض أشرافه الأصنام، يأكلون الربا، يعسفون بالضعيف، يقهرون العبيد، يفسقون بالإماء. فهل غيّر الإسلام من هذا الواقع شيئا؟

لقد أفاد نبي الإسلام في أول ظهوره كرسول من النقمة الإجتماعية لدى الطبقات المعدومة ولا سيما العبيد، فاستقطبهم واستعان بهم فكانوا خليته وهنا يلفتنا ردة فعل أشراف قريش المعدية لرسالة محمد لم يكن مبعثها ديني، فلم تكن حربهم له دفاعا عن الأوثان كما يحاول التاريخ الإسلامي أن يصور لنا في آلاف مجلداته، بل دفاعا عن امتيازات طبقية، لقد انحاز محمد في البداية إلى المحرومين، فالآيات المكية التي تهاجم التجار وتطالب بالكف عن الإستغلال كثيرة، وتكرارها يدل على عناد هؤلاء وعلى عدم جدوى إنذارهم:

وأوفوا الكيل والميزان بالقسط" (٥٩)

"وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس" ... (٦٠)

"والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا في الميزان" (٦١)

وقرر الخطاب القرآني حقا للفقراء في أموال الأغنياء:

"والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم" (٦٢)

"وفي أموالهم حق للسائل والمحروم" (٦٣)

"وكذلك ما أرسلنا قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون". (٦٤)

لكن رسول الإسلام الذي استقطب العبيد والإماء في حركته أعطى في الوقت ذاته مصادقة ربانية على التمايز الطبقي مكتفيا بالحض على المعاملة الحسنة:

"وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم. إن ربك سريع العقاب. وإنه لغفور رحيم" (٦٥). وهناك من الدعاة المسلمين من ينفي أن يكون المقصود بهذه الآية إقامة نظام طبقي، بل يرى العكس من ذلك إن المقصود هو إنهاء النظام الطبقي، وأن اللبس يأتي حينما يروى جزء من الآية ويسكت عن الباقي. وهذا الإدعاء زائف لأن التمايز الطبقي هنا مقرر بإرادة إلهية. ولا يقلل من خطورة ذلك أن تكون الغاية اختبارا وامتحانا.

نعم، كان المستضعفون هو نواة التمرد الذي قادة رسول الإسلام، ونفر قليل من أصحاب التجار. فأول من أظهر الإسلام مع محمد خمسة من العبيد ـ هم بلال، وخبّاب، وصهيب، وعمار، وسمية أم عمار، وتاجر واحد من تجار مكة هو أبو بكر. وهذا التركيب لأول نواة إسلامية يستدعي التوقف. لأن محمدا لم يثر حفيظة قريش بدينه الجديد، ودعوته الجديدة إلى إله واحد، بل أثار حفيظة أشرافها أنه استعدى عبيدهم عليهم. لقد تعايشت البدع النصرانية الستة عشر مع اليهودية والوثنية على أرض الجزيرة العربية، ولم تكن هذه الحركات والبدع الدينية في تفاعلها،

وفي مصادماتها لتثير حفيظة قريش، فقد كان المجتمع القرشي قادرا على استيعاب الحركات الدينية الجديدة، إنما ما كان المجتمع القرشي عاجزا عن استيعابه هو إدخال خلل على تركيبه الطبقي. ولهذا تصدت قريش لمحاربة محمد وأصحابه. لم تكن المواجهة بين اللاة والعزى ومناة الثالثة الأخرى من طرف، والإله الواحد من طرف آخر. فقد كان هذا الإله الواحد موجودا في عقيدة اليهود والنصارى معا. ولم تشهد الجزيرة العربية صداما بين هؤلاء واولئك في وقت ما.
إذا، فما استفز أشراف قريش هو أن عبيدها المقهورين كانوا في مقدمة الثوار: بلال، وخباب، وصهيب وعمار وسمية. ثم زيد بن حارثة الذي يذكر أنه أول من اعتنق الإسلام.
وكان عبدا لمحمد أهدته له زوجته الأولى خديجة. وإذ حاول أشراف قريش التصدي لهذه الحركة الجديدة، فإن محاولتهم بادىء الأمر اقتصرت على التنكيل بالعبيد
والجواري، ولم يذكر لنا التاريخ الإسلامي أن أبا بكر مثلا واجه محاولة قتل، أو تلقى إهانة ما. وإنما طعنت سمية في مقتل، وعذبت زنيرة حتى عميت، ونكل ببلال وصهيب وعمار. وهؤلاء كانوا يجتمعون عند رسول الإسلام ومعهم خباب، وزيد بن حارثة، وسالم مولى أبي حذيفة، وابن مسعود والمقداد، وغيرهم من العبيد والفقراء، فيمر عظماء قريش على المجلس فيقولون لمحمد: أما لو طردت هؤلاء العبيد ...... نحن سادة القوم وأشرافهم ...... كيف نجلس مع عبيدنا ...... أنكون تابعين لهؤلاء؟ ...... إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا العرب به فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت (٦٦). فنزلت الآية:
"ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين" (٦٧). في الحرب كان العبيد المؤمنون (بالثورة) مقدامين مقحامين، شهد خبّاب ابن الأرت، وعمار بن ياسر، وصهيب بن سنان وغيرهم من العبيد كثيرون، مثل أبي كبشة عبد محمد، وخبّاب مولى عتبة، شهدوا بدرا وأحدا، والخندق والمشاهد كلها مع رسول الإسلام. ومات الكثير من هؤلاء العبيد وهم يقاتلون في سبيل دعوة محمد والرماح في أيديهم. وهنا يبرز سؤال خطير للغاية: فهؤلاء الرقيق الذين ساندوه في أول حملته، وناصروه ونصروه، هل ألغى رسول الإسلام الرق من أجل ثورتهم إلى جانبه ؟!
الإجابة أخطر من السؤال نفسه، وتكمن فيها الفاجعة لمن يتفحص ويتمعن. فرسول الإسلام حرر عبيد (المشركين) نكالا ب (المشركين) وأبقى على عبيده وإمائه وعلى رقيق المسلمين.
ففي غزوة الطائف سنة ثمان للهجرة. حاصر المسلمون حصن الطائف عدة أيام. ونادى منادي (رسول الله): "أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر". وما أن سمع العبيد أجراس الخلاص تأذن بالحرية حتى سارع العديد منهم إلى الخروج من أسوار الطائف ، وهبطوا إلى معسكر رسول الإسلام. ولم يفتح محمد الطائف لكنه حرر العبيد، عبيد المشركين.(٦٨)
وحاولت الطبقة المالكة إثناء رسول الإسلام عن عزمه تحرير العبيد، وزعمت أن العبيد يلوذون به لا رغبة في الدين، وإنما هربا من الرق. فقال ناس: صدقوا يا رسول الله، ردّهم إليهم،

فغضب (رسول الله) وقال: "ما أراكم تنتهون يا معشر قريش حتى يبعث الله عليكم من يضرب رقابكم على هذا، وأبى أن يردهم وقال: "هم عتقاء الله عز وجل" (٦٩).
والواقع أن محمدا لم يلغ الرق بل اشترط المكاتبة. أي اشترط الفداء، والتزام المالك بقبول الفداء. وفيما عدا مولاه زيد بن حارثة الذي أعتقه بدون مكاتبة، أطلق سلمان الفارسي بموجب مكاتبة، وكذلك بريرة، وأبو محمد بن سيرين، وبرغم المكاتبة نجد أن رسول الإسلام لم يطلق مواليه بل احتفظ بمعظمهم حتى موته.
ذكر ابن عبد البر (٧٠) أن ثمة أمتين لمحمد اسم الأولى ماريا القبطية، وهي ابنة شمعون التي أهداها المقوقس صاحب مصر إلى نبي الإسلام. واسم الثانية أيضا ماريا. كذلك كان لنبي المسلمين عبد يدعى رومان الرومي (٧١).
ومن موالي محمد أيضا ـ كما رأينا ـ زيد بن حارثة. إلا أنه أطلقه وتبناه ثم تزوج من طليقته زينب بنت جحش. وكان زيد نصرانيا من بني كلب أسره غزاة من العرب فباعوه في عكاظ واشترته خديجة لنفسها ثم أهدته لزوجها محمد، وجاء أبوه ليفتديه فرفض وآثر البقاء إلى جانب نبي الإسلام.
ومن مواليه محمد شقران. وكان عبدا حبشيا لعبد الرحمن بن عوف فأهداه لنبي الإسلام. وقد حضر وفاة محمد ومات بالمدينة. (٧٢).
كذلك من بين مواليه الذين لم يطلقهم عبد يدعى أبو كبشة. (٧٣). وقد ذكر عنه ابن سعد.
ومن مواليه الذين ظلوا في حالة الرق حتى وفاته عبد يدعى "عداد". وذكر ابن الأثير أنه كان قبل ذلك عبدا لشيبة بن ربيعة بن عبد شمس، وهو من أهل نينوى ـ الموصل وكان نصرانيا. (٧٤).
ومن مواليه أيضا، أبو لقيط. وذكر ابن الأثير أنه لم يحرر وبقي إلى أيام خلافة عمر. وكان حبشيا، وقيل أنه كان نوبيا. (٧٥)
ومن عبيد محمد الذين لم يطلقهم أيضا، مولى اسمه روضه. وذكر السيوطي أنه "حضر زائر إلى باب النبي (ص) وقال أيمكنني الدخول ؟ فقال الرسول لعبده الذي كان يسمى روضه: أخرجه وعلمه الطريق الصحيحة ...... الخ" (٧٦).
وفي غزوة حنين اكتشف نبي الإسلام أن بين السبايا إمرأة تدعى أسماء، وكانت أختا له بالرضاعة من حليمة السعدية فأطلقها وأرسلها مع هدايا. وكانت الهدايا عبارة عن عبدين (رجل وامرأة) (٧٧). وهذا يعني أنه ـ عليه السلام _ كان يهدي الرقيق، فلم يكن يقتني العبيد فقط.
وإذا، فالإسلام لم يلغ العبودية بشكل تشريعي. ومع أنه كان حاسما في مسألة الربا، فحرمه صراحة ونهى عنه في كثير من آيات الخطاب القرآني ـ رغم إضرار هذا التحريم في مصالح تجار قريش إضرارا بالغا ـ إلا أن الإسلام التزم نظريا بتخفيض مؤسسة الرق. وصحيح أنه وضع مبدأ للمساواة في الآية ١٧٧ من سورة آل عمران، إلا أنه ترك المجال واسعا أمام الإسترقاق من ناحية عملية. فالإسلام لم يبلغ الإسترقاق عن طريق الغزو. فقد كان هذا النوع من الغنائم دافعا كبيرا إلى (الجهاد في سبيل الله).

لقد حرر نبي الإسلام بعض النساء من الإسترقاق عقب أسرهن في الغزو. وهذا صحيح، لكنه فعل ذلك لأنه أراد الزواج بهن. وذلك كان حال جويرية بنت الحارس. فقد دفع محمد فديتها إلى ثابت بن قيس ثم أعتقها وتزوجها. وأيضا كان ذلك هو حال
صافيا (صفية) بنت هويا اليهودية في إثر غزوة خيبر، ولكنه بحسب - ابن سعد في طبقاته - فإن الناس قد تساءلوا عما إذا كان سيتزوجها أو يحتفظ بها كأم ولد. ومعلوم أن أم الولد هي عبدة يتعاطى معها معلمها رسميا علاقات جنسية، ويكون الأولاد الناتجون عن ذلك أحرارا. (٧٨)
ولم تكن حال صفية استثنائية. فهناك أيضا كانت ماريا القبطية، وريحانة. نبي العدل والمساواة كانت له سراري لم يطلقهن رغم أنه أنجب من واحدة منهن وهي ماريا القبطية. فقد صنفت مع سرارية أي - كما يذكر الطبري - زوجاته اللواتي كانت حالتهن حالة الرقيق. (٧٩) لقد قبل محمد، كما قبل معاصروه نظام الإسترقاق على أنه من قوانين الطبيعة، تقول عائشة أصغر وأحب زوجاته إليه: "افقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم فظننت أنه أتى بعض جواريه، ......" (٨٠)
وعائشة أيضا لديها جواريها. فبعدما أطلقت بريرة التي شهدت لصالحها في حديث الإفك تقول أم المؤمنين: "دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث فاضطجع على الفراش وحول وجهه..." (٨١)
ويتسائل الدكتور محمد التيجاني السماوي: "وأين رسول الله صلى الله عليه وسلم من زوجته عائشة التي كفرت عن يمين نقضته بتحرير أربعين رقبة. فهل هي أبر وأتقى لله من رسول الله ؟ (٨٢)
فقد أخرج البخاري: "إن عائشة حدّثت أن عبد الله بن الزبير قال في بيع أو عطاء أعطته عائشة: والله لتنتهيّن عائشة أو لأحجرنّ عليها فقالت: أهو قال هذا؟ قالوا: نعم. فقالت: هو لله علي نذر أن لا أكلم ابن الزبير أبدا، فاستشفع ابن الزبير إليها حين طالت الهجرة، فقالت: لا والله لا أشفع فيه أبدا ولا أتحنث إلى نذري، فلما طال ذلك على ابن الزبير كلم المسور بن مخرمة، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث، وهما من بني زهرة. وقال لهما: أنشدكما بالله لما أدخلتماني علىعائشة، فإنها لا يحل لها أن تنذر قطيعتي. فأقبل به المسور وعبد الرحمن مشتملين بأرديتهما حتى استأذنا على عائشة، فقالا: السلام عليك ورحمة الله وبركاته أندخل ؟ قالت عائشة: أدخلوا. قالوا: كلنا ؟ ...... قالت نعم أدخلوا كلكم ولا تعلم أن معهما ابن الزبير. فلما دخلوا، دخل ابن الزبير الحجاب فاعتنق عائشة، وطفق يناشدها ويبكي. وطفق المسور وعبد الرحمن يناشدانها إلا ما كلمته وقبلت منه، ويقولان أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عما عملت من الهجرة فإنه لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، فلما اكثروا على عائشة من التذكرة والتحريج طفقت تذكرهما وتبكي وتقول: إني نذرت والنذر شديد. فلم يزالا بها حتى كلمت ابن الزبير وأعتقت في نذرها ذلك أربعين رقبة ......" (٨٣). حدث ذلك بعد وفاة نبي الإسلام. فكيف حدث أن عائشة تملك أكثر من أربعين عبدا وجارية. لقد سبق لنبي الإسلام أن رهن درعه عند يهودي ليجد ما يقتات به. فأين هي الحقيقة ؟ ... ... وفي أي موقع وقع التزوير ؟
لا شك أن الحقيقة تكمن في ما روي عن عائشة. فقد كان لنبي الإسلام خمس المغانم من الغزو.

والنيسابوري (٨٤) في ذكره لمعرفة الموالي وأولاد الموالي من رواة الحديث يبدأ بموالي رسول الإسلام، فيعدد منهم الكثير. وقد رأيت أن أنقل النص بحذافيره:

"وأول ما يلزمنا الإبتداء به موالي رسول الله صلى الله عليه وسلم. فمنهم شقران كان حبشيا لعبد الرحمن بن عوف فوهبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأعتقه وكان ممن شهد دفن النبي صلى الله عليه وسلم وألقى في قبره قطيفة والحديث به مشهور.

ومنهم رويفع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من سبي خيبر.

ومنهم زيد بن حارثة من سبى العرب من كلب فمنّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعتقه فقيل زيد ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلت (أدعوهم لآبائهم)؛ وكانت امرأته أم أيمن مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فولدت له أسامة بن زيد وآنسة.

أخبرنا اسماعيل بن محمد بن الفضل الشعراني قال حدثنا جدّي قال ثنا إبراهيم ابن المنذر احزامي قال ثنا محمد بن فليح عن موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال: وكان ممن شهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم آنسة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو كبشة ويقال اسمه سليم.

أخبرنا إسماعيل بن محمد بإسناده عن ابن شهاب قال في ذكر من شهد بدرا أبو كبشة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل اسمه إبراهيم، زوّجه رسول الله صلى الله عليه وسلم مولاته سلمى فولدت له عبيد الله بن أبى رافع كاتب أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه، وأبو مويهبة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وله رواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وضمرة، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أعقب، وسلمان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

حدثنا الحسن بن يعقوب قال حدثنا يحيى بن أبي طالب عن علي بن عاصم بإسناده إسلام سلمان: ذكر أنه كان عبدا فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة أتاه فأسلم فابتاعه النبي صلى الله عليه وسلم وأعتقه.

وسفينة: أخبرنا عثمان بن أحمد بن السماك قال ثنا الحسن بن مكرم قال حدّثنا عثمان بن عمر قال أخبرنا أسامة بن زيد عن محمد بن المنكدر عن سفينة قال: ركبت البحر في سفينة فتكسّرت فركبت لوحا منها فطرحني في جزيرة فيها أسد فلم يرعني، فقلت: يا أبا الحارث، أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعل يغمزني بمنكبه حتى أقامني على الطريق ثم همهم فظننت أنه السلام.

ومهران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، له حديث. "

إذا كان كل هؤلاء فضلا عن ما اعتقته عائشة لنقض نذرها هم موالي نبي الإسلام وثالث زوجاته فأين رقيق باقي أزواجه. إن النيسابوري الإمام لم يذكر لنا إضافة إلى ذلك سوى أم الحسن خيرة جارية أم سلمة زوج نبي المسلمين، فأين رقيق حفصة وصفية وجويرية،...... إلى آخر قائمة أزواجه عليه السلام ؟!!

يقول عباس محمود العقاد: "لقد شرع الإسلام العتق ولم يشرع الرق" (٨٥). وقد فات استاذنا الكبير الراحل أن يدقق في خطبة نبي الإسلام يوم عرفة في حجة الوداع. ففيها اعتبر محمد إنكار العبد لفضل صاحبه بمثابة ومنزلة الكفر بالله إذ قال: "أعدى
الأعداء على الله قاتل غير قاتله وضارب غير ضاربه ومن كفر نعمة مواليه فقد كفر بما أنزل الله على محمد ...... الخ" (٨٦). فكيف أن الإسلام لم يشرع الرق ؟
لقد عرف الإسلام رق الإستدانة أو الوفاء بالديون تماما كما عرف رق البيع والشراء. أما أن الإسلام لم يعرف رق الإستدانة أو رق الوفاء بالديون فلا أدري كيف فات ذلك على استاذنا الكبير العقاد، وهو المشهور له بالموضوعية والموسوعية في آن معا. ذلك أن محمدا قبل نزول آيات الربا كان يقضي باسترقاق شخص يسمى "سرّق" عجز عن الوفاء بدينه لدائنه (٨٧). وقد يكون الإسلام قد نسخ ذلك فيما بعد، أما أنه لم يعرف فذلك غير صحيح، وفي غير محله.
ثم لا بد من ملاحظة في محلها هنا. فالله بحسب القرآن حرم الخمر في الدنيا وأباحه في الجنة حتى ليكاد يصح وصفها بأكثر من خمارة، ففيها نهر من خمر، وحرم البغاء وأباح الحور العين للمؤمنين الفائزين. فهو يبشر بمبغى في الملكوت إضافة إلى الخمارة. أما الرق الذي لم يحرمه في الدنيا فإنه مباح في الآخرة أيضا:
"إن المتقين في جنات ونعيم، فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم، كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون، متكئين على سرر مصفوفة، وزوجناهم بحور عين، وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون، يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون" (٨٨).
وهكذا يبدو أن الثواب في الحياة الآخرة يعني أن الإسلام قعد عن تحقيق المساواة والعدل في الحياة الدنيا.
وثمة ملاحظة أخرى حول واقعة أن النساء الإماء قد أنزلن إلى مستوى العاهرات، فقد أشار إليها الخطاب القرآني، فكانت إشارته كمرآة لممارسات جاهلية. ولكنه لم يحرم ذلك:
"ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم". (٨٩)
وهذه الآية تؤكد على وجود بغاء منظم في المدينة. ونبي الإسلام لم يفكر في تحرير النساء من سلاسل العنف إلا بعد أن تعرض أمن زوجاته للخطر. ومن أجل ذلك أرسل مبعوثيه إلى عبد الله بن سلول وأقرانه يستعملهم. فأوضح هؤلاء سلوكهم بالإدعاء إنهم لا يمارسون الغصب إلا مع النساء اللواتي يعتقدون أنهن عبدات (٩٠). وفي ذلك لعب على اختلاط هوية النساء اللواتي يدنون من هؤلاء الرجال. ومن أجل ذلك أورد الخطاب القرآني آية توجب على نساء النبي ونساء المؤمنين كي يدنين عليهن من جلابيبهن فيتميزن كحرائر ولا يلاقين مصير أولئك الإماء. (٩١)
ولم تكن الغاية حجابا برغم إدعاءات المفسرين والدعاة (وهم من الرجال على الدوام) وإنما هي شارة لتمييز الحرائر عن الإماء .
ولكن يلفتنا هنا أن الله بحسب الخطاب القرآني ـ يأخذ على عاتقه تخليص النساء الحرائر من إمكان غصب إرادتهن في فعل الزنا، فيما هو يترك الإماء لهذا المصير. إن اله القرآن لا يقر

بوجود حرة وأمة وحسب، بل يترك الأمة لمصيرها المحزن وكأنها ليست من خلقه. إن الله إذ ذاك، إذ يوجد الحل في تميز المرأة الحرة عن المرأة الأمة أو الجارية فإنما يعترف أيضا بالشارع كمكان سمح فيه بالتزاني !... ... ويبقى السؤال قائما !!

إذا كان رسول الله وأزواجه لديهم مثل هذا العدد من العبيد والموالي فكيف يقال أنه حرر العبيد، وإن الإسلام دين العدل والمساواة ؟ البعض يقول إن المهمة لم تكن عاجلة ولا آلية، بل إنها تطلق سلسلة من الخطوات والمفاوضات التي يمكن أن تسمح بنوع من التسويات. ولكننا نجد أن هذه التسويات لم تتم إلى أن ألغت القوى الإستعمارية الرق في القرن العشرين.

ونحن نرى أن الإتفاقية الدولية المبرمة في ٢٥ أيلول/سبتمبر بجنيف ، تم توقيعها من جميع الدول تقريبا فيما رفضت السعودية توقيعها ولم توقعها حتى اليوم. وكذلك رفضت توقيعها اليمن. فيما وافقت مصر على ضمانة الحرية الفردية في دستورها عام ١٩٢٣. وألغى العراق الرق عام ١٩٢٤. ولم يلغ الرق في باقي الدول العربية إلا بموجب منشور صادر عن قوى الإستعمار، عن دول الحماية والإنتداب !!!



هوامش البحث

١- د. طه حسين في "الشعر الجاهلي" ص ٢٠. مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة طبعة عام ١٩٢٦ م.
٢- المصدر السابق نفسه ، الصفحة ذاتها
٣- سورة يونس _ الآية ٣٨
٤- طبعة ليدن. الجزء الأول ص ٢٩٤-٢٩٦
٥- سورة نوح
٦- النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ص ٨ _ منشورات دار المشرق _ بيروت
٧- المصدر نفسة
٨- معجم البلدان. الجزء ٤ ص ٦٥٢
٩- المصدر السابق. الجزء ٤ ص ٣٣٧
١٠- تاريخ الطبري. الجزء الأول ص ٧٣٧ _ ٧٣٨
١١- تاريخ أبي الفداء. الجزء الأول ص ٣٨
١٢- في كتابه "الخطط" الجزء الثاني ص ٤٨٣
١٣- تاريخ العبر. الجزء الثاني ص ٤٧
١٤- مروج الذهب. الجزء الأول ص ١٢٧
١٥- سورة الحج (الآية ٥٢)
١٦- سورة النساء (الآية ١٢٨)

١٧- سورة هود (الآية ٧٢)
١٨- سورة البقرة (الآية ٢٢٨)
١٩- سورة النور (الآية ٣١)
٢٠- سورة الصافات (الآية ١٢٥)
٢١- سورة المائدة (الآية ١٢)
٢٢- سورة الأعراف (الآية ١٥٧)
٢٣- سورة الفتح (الآية ٩)
٢٤- سورة التوبة (الآية ٣٠)
٢٥- راجع "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي - في تفسير يوم الجمعة
٢٦- أخرجه أبو داوود في سننه
٢٧- أخرجه البخاري ومسلم
٢٨- سورة الفلق
٢٩- كتابه (الطب النووي)
٣٠- ورد ذلك في معظم تفاسير القرآن
٣١- سورة النساء (الآية ٣)
٣٢- تاريخ عمر بن الخطاب للإمام الحافظ أبو الفرج الجوزي. الطبعة الأولى ١٣٩٤ هجرية
٣٣- مصدر سابق
٣٤- صحيح البخاري. ج٦ ص ٢٤. كتاب تفسير القرآن باب قوله: "ترجي من تشاء منهن وتأوي إليك من تشاء. ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك.
٣٥- رواه البخاري في صحيحه
٣٦- سورة البقرة (الآية ٢٨٢)
٣٧- سورة النساء (الآية ١١)
٣٨- سورة النساء (الآية ٣٤)
٣٩- مصدر سابق
٤٠- تفسير الطبري
٤١- سورة الأحزاب (الآية ٣)
٤٢- سورة النحل (الآية ١٠٣)
٤٣- سورة فصلت (الآية ٤٤)
٤٤- سورة فصلت (الآية ٤٤)
٤٥- سورة الشعراء (الآية ٢٦)
٤٦- القرطبي في (الجامع لأحكام القرآن)
٤٧- سورة التوبة (الآية ٩٧)
٤٨- سورة التوبة (الآية ٩٨)
٤٩- سورة التوبة (الآية ١٢٠)

٥٠- سورة الفتح (الآية ١١)
٥١- سورة الفتح (الآية ١٦)
٥٢- سورة الحجرات (الآية ٤)
٥٣- أسباب النـزول ـ للواحدي النيسابوري. طبعة ١٣٨٨ هجرية ـ بمصر
٥٤- أحكام القرآن ـ ل "إبن العربي" ـ الجزء الثاني ص ١٠٠٥
٥٥- الجامع لأحكام القرآن ـ القرطبي ـ في تفسيره لسورة "براءة"
٥٦- طبقات ابن سعد جزء ٣ ـ القسم الثاني ـ ص ١٢٣
٥٧- جامع البيان في تأويل القرآن ـ الطبعة الثانية
٥٨- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني. الجزء ٢ ص ١٩١-١٩٢
٥٩- سورة الأنعام (الآية ١٥٢)
٦٠- سورة الإسراء (الآية ٣٥)
٦١- سورة الرحمن (الآية ٧-٩)
٦٢- سورة المعارج (الآية ٢٤-٢٥)
٦٣- سورة الذاريات (الآية ١٩)
٦٤- سورة الزخرف (الآية ٢٣)
٦٥- سورة الأنعام (الآية ١٦٥)
٦٦- صحيح مسلم بشرح النووي طبعة محمود توفيق. القاهرة الجزء ١٥ ص ١٨٧
٦٧- سورة الأنعام (الآية ٥٢)
٦٨- طبقات إبن سعد _ الجزء الثاني ـ القسم الأول ص ١١٤-١١٥
٦٩- سنن أبي داوود السجستاني. الجزء الثالث ـ ص ٦٥ _ المكتبة التجارية
٧٠- هو القرطبي في كتابه "الإستيعاب في معرفة الأصحاب" الجزء ٢ ص ٧٨٣
٧١- التاج ـ الجزء الثامن ـ ص ٣٢٠
٧٢- أسد الغابة ل "ابن الأثير ". الجزء الثالث ـ ص ٢ ـ
٧٣- طبقات ابن سعد ـ الجزء الثالث. القسم الأول ـ ص ٣٣ _
٧٤- في كتابه أسد الغابة ـ الجزء الثالث ـ ٢٨٩.
٧٥- في كتابة أسد الغابة ـ الجزء الخامس ـ ص ٢٨٦.
٧٦- الإصابة ـ الجزء السابع ـ ص ٢٥٨.
٧٧- الطبري في "محمد خاتم الأنبياء" راجع أيضا "الحريم السياسي" لفاطمة المرنيسي ـ ص ١٦٢.
٧٨_ طبقات ابن سعد ـ الجزء الثاني ـ ص ١٠٧.
٧٩- تاريخ الطبري. الجزء ٣ ـ ص ١٨٠.
٨٠- مسند الإمام أحمد الجزء ٦ ـ ص ١٤٧.
٨١- رواه البخاري في صحيحه من كتاب الجهاد باب الدرق. وكذلك مسلم في صحيحه في كتاب صلاة العيدين باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه.

٨٢- في كتابه "فاسألوا أهل الذكر". ص ٢٧١. مطبوعات مؤسسة الفجر - لندن.
٨٣- صحيح البخاري - من كتاب الأدب، باب الهجرة (جزء ٧ - ص ٩٠).
٨٤- هو الإمام الحاكم أبي عبد الله، في كتابه: معرفة علوم الحديث - منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر - بيروت راجع ص ١٩٧ و ١٩٨.
٨٥- حقائق الإسلام وأباطيل خصومه _ العقاد. ص ٢١٥. مطبوعات المؤتمر الإسلامي بمصر.
٨٦- راجع "مع الصادقين" لمحمد التيجاني السماوي. ص ٤٣. الطبعة الأولى - دار سينا للنشر.
٨٧- الربا والفائدة في الإسلام للمستشار محمد سعيد العشماوي. ص ٤٣. الطبعة الأولى _ دار سينا للنشر.
٨٨- سورة الطور (الآيات ١٧ إلى ٢٠ و ٢٢ إلى ٢٤).
٨٩- سورة النور (الآية ٢٣)
٩٠- طبقات ابن سعد. الجزء ٨ ص ١٧٦.
٩١- سورة الأحزاب (الآية ٥٩)



خاتمة الجزء الأول

يروي الغزالي في "كتاب الأربعين في أصول الدين" (١): "إن بعض علماء بني إسرائيل تاب عن ذنوبه وبدعته، فأوحى الله إلى نبي زمانه إن ذنبك لو كان في ما بيني وبينك لغفرته لك، ولكن بمن أضللت من عبادي فأدخلتهم النار". ولقد طلب نبي الإسلام محمد عليه السلام، قبل ساعات من وفاته، أن يوافوه بقرطاس وقلم ليكتب كتابا لا تضل بعده أمته. ولكن عمر بن الخطاب منع عنه ذلك بقوله: "دعوه إنه يهجر" (أي يهذي) فقد غلبه الوجع، حسبنا كتاب الله". (٢). واختصر ابن عباس الإشكالية بقوله: " الرزية (المصيبة) ما فصل الرسول عن كتابه". (٣). ولم يفسر لنا الرواة والمؤرخون ما عناه ابن عباس. فهل قصد بالكتاب، كتاب القرآن. أم عنى الكتاب الذي اعتزم محمد أن يكتب ومنع عنه. فإن كان قصده ما فصل الرسول عن القرآن. فذلك سيعني أنه رأى من محمد ارتدادا عن القرآن لأنه يهجر أو يهذي بحسب تعبير ابن الخطاب. وإن كان قصد من ذلك ما فصل محمدا عن تدوين كتاب جديد فذلك سيعني أن نبي الإسلام كان بصدد تقديم أمر جديد. والجديد المفاجئ لن يكون توصية بخليفة كما يقول الشيعة. لأن الخطاب القرآني حسم هذه المسألة لصالح "الشورى". وبشكل صريح لقوله: "وأمرهم شورى بينهم". والشورى عرف قبلي قديم مستقر عند العرب أقره البيان القرآني، ولن يكون بمقدور نبي الإسلام أن يخرج عليه، وهو الذي لم يستطع أن يخرج عن أعراف مثيلة بل أقرها وضمنها شريعته كما رأينا في هذا الكتاب، وإذا......... ما الذي كان سيكتبه نبي العرب ومنعه أصحابه من كتابته حتى طردهم من حجرته ؟

إنه سؤال خطير لا يمكن كشف الإجابة عليه قبل استكمال رحلتنا في الفكر لكشف غوامض تلك المرحلة. ومن هذه الغوامض الغريبة ذلك التمرد الخطير الذي مارسه صحابته قبل وفاته. حيث رفضوا الذهاب في جيش تحت إمرة أسامة بن زيد إلى بلاد الشام، ومنعوه أن يكتب لهم كتابا لا يضلون بعده !

لقد وصلنا الإسلام بقرآنه وسنة رسوله عن طريق هؤلاء الصحابة المتمردين على رسولهم. فهل نقبل بما وصلنا عن طريقهم وهم غير ثقاة. أم نقبل بهم ونرفض سلوك نبي العرب ؟

حتى يومنا هذا نجد نحو مليار من المسلمين لا يدركون عمق هذا المأزق. مأزق أن ندرك مدى أخطاء الصحابة وأنهم لم يكونوا ثقاة. وأن نقبل في الآن ذاته بما وصلنا عنهم بطريق التواتر؛ وهذا ما سيكون موضوع الجزء الثاني من هذا الكتاب، وبعد ذلك سنمهّد لذلك بلمحة عن الصراع السياسي الذي اكتنف الحياة العربية، قبيل وإبان ظهور الإسلام.

